حسب الشيخ جعفر

8.5.2017



نينا بتروفنا

من أيقظ الحسناء النائمة؟

رواية



حسب الشيخ جعفر

نينا بتروفنا
من أيقظ الحسناء النائمة؟

رواية

نينا بتروفنا

من أيقظ الحسناء النائمة؟

رواية

المؤلف: حسب الشيخ جعفر

عنوان الكتاب: نينا بتروفنا - من أيقظ الحسناء النائمة؟

الناشر: دار المدى

الطبعة الاولى: 2014

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول

info@daralmada.com

+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

(هذه يوميات أو مذكرات حقيقيّة، كتبها في موسكو قلم لا أعرفه، وهي تعود إلى أواخر الستينات من القرن العشرين، وقد أعدت كتابتها موسّعاً، مستفيضاً حتى أضحت رواية يمكنني القول إنني كاتبها الآخر وسيعرف القارئ كيف وجدت سبيلها إلى..)

عرفت أندريه أوّل مرّة، في إحدى الجرائد، حيث يعمل محرراً ثقافياً، كنت أتسلّم مكافأة عن قصائد لي نشرت مترجمة هناك، لحظة (هجرت) غرفة امينة الصندوق التقيت زميلاً من محرّري الجريدة، فدعاني إلى احتساء القهوة في البوفيت، اتجهنا إلى طاولة يجلس إليها شابان، أحدهما اندريه، اخذ الحديث يدور عن حفل يقيمه الشاب الثالث وزوجته احتفاء بعيد ميلادها في شقتهما، سريعا ما قال الشاب لي:

- يسرّنا أن ندعوك، الليلة، إلى حفلنا الصغير.

قلت كالمعتذر:

- واضح أن حفلكم للمتزوجين فقط.. كما اتضح لي من الحديث..

- كلا، ليس للمتزوجين فقط، ستجد من لم يتزوج بعد.

وأضاف مؤكداً:

- وها أنا أكتب لك العنوان والتلفون، فإن لم تهتد سريعاً إلى المنزل.. يمكنك أن تتلفن، مع أن عنواننا سهل..

قال الصحافيّ الزميل:

- كنت سأنتظرك في أي مكان تجده ملائماً، ومن هناك نذهب معاً في سيارتك إلى المنزل، غير أنني سأتأخر في الجريدة، وسأحضر الحفل متأخراً.

وهنا قال أندريه:

- ما رأيك أن ننتظرك عند سينما متروبول في السادسة والنصف؟ يمكنك أن توقف السيارة عند الرصيف الجانبي من السينما، ومن هناك ننطلق، إنّه يقطن في منزله غير بعيد عن المركز.

عادة ما كنت أحتفظ ببعض الهدايا الصغيرة المفرحة في مثل هذه

الحفلات، استحممت في الشقة، وارتديت ثياباً لائقة بالحفل، حملت معي قنينة عطر هدية للزوجة، وقنينة ويسكي مشاركة منّي بمائدة الحفل، وانطلقت إلى مركز المدينة، أوقفت السيارة حيث نصحني اندريه (كنت أعرف الموقف) ووقفت عند السينما أنتظر.

سريعاً ما أقبَل اندريه مع شابة ظاهرة الجمال عن بُعْد.. (هي زوجته كما عرفت بعد قليل)، وكان اسمها ناديا، كنا في أوائل الشتاء الروسي، وقد أخذ الثلج يتساقط صغيراً كما يقول الروس: أيْ خفيفاً، ناعماً، كانت الشوارع آخذة زحمتها الاعتيادية في تلك الساعة (المبكرة) من الليل، إلا أنّنا استطعنا أنْ نصل بعد نصف ساعة أو أقل..

كان الحفل مكتملاً تقريباً، وقد شكرتني الزوجة الشابة على هديتي (النادرة) وأفرحَت القنينة الحفل الصغير كله، وبدأ الرقص وكنت واندريه في حوارٍ (متعمّق) عن (السرّ الفني) في اختفاء الطبيعة الروسية الشيّقة، الحافلة من روايات دوستويفسكي، بينما هي في المركز من اهتمام تولستوي، وقد فاتتنا معظم الرقصات، غير ان ناديا ما برحت تتذكرنا، بين الحين والآخر، فتدعوني أو تدعو زوجها إلى هذه الرقصة أو تلك، وسألتني ناديا فجأة:

- يبدو أنّ صاحبتك مشغولة الليلة.
- إننا منفصلان منذ أسبوعين.
- لن أسأل عن السبب بالطبع.
- لم يعد الأمر مهمّاً، عاد إليها زوجها بعد فرقة دامت عاماً، وإنّ لديهما طفلة، وقد سألتها الصفح عنه من أجل الطفلة، كما أنّني لم أشأ أن أعطي أملاً لا أملكه.
- كل شيء واضح.

أوصلتهما حتى بيتهما، وأصرّا أنْ أكون ضيفهما ليلة الاحد الآتية، اي بعد ثلاثة ايام، ووصلت شقتي متأخراً.

كنت أعمل (مترجماً في بيتي) في دار نشر كبيرة، وقد أراحني هذا، فقد كنت حُرّاً تقريباً في التصرّف بوقتي، ولديّ منه ما يكفي ويزيد. لم أستطع أن أقيم علاقة (جادّة) مع فتاة أكثر من أشهر معدودة، لم تكن لديّ نيّة على الاقتران وقد لاتدوم العلاقة أكثر من أسبوع، كنت (متعلقاً) تماماً بحريتي، أذكر أنّني أوشكت أن أرتبط برباط الزوجية المقدّس كما يقول توفيق الحكيم، وسريعاً ما أدركت أنّني غير متهيِّئ، بعد، لأنْ أرتبط ارتباطاً وثيقاً الثقة كلّها مع فتاة. كنت أفضّل (الحرية)، ربما لم يكن السبب في عزوفي هو في من عرفت من الفتيات، يبدو لي أنّ السبب كامن في حبّي حريّتي.

كنت متضايقاً، أوّل الأمر، من ذهابي إلى صديقيّ الجديدين منفرداً بلا صاحبة، أو من دعوتهما إلى شقتي وأنا وحيد، إلّا أنني سريعاً ما ادركت أن هذا (الجانب) من المسألة لم يكن يهمّهما أو يعنيهما بشيء، بل اتصلت بصاحبة قديمة اعتدت أن ألتقيها مرّتين أو ثلاث مرات في العام، وصحبتها إليهما، ودعوتها مرة إلى الشقة قبل وصولهما، وفي المرّتين لم تكن صحبة الصديقة تعني شيئاً مهماً في ما بدا واضحاً لي..

مرة وصلت شقتهما في الوقت المتفق عليه، ولم يكن أندريه قد حضر بعد، قالت ناديا: إنّه سيتأخر نصف ساعة أو ساعة في الجريدة. كنت (محرجاً). كانت المائدة مهيّأة وأضفت إليها ما حملت: قنينة ويسكي..

كان في خروجي من الشقة إساءة إلى ناديا، وكان بقائي غير مريح لي. مع ذلك استطعت أن (أقنع) نفسي بأنْ أمكث وكان الوضع اعتيادياً كما تراه ناديا، كان أندريه زوجاً طيباً كما بدا لي، إلّا إنّه يصاحب أحياناً هذه أو تلك من (العابرات).

مرّةً كان عندي وكنا نتحدّث عمّا سمعنا من اصحاب لنا عن فيلم جديد، لم يره أي منّا وكانت ناديا تريد مشاهدة الفيلم وكان أندريه منشغلاً تلك الأماسي بقضايا الجريدة، وسألني: هل أنا حرّ في أمسية الغد؟ وهل يمكنني اصطحاب ناديا إلى مشاهدة الفيلم؟ اتفقنا أن أنتظرها عند السينما في الخامسة والنصف، اي بعد انقضاء عملها بنصف ساعة، وكان مكان عملها غير بعيد عن السينما.. بل يمكنها الوصول سيراً على قدميها، وانتظرت ناديا هناك. أحسست فجأة بشيء من عدم الرضا أو عدم الارتياح، فأنا لا أنتظر (صاحبة) لي، بل انتظر زوجة رجل آخر، هل كنت لائماً نفسي؟ ربما، وجاءت ناديا فرحة بي، ضاحكة الوجه، فخجلت من انزعاجي. وصحبتها مرةً إلى المسرح، وباقتراحٍ من اندريه ايضاً، غير أنّ ما أحرجني حقاً هو تخلف اندريه عن صحبتها إلى شقتي.. وكانا مدعوين معاً ليلة أحد، حالما فتحت الباب قالت ناديا:

- لن يحضر اندريه الا بعد ساعة.. وربما أكثر، لم أشأ أن أتركك تنتظر طويلاً.. فأنتظر أندريه في البيت، ما ذنبك؟ حقاً ما هو ذنبك أنت فتظل تنتظرنا منفرداً إلى المائدة؟

على المائدة زجاجتا ويسكي ونبيذ (قد تفضّل ناديا إحداهما على الأخرى). وكان الويسكي لا يُباع إلّا في السوق الحرّة، قالت ناديا في مرحها المعتاد:

- أردت أن أصحب إلى هنا صديقةً لي، وكنت متردّدة، فقد لا يروقك (الأمر)، مَنْ يدري؟

- ولماذا لا يروقني؟

- وكيف لي أن أعلم؟ ولم اشأ أن أفاجئك باصطحابها إلى هنا في التلفون، ربما كنت تفكر بدعوة صديقة مَنْ يدري؟

كانت مرتدية البدلة الزرقاء الداكنة قليلاً التي ابتعتها من السوق الحرة قبل أيام، وأهديتها إيّاها.. (كنت مرّةً هناك ورأيتها تليق بها فأعجبني أن أقدّمها لها: هدية عيد ميلاد مضى قبل أن أعرفها كما زعمتُ)..

ولأنها جمّة الوداد والترحيب، والبدلة تلوح أكثر تألقاً وهي تلتف على قوامها الفاتن وبياضها الناصع، وكنّا نشرب ونتحدث.. في انطلاقة ويسر.. ويرنّ التلفون، هو اندريه ويقول إنّه قد يتأخر..

- اطمئن.. سأوصل ناديا حتى مدخل العمارة، أنا أعني عمارتكم..
وضحك اندريه.
- بالطبع حتى المدخل إلى عمارتنا نحن.. وليس حتى المدخل إلى عمارتكم.. لن تتركها مترنِّحة في الطريق إلى البيت..
- ها هي ترفع نخباً في صحتك..
- سأحاول الحضور.
- وسننتظرك حتى تنعس ناديا وتود الانصراف.
- سأحاول.. ولو لمشاركتكما القدح الأخير..

لم يصل اندريه إلا قبيل الثانية عشرة.. وأثناء ما كنت أسكب له طلبت ناديا أن نشرب بلا مصاحبة منها.. إنّها مرهقة، وجئت لها بوسادةٍ مريحة، وتمدّدت بطولها الرائع كلّه، قد لا تقلّ المرأة المثيرة المتمدّدة وهي في ثيابها، إغراءً وفتنة عنها وهي متمدّدة بلا ثياب. لم ألقِ على قوامها البديع إلّا نظرة أو نظرتين، وكان من حسن طالعي أن ظهري إليها.. فلا تشرد عيناي إليها رغم تحرّزي غير أنني لم أبرح أتذكّر إلّا هذه اللحظة تلك الامتدادة الافروديتية، وكان على أندريه، أن يسافر في مهمّة صحافية إلى الاورال، وسيمكث أسبوعين هناك، وطوال هذين الأسبوعين، كنت ألتقي ناديا يومياً تقريباً، حاولت قدر

استطاعتي أن نقضي السهرة أو اللقاء في السينما أو المقهى أو في المطعم، وكيلا تظن بي الظنون اقترحت، مرة، أن أزورها في شقتهما ولم تكن الليلة ليلة احد، فلم أبقَ عندها غير ساعتين..

هل كنت أريدها؟ اعذريني يا ربة الصداقة! أخيراً عاد أندريه، فأحسست بحالتين من الشعور: الارتياح واللاارتياح، ويحلو لي أن أتخيّلني وكأنّني قد فزت في اجتياز تلك (التجربة) الصعبة، أمّا ناديا فلم يبدُ عليها أنّها تشعر بتكلّفي الابتعاد بها عن إغراء الشقة، وكانت تتزيّن وترتدي خير ما ترتدي، وهو شيء طبيعي عند أيّة أنثى.

قال أندريه، وكانا في شقتي، وناديا تجيء من المطبخ وتذهب إليه منشغلة بإعداد وجبة لم نَزَل نترقّبها منذ أيام:
- أَلَمْ تزَلْ مُصرّاً على أنّ تولستوي أكثر قدرةً على وصف العالم الخارجي أو الطبيعة في الأخصّ من (المصروع)؟
هو يعني مازحاً دوستويفسكي.

- إقرأ أية رواية أو قصة للكونت وقارنها بأيّة رواية للمنفي السيبيري تجد ما كنت أؤكّده، أضف إلى هذا أنّ تولستوي ليس أقلّ مقدرة من دوستويفسكي على الغوص في الدخائل البشرية كما أنّ اللغة الروسية عند السيد الاقطاعي، وأنت أعلم منّي، أكثر اتساعاً وصفاء وعمقاً منها عند صاحبك المروض.
- لكنّك أكثر رجوعاً في قراءاتك إلى صاحبي.
- أحياناً، وليس غالباً.
-وأي شاعر روسي أنت مصاحب الآن في ترجماتك؟
- أنت تعرف أنّني لا أترجم الشعر لمصلحة الدار أو ضمن البرنامج، وهو الأصحّ، إلّا نادراً، وغالباً ما تمتلئ القائمة المقرّرة بالروايات

المعاصرة، إنّني أترجم الشعر الروسي ضمن برنامجي الشخصي، وقد بدأت ببوشكين، لكنني أؤجل وأعود، هو أعمقهم، إنْ صحّ تعبيري، وضوحاً أو صفاءً لغوياً، إلا أنّ نقله إلى لغة أخرى أمر قد يكون وعِراً.
- أنا أفهم هذا جيداً يا عزيزي، أتدري كم ستُعظّم محبتك في أفئدة المثقّفين والبسطاء من الروس كلّما علموا شيئاً عن ترجمتك أشعار بوشكين وإعزازك اياه؟

- أعرف منزلة بوشكين الروسية مذ كنت طالباً.
قالت ناديا آتية من المطبخ.
- أعذراني.. ربما سهوت قليلاً عما تتطلّبه الوجبة (الفضلى) من دقة في الوقت.. وذواق طعم.
- لا تخشي لوماً- قال اندريه- بعد كأسٍ أو كأسين (وهما آخر ما يندلق) لن نجد فرقاً بيّناً بين الجودة واللاجوْدة.

قلت صادقاً:
- أنت بارعة في ما تُعدّين أو لا تُعدّين.
وكنت أنظر إلى يديها الجميلتين، وبعد يومين (سمعت) ناديا تقول في التلفون قبل انتهاء (نهارها) بساعتين:
- سيتأخر اندريه في الجريدة طويلاً هذه الليلة، إن لديهم اجتماعاً مطوّلاً و(متشعّباً).. هل لك بزيارتي في السابعة، إنْ لم يكن لديك ما يشغلك بالطبع، فإذا كنت تفضّل أن أزورك أنا فأنا آتية إليك في السابعة أو قبلها بقليل.

- سأكون مسروراً بقدومك إليّ.
كانت ناديا يتيمة الأبوين منذ صغرها، احتضنتها قريبة لها غير متزوجة، واتخذت منها ابنة لها (كانت ناديا في الثانية من العمر).. ولم

تزل ناديا تخاطبها وتتحدث عنها وكأنها امها. كانت القريبة (وهي نينا بتروفنا) آنذاك في التاسعة عشرة من عمرها.. كانت طالبة في الكورس الثاني من المعهد الطبي.. وهي الآن طبيبة جراحة معروفة، وكانت ناديا ساعة التقيتها في العشرين من العمر، أنا لم ألتقِ أمّها بعد، وقد (حذّرتني) ناديا من انها فائقة الجمال:

- صدقني.. ستجد نفسك مغرماً بها.. بل مولهاً بها لحظة رؤيتك اياها.. ولا تقل بعدئذ أنّني لم (انذرك)..
جاءت ناديا حاملة باقة من الزهر ملتفّة بكيسها النايلوني، وضعتها في المزهرية البيضاء.. وكنت قد أعددت كل شيء والمائدة في انتظار، بعد الكأس الثانية خطت هي إلى الغرامفون، اختارت اسطوانة ما، وسريعاً ما انبعثت موسيقى راقصة، هادئة ومنخفضة، وكان لابد من أن ادعوها إلى مراقصتي، أحسست بها بين يدي فائقة الطراوة، دافئة، كان قوامها ملامساً لي كما تتطلّب الرقصة، شكرتها وعدنا إلى المائدة، ولم أسألها بعدها الا رقصة أو رقصتين، ولعلّها ادركت ما بي، في مثل تلك السويعات مع الخمرة والرقص كنت أقبّل المرأة، بالطبع، أو أحاول تقبيلها حينما تظهر أي (تمنع) متعمّدٍ، إلّا أنني لم أشأ تقبيل ناديا، بيننا كان أندريه.

ترى هل ناديا (منجذبة) إليّ؟ مَنْ يدري؟ ربما، هكذا كنت أقول مخاطباً نفسي، غير راغب بالتأكد من الأمر، وعندما أوصلتها إلى باب شقتها قبّلتني قبلةَ مودةٍ وشكرٍ، وهي ليست المرة الأولى، وَدَعَتني إلى الدخول.. كان الوقتَ متأخراً، وهي تبدو محزونة قليلاً، شكرتها وعدت إلى بيتي حامداً لنفسي تقديرها الوضع.
قد أحبّذ المترو أو التاكسي على السيارة.. بل أحبّذ المترو غالباً، غير أنّ الزحام يضطرني إليها اضطراراً، مع هذا كثيراً ما كنت أتركها جاثمة

في مكانها عند المدخل، مدَّثرة بغطائها، لا أذكر أنّني صحبت بها امرأة من الرصيف إلى المطعم أو الشقة مع أنّ هذه المصادفات كانت ميسورة في معظم الأحيان، كنت أحب التنزّه بين أشجار الحديقة أو البولفار، خضراء هي أو صفراء أو مجلّلة بالثلوج، بل كنت أعشقها مصفرّة في ظهائر الخريف الباردة، أو في أمسياته، لا فرق، تقريباً، بين أن أسير منفرداً أو مع امراة، أمّا الذهاب إلى السينما أو المسرح، أو الجلوس في المقهى، أو المطعم فلا يحلو أو يطيب إلّا مع امرأة، بل كنت أحسّنني في مثل هذه الأمكنة، وأنا وحيد، مستوحشاً، قائم النفس. كانت ناديا خير صاحبة ومؤنسة غير أنّها متزوجة، ومن صديقٍ لي، كنت ألتقي، احياناً، صديقة (قديمة) من موظفات المعهد وهي متزوّجة، إلّا أنّها لم تبرح منفصلة عن زوجها الرياضي.

كانت جارتي من الجميلات، بل هي بارعة الجمال حقاً، لم تكن أجمل من ناديا إنما هي أطول منها، كنت أعرفها ولا اعرف زوجها، شاءت المصادفات أن ألتقيها عند السينما المجاورة، فدعوتها إلى الجلوس معي واقتطعت تذكرتين، قبل هذا أو بعد، كانت تقترض مني مبالغ غير كبيرة من المال وتعيدها. مرة لم أشأ أنْ أسترد المال فقالت (متوعّدة):
- إن لم تأخذ المال لن أقترض منك أي مبلغ، وسأحرم من معونتك في المرات القادمات.. عندما أكون مجبرة على الاستدانة منك.
وأصرّت على إعادة المبلغ إليّ، مرّة طرقت الباب، وكنت منتظراً اندريه وناديا، كانت المائدة مهيّأة، فدعوتها إلى الدخول، فدخلت وحالما رأت المائدة معدّة اعتذرت وأرادت الخروج.

- أنا لا أنتظر إلا صديقاً وزوجته، وسنكون مسرورين تماماً بانضمامك إلينا.. اجلسي من فضلك.
- طيّب، لن أمكث غير نصف ساعة.

وحالما حضر أندريه وناديا وتمّ التعارف المعهود.. قلت موضحاً كيلا تبدو زيارتها (خاصة):

- لوسا من أعزّ جيراني عليّ.

لم يطرأ أي تبدّلٍ على وجه لوسا الجريئة أما ناديا الرقيقة فقد علا وجهها شيء منَ الكآبة.. سريعاً ما أخفته، وكنت أقول لنفسي: ما الذي جاء بلوسا؟ هي المرّة الأولى التي تجلس فيها إلى مائدتي.. فما الذي حملها حقاً على زيارتي؟ كانت تدخلِ شقتي أحياناً طلباً لعدد من الصحون والأقداح أو المقاعد كلّما حلّ شقتها زوّار أو أقارب، وكانت تقترض منّي وتعيد المبلغ وهي واقفة عند الباب، فما الذي جرى الليلة؟

كانت تدعوني، بالطبع، إلى زيارتهم كلما حضر ضيوف وجاءت مستعيرة صحوناً أو مقاعد، وكنت اعتذر بانشغالي أو بخروجي بعد قليل، لم أكن أرغب بزيارتهم أو زيارتهم اياي، أما دخولها شقتي أو جلوسها هي إليّ فما ألطفهما! لم تبق نصف ساعة كما قالت، بل لبثت معنا طيلة الجلسة تقريباً، هل كان زوجها غائباً تلك الليلة؟ لم أشأ إحراجها.

بسؤالي هذا، كان واضحاً أنّه كان غائباً ثم أنني لم أكن (مصرّاً) على إقامة (علاقة) معها. ليس من المريح أو الطيب، وليس من السهل أيضاً أن (أقترب) منها أكثر من اقترابي هذا بعد (ذاك) قد لا ترتضي هي أن أصاحب أية امرأة غيرها، وهذا واضح لي مع امرأة مثلها، إنما من يدري؟ (والليالي من الزمان حبالى) كما يقول المعرّي؟

وكنا في اوائل الشتاء الروسي، وعلينا أن ننتظر قبل أن يئن الأوان للاحتفاء برأس السنة، عليّ أن التقي امرأة (يُعتمد) عليها قبل ليلة

العيد، من الممكن أن أمنح إحدى النادلات في المطاعم الساهرة (هدية) ما فأحصل على تذكرتين لليلة المنتظرة، وسترحب اية امراة جميلة ووحيدة بقضاء السهرة معي في المطعم، بينما كانت ناديا تريد، بل هي تلح عليّ ان اقضي ليلة رأس السنة معهما عند امها وجدّتها، وكانت شقتهما قريبة من المنزل الطلابي الجماعي حيث كنت أقيم قبل تخرجي، ولم أكن مزمعاً أمري بعد، أين أسهر ليلة العيد، في المطعم مع امرأة ما أمْ مع أندريه وناديا عند امها، أما ما جرى حقاً فلم يكن متوقعاً.

قبل ليلة رأس السنة بيوم وكنت عازماً أن أخرج مع اول الليل (المبكر) طرق الباب، هي لوسا مع صاحبة لها. كانت فتاة جذابة، بل هي جميلة وجميلة جداً، هي في مثل عمر لوسا: في الرابعة والعشرين كما عرفت في ما بعد، لم تكن فارعة مثل لوسا.. إنما كانت في مثل امتلائها، وهذا ما زادها فتنة في نظري، قالت لوسا إنهما ذاهبتان إلى السينما القريبة، فهل لي أن اصحبهما إن لم أكن على موعد؟ ولم يكن ينتظرني أي لقاء، وهكذا انحدرنا إلى السينما.

هي مهندسة مدنية مثل لوسا، وقد تخرّجتا معاً من المعهد نفسه غير أنها من خاركوف، وقد أتت موسكو بدعوة من لوسا لتقضية ليلة رأس السنة، وللبقاء يومين أو ثلاثة.

بعد السينما دعوتهما إلى العشاء في مطعم ساهر، غير بعيد عن محطة المترو المقابلة، وبعد المطعم، وقد خرجنا من المصعد إلى الطابق الثالث حيث نقطن أنا ولوسا، اقترحت أنا أنْ نرتشف قدحاً أخيراً. لم ترد لوسا أن أسكب لها غير رشفة أو رشفتين قائلة إنّها سوف تنهض مبكرة غداً للحاق بعملها، وأضافت كالمازحة:

- أما أنتما فلا عمل ينتظركما في الثامنة صباحاً، يمكنكما أن تواصلا السهر إلى أية ساعة تشاءان!

وحين فتحت لها الباب أومأت بطرفها أن أتبعها، ووقفنا في الممرّ الجانبي الممتد بين المصعد وبابي.

- لا تقل لي إنك غير محظوظ.

- أنا نصف محظوظ.

- وأين النصف الاخر؟

- إنّه ذاهب معك.

- ليس بيننا غير الحائط؟

- فهل أدق عليك حائطاً؟

- يمكنك أن تطرق الباب.

- فإذا انفتح عن غيرك؟

قالت مازحة:

- قل إنّك بحاجة إلى ملح أو ثقاب.

واضافت جادة.

- بعد انتهاء إجازة ليزا سنوصلها أنا وأنت إلى المحطة.. وسنعود معاً من هناك.

- تلك الليلة.. عندما جئت وكنت أنتظر ضيوفاً.. لم أكن أملك ذرّةً واحدة من الحظ السخي.

- لكنها كانت جميلة.

- لم تكن وحدها.

قبضت على شفتي السفلى بإصبعيها.

- لا تدْعُ امرأة إلى بيتك الا منفردة.

قبّلت وجهي قبلة سريعة، مفاجئة، وأسرعت إلى بابها غير متيحة لي وقتاً لأردّ بقبلة مماثلة.

وعدت إلى ليزا، كانت واقفة تتأمّل الرفوف العديدة المثقلة بالكتب، كان ظهرها جميلاً ومثيراً في بدلتها الحمراء الضيقة، دعوتها إلى المائدة وأنا أفكّر بشفتي لوسا الحمراوين.

- من فضلك لا تزدني سُكْراً، لا أريد الذهاب اليهم وأنا أترنّح، أنا ضيفة كما تعرف.. رفقاً بي؟
- هل أبدو غير مترفّق بك؟
- يقيناً لم أقصد هذا.
- ما أنت بحاجة إلى الذهاب إليهم، نحن ساهران هنا إلى هذه المائدة حتى مطلع الفجر.. مع أنّ الفجر لا يبدو في السماء المدلهمة إلا خيط فجر.
- قد أغفو بعد كأسٍ أخرى.
- وانا حارس (الحسناء النائمة).

وكانت ليلة لا تُنسى كما قال زفايج ناعتاً أوّل ليلة حب في عمر بلزاك وقد عاشها الزميل الفرنسي مع إحدى صويحبات امه، وكما قالها توفيق الحكيم وهو يصف أوّل ليلةٍ مع الالمانية أو الروسية ساشا شوارتز، بعد أن ألقت بها المصادفة، و(الحاجة) إلى غرفته في الفندق الباريسي الصغير.. زهرة الاكاسيا؟

ينبغي أن نأتي بحقيبتها من الشقة المجاورة، لم نجد أحداً كما توقعت ليزا، فآثرنا أن نعود إليهم أوّل الليل وعبرنا الشارع إلى المطعم المقابل، لم نرغب بغير نصف قنينة من النبيذ الخفيف، بعدها ركبنا المترو إلى مركز المدينة، لم تشأ ليزا ان تتخذ السيارة مركباً إلى هناك هي تحبّذ أن نتجوّل حرّين، كانت جولة رائعة في متحف بوشكين (تلك هي رغبتها.. مع أنها شاهدته عندما كانت طالبة في موسكو).. ولم تخرج إلّا مع أوّل

الليل الشتوي (المبكر).. وكان الثلج خفيفاً، ناعماً، رفضت ليزا فكرة العشاء في احد مطاعم المركز:

- ولماذا هنا؟ أحب أن أكون معك وحدك، سنأخذ أولاً حقيبتي من شقة لوسا، لابد من أن أغيّر ثيابي، ونتعشّى عندك..
سنشتري طعاماً جاهزاً، وسأعدّه انا بيدين عارفتين. لن نشرب غير كأسين لا تنسَ أنّنا على موعد غداً مساءً مع ليلة رأس السنة!
وقبل أن نتجرّع اول جرعةٍ من الخمرة الجورجية.. لا أدري ما جرى لي فأخذت بيدها وقلت صادقاً:
- ليزا.. هل يمكنني ان اتزوجك؟
- لكنّني متزوجة.

وفتحت حقيبة اليد وأرتني الخاتم الذهبي:
- واضح أنّك لم تلاحظه عندما ذهبنا إلى السينما، في السينما انتزعته ووضعته في الحقيبة، كنت أودّ حقاً أن أصاحبك، لم يكن الخاتم مانعاً، بالطبع، عن صداقتنا، إنما لم أردْ أن تتصوّرني متزوجة في أوّل ليلة لنا.
- صدقيني.. أنا أحب أن أتزوجك من غير أن أسألك أي سؤال ولك أن تسألي عنّي قدر ما تشائين.

- أنا أعرف أنك فتى طيب، لكنّني متزوّجة ثم من يدري؟ فقد تلتقي الضفّتان يوماً ما، في موضع ما من النهر، قد أقضي أياماً من إجازتي الصيفية في موسكو، من أجلك.. فإذا وجدت نفسك راغباً برؤيتي أكتب لي أوّل الصيف..

قالت أكثر من نادلة، مِمّن أعرف، إنني جئت متأخراً جداً للبحث عن تذكرتين لليلة رأس السنة. لم أجد غير تذكرتين في مقهى (في آخر لحظة) كما زعمت النادلة.. ولم نلبث، أنا وليزا، هناك طويلاً. آثرنا (سهرة) الشقة.

ولَمْ تطرق لوسا الباب الا متأخرة.. (كانت مع زوجها عند أمها واختها) تلك الليلة لم تختر ليزا غير الويسكي! قالت لوسا كالمازحة.
- إنّه نائم.. يمكنني أن (ألهو) معكما.. إلا أنها ليلة ليزا.

قالت ليزا كالمازحة ايضاً:
- لن أقف بينك وبين (اللهو) البريء. ومثلما وعدت لوسا.. أوصلنا ليزا إلى المحطة وعدنا معاً من هناك إلى البيت بعد أن تحرّك القطار بالطيّبة الجميلة ليزا.. طيلة بقائها في موسكو (وكان قصيراً) لم ألتقِ أندريه أو ناديا.. ولم يجرِ أي اتصال بيننا إلّا عبر التلفون وانقضت ليلة رأس السنة بعيداً عنهما على غير ما كانت تأمل وتريد وناديا، عندما خرجنا من المصعد قلت داعياً لوسا:
- هل لك بكأسٍ أخيرة؟
- آسفة يا عزيزي.. الوقت متأخر، غداً أو بعد غدٍ سأدفع لك قصاصة من تحت الباب.. إن لم أجدك.

كان الوقت متأخراً حقاً.. كنا نقترب من الثانية عشرة، وكنت مرهقاً وسريعاً ما رقدت، أما قصاصة لوسا فلم تصل شقتي إلّا متأخّرةً. وجدتها بعد أربعة أو خمسة ايام وكنت في عالم غير عالمها.

مع هذا فقد انتظرتها مثلما أرادت وحدّدت، كان الموعد غريباً كما بدا لي.. في الثانية عشرة نهاراً، لا ريب أنها لم تجد وقتاً أكثر ملاءمة لها غير هذه الساعة من النهار. حالما أوصدت الباب خلفها، وقبل أن تنزع معطفها الأنيق عن قوامها الفارع الرائع قالت:
- أعذرني.. لن تغدو معي سعيداً اليوم.
- لماذا بحق عينيك الفاتنتين؟
- سأقول لك.. في حينها.

كانت المنظّفة قد جاءت مبكرةً كما رجوت منها. نظّفت الشقة.. وبدّلت الشراشف، وأعدّت غداءً طيباً وانصرفت.
- لن أشرب، هذه المرة، إلا الخفيف من النبيذ.. أي نبيذ.. فأَعِدْ زجاجة الويسكي من فضلك إلى ثلاجتها الصغيرة..

لم أضع اسطوانة موسيقى راقصة.. وهل تروق الموسيقى الراقصة، البطيئة إلا ليلاً؟ وهي غير (متهيّئة) كما أخبرتني لنكتف بالشراب الرائق والقبلات.. إن هي طاوعت ورغبت..
- أمكنني اليوم أن أنْتزع إجازة (مرضية) من صديقتي الطيبة.. إجازة يوم.. وها انا جئت..

اقتربنا من أن ننتهي من النصف الأوّل من الزجاجة.. وحين وقفت لوسا وأخذت تتطلع إلى رفوف الكتب اقتربت منها وأحطتها بذراعي.. فاستدارت إليّ، فأخذت أقبّل وجهها الجميل..
- هل أنت (متوعِّكة)؟
- انا متوعِّكة.. ذلك التوعّك الذي يلمّ بالنساء مرّةً كل شهر.. لم يحدث (الأمر) إلا بعد (الاجازة).. آسفة..
قلت مازحاً:
- ألم يكن بمقدورك أن تمنعي (الأمر)؟
- فأمره أن ينقشع الآن.. إن كنت قادراً.

وكنت في عالم غير عالمها تقريباً.. رأيت نينا بتروفنا فصعقت، رأيت ام ناديا فصعقت حباً دعتني ناديا إلى عيد ميلاد أمّها فسررت، كنت أود رؤية هذه المرأة مذ وصفتها ناديا لي بأنها امرأة تتمتع بجمال فائق.. بجمال باهر (مميز).. فكنت متشوّقاً..
ذهبت أوّلاً وناديا إلى السوق الحرّة.. ورجوتها أن تختار بدلة فاخرة

لائقة فاختارت النوع والطراز اللذين اختارتهما لنفسها: اللون الأزرق الداكن قليلاً.

كان عليّ أن أذهب منفرداً إلى بيت نينا بتروفنا، ناديا منشغلة مع نينا بتروفنا بإعداد المائدة، وسيحضر أندريه في ما بعد، لم يكن الحي غريباً عليّ، كان قريباً من منزلنا الطلّابي، وضعت قنينتي ويسكي وجن في كيس يعتمد عليه، ووضعت الهدية في كيس آخر، وانطلقت.. مصغياً إلى أغنية خِلْتها فألاً (مشجعاً). وصعقت من أوّل نظرة، سبحان من خلق وسوّى! هي افروديت حيّة، دافئة، أي وجه ساحر وأي قوام باذخ ثري، أنا لم أرَ في المسرح أو السينما ممثلة أجمل منها، بل لم أرَ امرأة أجمل منها أو في مثل جمالها في أيما شارع أو حديقة أو مطعم ومن أول لحظةٍ ادركت انها تعي جيداً سطوتها على الرجال، أمّا ما ادهشني بعد هذا فهو انها متواضعة وطيبة، وبينما كنت متأملاً جمالها الفائق، مأخوذاً به اقتربت مني ناديا ناظرة إليّ نظرتها العارفة، وكأنها تقول لي:
- ألم أقل لك؟
لم تشأ الامرأة الجميلة الرقص مع أي من الحاضرين، كانت تعتذر كلما طلبها أحدهم، فلم أسألها الرقص خوف أن تعتذر، وكانت قد أجلستني إلى جانبها تقديراً ورعاية وكان واضحاً لي أنّها مدركة ما حلّ بي. وفي المنتصف من السهرة قرّبت وجهها مني وسألتني باسمة:
- ألا تود رؤية مطبخي؟

نهضنا معاً وذهبنا إلى هناك، وكانت كوة النافذة منفرجة.
- هل أغلقها؟
- دعيها، من فضلك، مفتوحة.
وسألتها وكأنني أرمي بنفسي في اعماق اللج:

- رجاءً.. هل يمكنني رؤيتك غداً؟
قالت باسمة، ناظرة الي نظرة ملاطفة:
- غداً السبت!
- أأنت مشغولة غداً؟
- كنت أظن انك المشغول غداً.
- لست مشغولاً.. رجاءً أيمكنني ان اراك؟
- ممكن، في السابعة، أيوافقك هذا؟
- أي وقتٍ موافقٍ لي، وأين تودين ان انتظرك؟
- عند اقرب مترو إلى منزلك.
واضافت وقد اتسعت ابتسامتها:
- قالت ناديا أنه مترو سمايلوفسكي.
- ستجدينني واقفاً هناك.

وكنت أتساءل مع نفسي: لماذا اختارت هذه المحطة، وهي قبالة منزلي؟ واضح أنها لا تريد المطعم والسينما أو غير ذلك، أوَليس واضحاً ايضاً أنها لا تريد التدلّل والتأخير المتعمد؟ أي جمال وأي تموّج في قوامها، أقسم بآلهة الجمال والحب كلّها أنها أنعم وأطرى.. بل وأدفأ امرأة على الأرض.

قبيل السابعة كنت واقفاً أنتظر عند محطة المترو.. وبعد أقل من عشر دقائق جاءت نينا بتروفنا، كانت ترتدي معطفاً من الفرو الأشهب المائل إلى الزرقة الخفيفة، وبقبّعة من الفرو نفسه تقريباً.. حيّتني وصافحتني بيدها الغضّة الدافئة بعد أن انتزعت قفازها الفرائي عنها، وقالت مداعبة، وهي تبتسم لي:
- يدك حارة.
- لا تنسي أنني من البلاد المتاخمة للصحراء المحرقة.

ثم قالت جادة وباسمة ايضاً.
- أنا واثقة من أنك ستكون طيباً معي..
- أكثر مما يمكن أن تتصوّري.
- قلت إنني واثقة.. حدثتني ناديا كثيراً عنك.. وكأنها كانت على يقينٍ من اننا سنتصاحب.

هي أطول من ناديا قليلاً.. وأكثر امتلاءً.. انما هو امتلاء الممثلات أو راقصات الباليت الجميلات.. دعوتها إلى أن تكون ضيفة عزيزة لديّ، ولم تكن دعوتي مفاجئة لها، أعنتها في انتزاع معطفها عنها، وعلّقت المعطفين وغطائي الرأس، ودعوتها إلى المائدة المعدّة.. كل شيءٍ في موضعه تقريباً وكانت مرتدية البدلة التي أهديتها إياها.. فأية مودةٍ وأي شكران! قالت بابتسامتها الأخّاذة:
- إنها المرة الأولى التي أرتدي البدلة، فأنا لم أشأ أن يراني بها أحد قبلك.

لم أدعها إلى الرقص الا بعد ساعة، ولم أسألها تقبيلها إلا بعد الرقصة الثانية، لم أكن متعجلاً وبعد أن أعطتني شفتيها الممتلئتين عرفت أنها لي، وأننا الليلة، معاً طيلة الليل.. وأنني محظوظ جداً، فضربت خشب المائدة كما أوصانا السيد همنغواي.
- لماذا ضربت المائدة؟
وأوضحت لها.
- أتجدني رفيعة الشأن هكذا؟
- بل أرفع وأروع.
- لكنك تلاقي العديدات من أمثالي في طريقك.
- انت تعرفين أنك أجمل امرأة على الارض.
- لا تزدني غروراً من فضلك.

تلك الليلة عرفت أنني رجلها الأوّل وسألتها:
- لماذا؟
- أنت أوّل من أحبّه وأرتضيه!

وبعد الساعة الثانية ارادت أن تغسل يديها وتشرب ماء وكنا معاً على الوسادة البيضاء..
- اعطني روبك من فضلك.. انه قريب منك.
التفت بروبي على عريها، وذهبت إلى هناك، ارتديت بيجامتي، وجلست منتظراً على الفراش.
- ما رأيك بقدح صغير؟
- حبذا الاقتراح!

وبعد أن جلسنا إلى المائدة، وملأت هي القدحين، قالت جادةً كالمازحة، باسمةً لي:
- اسمع يا عزيزي.. نسيت ان أسألك.
- أسألي من فضلك.
- كان ينبغي ان أسأل حالما اخذت تقبلني، لكنني نسيت لم أتذكّر إلا الان.. لا أدري ما أنساني.
- اسألي اذن.
- هل نمت مع.. ناديا؟
- كلا.. صدقيني.
- لا تقل لي إنها لم تعجبك.
- إنها جميلة.. إنما المسألة ليست هنا.
- فأين تكمن المسألة في رأيك؟
- انها زوجة صديق.
- إسمع يا عزيزي.. انها ميّالة اليك.. وكان هذا واضحاً لي قبل أن

نلتقي، أنا أعرفها، صحيح أنها ليست ابنتي.. إلا أنها ترعرعت في بيتي منذ طفولتها كابنة لي، لا تدعها تدرك شيئاً أو أقل شيء عما جرى أو سيجري في ما بيني وبينك.

- لكنّها ستعرف.

- وكيف ستعرف؟

- سأصحبك إلى المسرح والسينما.. إلى المطعم.. وسأزورك في بيتك.. وسأدعوك إلى بيتي كثيراً.. ومن هنا ستعرف.

- ألن نكتفي باللقاء هنا؟

- كلا.. لن نكتفي..

وأضفت فجأة:

- اسمعي رجاءً.. وأنا جادّ وصادق في ما اقول، هل يمكنني ان اتزوجك؟ من فضلك.

- ما بك؟ أنت في عمر ابني..

- لست في عمر ابنك، وهذا لا يعني شيئاً..

- أنا زوجتك. ألم تتزوجني الليلة؟

- أريد ان أتزوجك (شرعياً).

- وقالت كما يقول الروس الأصحاب بلا إساءة:

- ما بك؟ هل جننت؟ كيف يمكنني الزواج من فتى في مثل عمر ابني؟ ماذا ستقول أسرتي وصواحبي؟

- سيقولون إنني أحبك.

- قد تقول أمي هذا، وربما ناديا، أما الاخرون فسيقولون إنني أوقعت بك اثرةً واحتيالاً.

- ما أنا إلا فتى أجنبي لا يملك غير راتبه، فأين الايقاع هنا؟

- أترى؟ لم تزل تتحدث وتتحدث، ولم تدْعني إلى الفراش بعد وتقول لي إنك تحبني.

قالت هذا مازحةً..
- أنت تدرين انني أتحرّق شوقاً إليك.
- أدري، وهل كنت سأمنحك نفسي في أول لقاء لنا لو أنني لم أكن ادري؟ منذ اول لحظة وانا ادري.

وأدركت ناديا واندريه انني التقي نينا بتروفنا مرتين أو اكثر كل اسبوع، ولم اعد اراهما، الا نادراً، غير ان لنينا بتروفنا رأياً آخر. لم ترد لصداقتي معهما ان تنتهي أو تضعف بسببها، فكان لابد من ان ادعوهما إلى شقتي وهي فيها، كان اندريه ينظر إلى الوضع نظرة اعتيادية، اما ناديا فتبدو لي كالمتشككة من غير ان يقل تقديرها ومودتها، كانت تظن انها صحبة عابرة، وان نينا بتروفنا ستتعذب بعد ابتعادي عنها قريباً.. وهذا ما اخبرتني به نينا بتروفنا، الا ان ناديا لم تر منّي، فيما بعد، الا حباً واخلاصاً لنينا بتروفنا..
فاطمأنت آخر الامر.. أو ان هذا ما بدا لي..

في الطريق أو الامكنة العامة كالسينما والمسرح وغيرهما نادراً ما نلتقي بالنظرة المستغربة التي لا ترى إلا الفارق بين العمرين.. أما النظرة العامة من الناس فلا ترى إلا جمال نينا بتروفنا الفائق.. وتعلقي الواضح بها، وهذا ما أراح نينا بتروفنا وناديا.
طرقت لوسا عليّ الباب مرةً، وقد جاءت تقترض مبلغاً. كان زوجها لا يعرف شيئاً (عن صداقتنا) كما انبأتني، دعوتها إلى الجلوس، وجئت بالقنينة والكؤوس، وفتحت زجاجتي كولا ايضاً.. وأخذنا نتحدث فجأةً قالت باسمة، مؤكدة:
- أنا أعرف أن لك الآن امرأة جديدة.
ولم أسألها كيف عرفت..
- وأنا لست غضبى، لم تجر الامور بيننا كما كان ينبغي لها ان تجري

تلك هي المصادفات ثم انني متزوجة.
وأضافت مازحة:
- لكنني أعرف أنّك ستدعوني قريباً إلى (هناك).
كانت تعني المخدع.
- رجاءً.. ايمكنك البقاء هنا؟
- ليس الليلة.. فيما بعد.
جاء الصباح بارداً جداً، وقد كفّت الثلوج عن التساقط. وكنت عائداً من المخزن. أعطيت الترجمة همتي كلها، ولم افتح غير علبة بيرةٍ واحدة.

كنت متّفقاً مع نينا بتروفنا أن تزورني في السادسة مساءً.. أي بعد انصرافها من عملها، وسيزورني اندريه وناديا في السابعة. كان اليوم هو السبت، وهو اليوم الذي اعتدنا، انا ونينا بتروفنا، أن نلتقي فيه مساءً، أما في الأمسيات الأخرى فقد كنا نتفق عبر التلفون، فأزورها أو تزورني أكثر من مرتين في الاسبوع، لم أهيّئ طعاماً، نينا بتروفنا هي التي تعد العشاء، وأحياناً ناديا، ومع الخامسة احضرت الصحون والأقداح إلى المائدة، وسمعت التلفون يدق فأسرعت إليه، هي نينا بتروفنا:
- عزيزي.. لا يمكنني الحضور، أمي متوعكة.
- كيف هي الان؟
- أفضل، انما ينبغي أن أبقى في الشقة، قد تحتاج إليّ وأنا ابنة وطبيبة، إنها ليلة السبت، وأنا آسفة.
- أنا اقدّر الوضع، هل أزورك أنا؟
- أنت تنتظر ضيوفاً. اخبرتني ناديا.
- أعني بعد انصرافهما (المبكر).

- انت تعلم انني متشوّقة.
- سأحضر حالما ينصرفان.
- إحضر من غير أن تتصل، فرنين الهاتف يوقظ أمي، اطرق الباب طرقاً هيناً.. وسأفتح، سأسمع المصعد وهو يتوقف فأفتح.
- لن يحضر اندريه إلا بعد السابعة، إنه في (بعثة) صحفية إلى أحد الكولخوزات، ستهب الليلة عاصفة ثلجية رهيبة.
- لقد بدأت منذ الان.
- كلا.. هذه طلائعها..

وكنا نسمع صفيرها المتوعد.. بعد الكأس الاولى كانت الزوبعة الثلجية تحتدم احتداماً كان صفيرها ملتاعاً في أعالي السطوح كما يبدو لي.
وأخذ التلفون يرنّ، قالت ناديا:
- ربما هو أندريه.
- وربما هي نينا بتروفنا.

وكانت هي:
- إسمع أيها العزيز.. انها عاصفة ثلجية هائلة، وستشتد عنفاً وعتوّاً، لا تخرج، لا توصلهما ليس عليك ان تقود السيارة في هذه العاصفة الرهيبة، فإذا شاءا أن يبيتا عندك فإنّ لديك كل شيء فيما يخص منامهما، لا تخرج، عدني أنك لن تخرج.
- أعدك.
- غداً سأعدّ غداءً ممتازاً، سأكون مسرورة بحضورك.. مثلما تعرف. وقد تحضر ناديا واندريه، لا تخرج، أنتظرك غداً..
- سأحضر.. مهما يجنّ جنون الزوبعة.
- سيكون الجوّ هادئاً غداً.
قلت وأنا أقترب من ناديا:

- غداً ينتظرنا غداء رائع.
- أعرف، لقد أخبرتني قبل يومين.
- لن تحضر نينا بتروفنا.
- جدتي متوعكة قليلاً.

ونظرت إلى ساعتها:

- آمل ألا يتأخّر أندريه، إنّها عاصفة ثلجية مروّعة يبدو أنّها تزداد قوة واندفاعاً.
- ما رأيك أن نتجوّل تحت ذيولها المتشابكة؟ الحديقة والطرقات مغطاة الآن بالثلوج، ما أبدعه منظراً!
- سنتجول قليلاً، وليس بعيداً، إنما ليس الآن.

ورفعت كأس الويسكي قائلة:
- حبذا الفودكا في هذه الزوبعة الثلجية الروسية!
- سآتي بها الآن.
- كلا لن تخرج.
- انها هنا.. في الثلاجة الصغرى.
- ما أعزّك وألطفك صاحباً!
وجئت بالفودكا فأخذتها، وقد اتّسعت عيناها الجميلتان بهجةً، وأتيت بثلاثة كؤوس بلورية صغيرة فأخذت هي تصب.
- منذ التقيتكَ أوّل مرةٍ وأنت تغمرني مودةً وطيبة، ولم أبرح أفكر: كيف يمكنني أن أردّ اليك جميلك، ولا أدري كيف.
- لقد أهديتني صداقتك.
- الصداقة لا تُهدى كالحب.. خاصةً بين المرأة والرجل، هل تظن ان حبّك المرأة هدية لها؟ هكذا هي الصداقة.

وسمعنا التلفون يرن. قالت ناديا:

- هو أندريه.. كما اظن.

وكان هو اندريه.. يجيبني ويريد ناديا.. وعادت تقول وقد علت وجهها حيرة ما:

- لن يحضر اندريه.. ستطول المهمة يوماً آخر.

وأضافت جادة:

- لن توصلني، بالطبع، في هذا الطقس العاصف.. يمكنني أن اذهب وحدي إلى البيت هذا أفضل من أن تتعرّض عند عودتك وحيداً إلى حادث.. لن أسمح.

- بل سأوصلك.

- كلا، لا أريد أن توصلني بسيارة مترنحة.

- وكيف أتركك وحيدةً إلى الطرق.. وأنت مرهقة؟

- ما أنا ثملة.. هذا ما يبدو لك.

- الافضل، إذاً، أن تبيتي هنا، هذه الأريكة الطويلة سرير مريح اذا طرحنا ظهرها جانباً، وسآتي لك بما يكفي من الاغطية والشراشف والوسائد.. وهي كلّها نظيفة.

- الافضل هو هذا.. كما يلوح لي..

- فدعينا نشرب مزيداً.. وقد فرغنا من مسألة الخروج إلى الزوبعة الثلجية والطرقات المقرورة.

- هل نسيت اقتراحك بالنزهة الصغيرة؟

- كلا، لم أنس، سنخرج في أي وقت ترغبين.

- ما رأيك بلقاء الزوبعة الثلجية في الثانية عشرة.. ساعة انتصاف الليل العاصف؟ ستكون جولة قصيرة، رائعة!

وكنا نرتشف ونصغي إلى الرياح وقد جنّ جنونها، كانت تصطفق

اصطفاقاً متنائياً.. تنتحب وتقهقه، وكانت النزهة بديعة حقاً!
كنا نخطو بصعوبة في الممشى الحدائقي بين الأشجار العتيقة، العالية، المجللة بالثلوج، وكان كل شيء مغطى بها.. وهي تتكوّم أكواماً، ونادبا تحتمي بظهري.. أو هي تلوذ بوجهها إلى كتفي، وقد تسبقني وتعود بظهرها متمايلةً إليّ، فاحتضنها بين ذراعيّ وهي تضحك، ما أنعمها! وأنا أحسّ بدفئها وطراوتها عبر الفرو الناعم، وركضت ضاحكة، منهزمة مني، فلحقتها واحتضنت ظهرها، فانسحق ردفاها الطريان.. الوثيران عليّ وهي تضحك، وأطالت وقوفها وأنا احتضن ظهرها احتضاناً قوياً وانفلتت ضاحكة، صائحةً بما لا أدري وكانت الشقة دافئة بعد الجولة.

- أظن أن لديك بيجامة زائدة.
- ونظيفة تماماً.
- أحضرها من فضلك.
أعطيتها البيجامة وتركتها تبدل أثوابها ودخلت مخدعي لأرتدي بيجامة، ولم أفتح الباب حتى سمعتها تضحك.
- إلى متى تبقى متوارياً؟
يا الهي! ما أجملها! أحياناً قد تزيد ثياب الرجل المرأة الجميلة جمالاً وإغراءً! واخذنا نرتشف ايضاً.
- غداً أقول (لها) انني بت ليلتي هنا.
قالت هذا مازحة (متوعدة).
- وأخبري اندريه أيضاً.
- ولماذا لا تخبره انت؟
- سيطلقك وأتزوجك..
كنا نمزح مرحين، ضاحكين.

- أنت لم تأت بفراش بعد؟
- سآتي به كلّه الآن، وأفرش لك.
- أنا سأفرش لنفسي.
كان فراشها معدّاً ووثيراً. لكننا لم نشأ الرقاد بعد، كنا نودّ أن نبقى معاً وقتاً أطول.. ربما حتى الفجر، ولم تزل العاصفة الثلجية عبر النافذة تتلوى وتولول، تنتحب وتقهقه، وضعت ناديا فجأةً اصبعها على فمها (متوعدة) مازحة:

- لا تنس وتتوهم لحظة أنني (ضيفة) عابرة.
- بل سأظنك عروس الزوبعة الثلجية الجميلة بشعرها الاشقر الطويل وبفروها الابيض.. وقد انحدرت إليّ من النافذة.
- اتحسبني باردة مثلها؟
- ومن قال إنها باردة؟ إنها تشع دفئاً.
- فإذا كانت باردة.. فما أتعس رجلها الليلة!
- بل هي دافئة وطرية أيضا؟
- وطرية أيضاً؟
- ما أنعمها بين ذراعي!
- وأين احتضنتها فعرفت؟
- في الممر الحدائقي الأسطوري.. بين الاشجار الثلجية.
- فلماذا تركتها تفر من بين ذراعيك عائدة إلى قصورها وحدائقها الثلجية الباردة؟ لماذا تتركها؟
- ستزورني الليلة من النافذة أو الباب.
- لا أظن.
- ولماذا لا تأتي في رأيك؟
فاجابت ضاحكة العينين؟

- إنها متقلّبة المزاج؟؟ كأية امرأة.
- ما أشقاني فتى إذاً!
- لا تيأس تماماً.
- أهناك أمل؟
- قد ترق وتعطف.. وتجيء.
- ما أكرمها!
- أنتظر.. قلت لك أنها متلونة.

ولم تأت عروس الثلج، تلك الليلة، من الباب.. ولم تأت من النافذة أكانت تنتظر حتى غلبها النوم مثلي؟ ربما.
وذهبنا معا إلى الغداء.. وجدت نينا بتروفنا متكدّرة قليلاً في ما لاح لي. أكانت تشك؟ لقد عرفت أن أندريه لم يعد، وأن ناديا باتت ليلتها عندي (أخبرها اندريه).. وخرجنا بعد الغداء. ناديا إلى شقتها، وأنا ونينا بتروفنا إلى شقتي. ولم تشر بشيء، طيلة الطريق، إلى مبيت ناديا عندي، وفي الشقة ايضا. وسألتها محتضناً، مقبلاً، داعيا إياها إلى غرفة النوم وهي تعتذر:
- أتشكّين بي؟
- لا أدري.
-أنظري إلى وجهي.
- قلت لك أنا أعرف أنها منجذبة إليك.
- أنظري إلى وجهي.. أتشكّين؟
- الآن.. لا.
وعندما ارتدينا أثوابنا مساء قالت:
- لن أبيت الليلة هنا.. لم تزل أمي بحاجة إليّ.
وكنت أرى وجنتيها بقعتي احمرار.

- لنذهب الآن وخذ قنينة معك ستحضر ناديا وصاحبة لي.
- وأندريه؟
- سيتأخر يومين أو ثلاثة. لقد اتصل بناديا وأخبرها في الوقت الذي كنت (تتودد) فيه إلي في المطبخ.. أيها الصبي المعابث.
وأضافت وأنا أعينها في ارتداء معطفها:
- قد تلح الجدّة على ناديا بالمبيت عندنا.. بعيدا عن الشقة الموحشة. فاذا قَبِلت ناديا لا يمكنك تقضية الليلة في غرفتي. ليس من اللائق ان ننام معا وناديا في البيت.
- أنا اعرف.

جاءت ناديا غير متزينة! إلّا قليلاً. كانت حذرة وأقبلت الصديقة بعدها وهي من الجيران. وكنت صامتاً. كانت الجارة تتحدّث وتتحدّث بلا انقطاع تقريباً ولم تسأل من أين أنا أو ماذا افعل في موسكو. يبدو أنّها كانت تعرف. وماذا يهمني؟ بدا واضحاً لي ان ناديا بائته، الليلة، عندهم. تمنيت لهم ليلة هادئة كما يقول الروس. وهبطت من غير أن أنتظر المصعد. لم تزل الثلوج تتهاطل إلا أنّ الريح هادئة. لقد سئمت، فيما بدا لي، إعوالها والتطامها. كان الطريق مزدحماً. صببت لي ملء كأس صغيرة، ورحت أتصفح مجلّة مصوّرة وأخذ التلفون يرن في السكون المطبق. هي نينا بتروفنا:
- أخيراً وصلت. كنت قلقة فأردت أن اطمئن.
- كان ازدحاما غير متوقع
- اتدري؟ لولا الجارة لذهبت معك.
- كان عليّ. اذاً، أن أتأخّر حتى تخرج.
- فلماذا لم تبقَ؟
- لن أبيت بعيداً عنك ليلة واحدة بعد اليوم.

- كلا عزيزي. ستسأم قبل ان ينتهي الشتاء.
- لن اسأم يوماً منك.
وقبل أن أخرج كانت ناديا تلاطفني في التلفون:
- ماذا أنت صانع الآن في شقتك الفارهة؟
- لو أنك تأخرت دقيقة لما وجدتني.
- سأتذكّر هذا جيداً. أنت لم تجبني. ماذا أنت صانع الآن في شقتك؟ تترجم؟ تكتب؟ أم تلعب الورق مع نفسك؟
- أنا لم أتعلّم اللعب بالورق مذ سمعت به.
- سأعلّمك. وبلا رهان. لا أريد أن أفرغ جيوبك.
- وأية متعة في اللعب من غير كسب؟
- متعة الظفر.
- آ.. فاتني هذا
- لقد فاتتك (أوضاع) رائعة.. وعديدة.
- اسمعي.. لقد اغريتني (باللعبة).
- أنت لاتعرف (اوضاعها) بالطبع.
- أنا أتخيّل جيداً كم هي باذخة.. ومتنوعة.
- الخيال شيء.. و(هي) شيء آخر.
- هل يمكنني أن أراك الآن؟
- ولماذا لا..؟ يمكنك.
- اسمعي.. لقد اترعت انائي حتى فاض.
- سأطرق الباب بعد أقل من ساعة. إنما قل لي.
- لا أنتظر أحداً غيرك
- لقد حزرت قبل أسأل.
وجاءت ناديا.. في أوج زينتها. أعنتها في انتزاع معطفها الفرائي الجميل. هي في البدلة الحمراء الضيقة، التي اعجبتني جداً، وقد التفت

بها، مرة، وكنا في لقاء عابر في احد المقاهي وبتسريحة جديدة:
- أنا في إجازة غدا.
- ما اعظم حظي!
- سأعلّمك عدداً من (اوضاع اللعبة) الليلة.
- ولماذا ليس كلّها؟
- لاتكن طماعاً.

مرضت نينا بتروفنا مرضاً غير (خطير) كما زعمت لي. وسريعا ما أدخلوها المستشفى حيث تعمل وكنت أزورها يوميا مع ناديا. أو وحدي في معظم الاحيان. يبدو أن المرض قد انتقل اليها بعد احدى العمليات الجراحية. لكن ما هو المرض. وكيف أنتقل إليها؟ لم تقل هي لي أي شيء واضح عن مرضها. ولم يقل لي أي أحد آخر كما أرادت هي. ولم أعرف شيئاً عن خطورة المرض إلا بعد خروجها من المستشفى وشفائها تماماً. ولم تتح لي، مرّة، أن أقبّلها طالما هي في المستشفى. ولم أكن أراها إلا جميلة رغم مرضها وشحوبها، ولم أرها، مرّة، إلا وهي ضاحكة العينين لي. وكلّما زرتها سألتني ماذا أكلت وماذا فعلت؟ لقد أدركت أنا وادركت هي كما أدرك غيرنا كم أنا متيّم بها. لم يمر يوم، طيلة رقادها في المستشفى من غير أن أزورها.. حاملاً هدية ما: باقة زهر، فاكهة، كتاباً أو مجلة أو أية هدية أخرى مما يسمح به.

لم أدْعُ ناديا إلى شقتي. ولم تزرني هي طالما كانت نينا بتروفنا راقدة في المستشفى. بل لم أدع أية امرأة، أو أصحب أية امرأة إلى السينما أو غيرها. مرة دعتني ناديا إلى السينما فاعتذرت. وبعد أن خرجت نينا بتروفنا من المستشفى كنت أزورها كل يوم.. حاملاً هدية.. حتى هدّدتني جادة أنها لن تسمح بزيارتي اذا جئت حاملاً هدية. وكانت في إجازة شهراً بأكمله. لم تكن تتحرّك إلا قليلاً وعند الحاجة الضرورية.

كنت آتي بكرسي لي واجلس إلى جانب سريرها. أما الزوار فكانوا يحيّونها ويقفون بالقرب منها ويجلسون في البهو. قالت لي مرة:
- إسمع أيها العزيز.. لقد فعلت لي ما لم يفعله ابن لأمه أو زوج لزوجته. ينبغي أن ترفه عن نفسك قليلاً. اذهب مع ناديا إلى السينما أو المقهى. تجول.. لا تتعب نفسك بالقدوم إليّ كلّ يوم. لا شيء يسرّني أكثر من رؤيتك وزيارتك. انما من الضروري أن تتمتّع بوقت فراغك.
- لا أستطيع ابتعاداً عنك،
- أتظن أنني لا ادري؟ إنما ينبغي أن (تتجوّل).

قالت (هذا) كالمازحة ووضعت يدي على صدرها جاعلة إياها تتلمسه. ثم قرّبتها من فمها وطفقت تلثمها برفق.
- أتذكر؟ كنت خجلى قليلاً منك. لكنني سأعوضك عن (حرمانك) هذا كله. انا اعرف انك لم تقرب امرأة منذ آخر ليلة لي معك. أنا أعرف هذا. سأمنحك أضعاف ما منحتك. قريبا سأتعافى تماما. لم تبقَ إلا أيام معدودات. و(ستتزوجني) ثانية.
وأضافت مقبّلة وجهي:
- أيها (الصبي) العزيز!
وانحنيت أقبّل وجهها.
- ليتك تدري كم كنت محسودة في المستشفى!
- رغم مرضك؟
- واي فرق؟

ودخلت ناديا. كان باب الغرفة مفتوحاً ولم نسمع الجرس وهو يدق. إنّ معها مفتاحها. حيّتنا وقبلت نينا بتروفنا. وجاءت بكرسي لها وجلست إلى جانبي. قالت نينا بتروفنا مبتسمة ابتسامتها الرائعة:
- هي ذي فتاتنا الجميلة.

- أمي.. لم يستطع اندريه الحضور. لم يزل في الجريدة. وسيبقى هناك حتى ساعة متأخرة.
- ولماذا يجيء؟ إنه متعب. أحس أنني في أتم الصحة.. بل يمكنني الخروج معكما والتمتع بأنفاس هذه الأمسية الصقيعية.
- كلا أمي. ينبغي أن تلتزمي بأوامر الطبيب.
- أنا طبيبة.
- بالطبع أنت خير طبيبة. إنما في حالة المرض يجب أن نلتزم بأوامر الأطباء. ليس لأنهم أدرى منك. بل هكذا هي الحال.
- ما رأيكما بأقداح من الشاي الحار؟
قالت ناديا فرحة:
- سأعدّه حالاً.
- ونادي جدّتك لتشرب معنا.
وأضافت قائلة لي:
- أم تريد قدحاً مترعاً بالخمرة البيضاء؟
- لن أشرب إلا معك.
- يمكنني أن أشرب معكما.. (رشفة).
قالت ناديا واقفة عند الباب:
- كلا أمي. لن تشربي حتى يسمح الطبيب.
- أنا طبيبة.. وأنا أعرف ما يضرّني وما ينفعني.
- مع هذا. الأوامر هي الأوامر.
قالت الجدّة:
- ناديا محقّة جداً.
- طيب. سنكتفي بالشاي الطيب.. (الأصفر).
قالت هذا مذكِّرة إيانا (بتذمري) من الشاي الروسي الخفيف. حالما ذهبت ناديا إلى المطبخ قالت نينا بتروفنا:

- يسرّني أن تذهبا معاً إلى السينما أو المقهى.
- أنا باقٍ معك حتى تنعسي.
- ولماذا؟ اتريد ان اخرج معكما؟
- ليس الآن. في أول يوم يسمح به الأطباء.
- يا إلهي! قلت لكم إنني طبيبة.
- وأنتِ أبرع طبيبة.
- اسمع.. أنا أريد حقاً أن ترفّه عن نفسك.
- لا شيء أكثر متعة من الجلوس معك.
- أنت لم تعاندني يوماً. ولم تعص لي (أمراً). لماذا هذه المعاندة منك الآن؟ لا شيء أحبّ إليّ من أن تبتهج.
- أنا هنا معك مبتهج جداً.
- كم أنت عنيد!

كان الشاي ممتعاً. قالت نينا بتروفنا:

- حقاً يمكنكما أن تشربا نبيذاً. لم نزل نحتفظ بقنينة.
- كلا أمي. لن نشرب إلا معك. بعد أن تتعافي تماماً.
- أنا متعافية تماماً الآن.
- مع هذا. ينبغي أن يسمح الأطباء.

كان على نينا بتروفنا أن تنام (مبكرا) فخرجنا في الثامنة. قالت ناديا ونحن نرد باب المصعد وراءنا:

- كنت سأذهب معك إلى الشقة إلا انني (متوعكة).
- ما رأيك ان نتعشى في أحد المطاعم؟
- لن نتأخّر هناك؟
- لن نتأخّر.

لم نجد مكاناً في مطعم (ارمينيا) أو في (مترو بول). كان علينا أن ننتظر. ولم نشأ أن ننتظر. أوصلتها حتى بيتها. وقبل ان تخرج قالت:

- يمكنك الصعود معي. سنشرب كأسا ونتعشّى.
لم يعد اندريه بعد. لم أقبّلها. ولم تتقرّب هي مني بلمسة أو بقبلة. كانت (جادة) معي، لا أقول انها كانت متحفّظة أو متباعدة. كانت تدرك أنني أعشق نينا بتروفنا. إلاأن هذا لم يكن (ستاراً) كثيفاً فيما بينها وبيني. لم نجلس صامتين أو متجهّمين. كانت جميلة ومرحة معي. بل كدت أن أقبّل وجهها الفاتن وأحجمت. وقبل أن تفتح الباب لأخرج قبّلتني. فاخذتها بين ذراعي. قالت هامسة:
- أرجوك.. لا تقبّلني.
- لماذا لا؟
- انت تحبها أكثر مما تحب نفسك. وهي تستأهل.

عندما زرت نينا بتروفنا مساء مثلما اعتدت كل يوم كانت هي التي فتحت لي الباب. قالت وكأنها لم ترني منذ شهور:
- لقد تأخرت؟

وأضافت كالمعتذرة:
- لقد نسيت أنك مثقل بالعمل.
- لا عمل لي أهم من زيارتك.
- يا عزيزي.
واخذتها بين ذراعي.
- امي في المطبخ.

وأخذت أقبّل وجهها وكأنّني لم أقبّلها قبلة واحدة من قبل. وكانت تقبلني أسرع وأكثر ممّا أقبّلها. تعال في غرفتي أفضل.
لا أادري كم مرّ من الوقت ونحن واقفان عند سريرها. أقبّلها ببطء وتأن. وهي تقبّلني بسرعة وبلا توقف.. وكأنّني سأفر منها. أو كأنّني

عائد من السفر البعيد.

- ستبيت هنا الليلة. معي. أنا متشوّقة وكأنني لم أنم معك منذ أعوام. وأنا متعافية.. متعافية تماماً.

- نينا.. سأبيت معك بالطبع.. إنما..

- لا تخشَ علي.. لا تقلق.. أنا اكثر عافية مما كنت قبل المرض. لا تقلق. ما بك؟ أنسيت أنني طبيبة بارعة؟

وجاءت ناديا وحدها ايضا. هل بدا لها واضحاً أنني سأنام الليلة على هذا الفراش؟ وسأنام الليل كلّه؟ كانت نينا بتروفنا آخذة زينة خفيفة. مع أنها في غير ما حاجة إلى زينة أو تجميل: كانت بوجهها العاري من أية زينة أجمل من أية ممثلة متجمّلة. وهي في أبدع ثوب منزلي. في ثوب ازرق داكن قليلاً.. لائق، كأيّ ثوب آخر، ببياضها وشحوبها، بتورد وجنتيها وامتلائها. وكان صدرها ناهدا كصدر عذراء. وكل شيء فيها وفي الغرفة يقول أنها الليلة أجمل عروس على الأرض. وذهبنا إلى البهو. كانت الجدّة فرحة بفرح ابنتيها وهي تراها مسرورة لي، مقبلة علي. واخذت ناديا تملأ الأقداح.

- سيجيء اندريه بعد أقل من ساعة.

- لن أوصلها بالطبع.. جاء أو لم يجئ أندريه،

- أمي.. لن تشربي غير كأس واحدة.

- بل كأسين حبيبتي. أنا طبيبة نفسي. ولست أنت.

- كما تريدين.

- بل كما تريد عافيتي الوفيرة.

وأضافت قائلة لي:

- أنا لم أقل بعد.. أنت أنسيتني.

- كلّي آذان صاغية كما يقول الروائيون.
- لقد أضافوا أسبوعين إلى إجازة الشهر التي انتهت هذا اليوم. أمامنا أسبوعان وأنا حرّة.. وفي أتم العافية.
قالت الجدة مازحة:
- أنت حرة.. ولكنّه غير حرّ. ان لديه واجباً ثقيلاً.
- لا أيسر من عمله بين يدي فتى حاذق مثله. اتعلمين؟ غالباً ما ينجز عمل اسبوع بأكمله خلال ثلاثة أيام.

وكل ليلة، طيلة الأسبوعين، كنا معاً. لم يخل سريرها مني أو يخل سريري منها طيلة الأسبوعين. كنا نتجوّل مساء.. فإذا أعجبنا فيلم ما دخلنا السينما. ومرّتين ذهبنا إلى المسرح. وكنت قد اقتطعت التذاكر (مبكراً). ولم تشأ هي الجلوس في المطعم. إلا مرة واحدة. كانت تفضل العشاء في بيتي أو بيتها. وكنت قد أهديتها بدلتين فاخرتين. وكان وجهها ممتلئاً فرحاً ورغبة وهي تتأود بين ذراعي وأنا أسعى بها إلى الفراش.. (مرغماً) إياها، ممازحا وهي (تتمنّع) وتضحك: فيما بعد.
انقضى الأسبوعان. وعادت نينا بتروفنا تصحو مبكرة إلى العمل. ولا تعود إلا أول الليل أحياناً ولم نعد نلتقي إلا ثلاث مرات في الأسبوع. كنت أرأف بها فلا أزيدها إرهاقاً. كنت أراها متعبة فأترفّق بها.

ويدق التلفون. إنها ناديا:
- هل تنتظر ضيفاً اليوم؟
وكنا قبيل الخامسة.
- لا ضيف يأتي.. ولا طيف يلوح.
- فما رأيك برؤية طيفي؟
- بل أحبّذ رؤيتك أنت.
- أنت جاد حقا؟

- لا مزاح في هذا كما تعلمين.
- أتلائمك الساعة السابعة؟
- ستجدينني منتظرا، مصغياً إلى الباب.
- كلا. ليس عندك.
- ولماذا ليس عند (حضرة) المترجم؟
- ستشم نينا بتروفنا رائحتي في فراشك.
- لم تشمها من قبل.
- وما أدراك؟
- إذاً لعلا نذير العاصفة.
- كلا. أهديتها إياك. وأهدتك إياي. أنا أمزح.
- وأين تريدين ان نلتقي؟
- عندي. منذ أربعة أيام وأنا وحيدة الوساد. وسأبقى وحيدة فراشي طيلة أربعة أيام أخرى إن لم تزرني.
- صدقيني.. لا (استطيع) في فراشك.
- وأنا لا (أستطيع) في فراش نينا بتروفنا.
- فهل تريدين أن نتعانق على مصطبة متجلِّدة تحت الصنوبر؟
- طيب. أنا موافية. ولتكن (المعانقة) في البهو.
- على الأريكة الطويلة؟
- إنها تكفي وتزيد بعد ان نطرح ظهرها جانبا.

وقبل أن تنزع معطفها أخذتها بين ذراعي مقبلاً وجهها الجميل.. ورحت أشمُّ شعرها الشذيّ، وهي (تتمنّع) وتصطنع التهرّب مني.

- دعني أتحرّر من فرائي.
- سأعينك.

وقبل أن تجلس إلى المائدة قالت:

- رأيت عريي وأنا أستحم فقلت لنفسي: لن ينام هذا العري الليلة

منفردا.. اذا كان (هو) وحيداً.
وأضافت كالمازحة الجادة، وقد أخذنا نشرب:
- لن آخذك من (زوجتك) الدكتورة، ولن تأخذني من بعلي (الطباع) إلّا مرّة واحدة كل شهر واحد. ينبغي أن نكون أنا وأنت لصّين منصفين. تلك هي العدالّة.
- إنّك الليلة لي حتى مطلع النور.
- كلا. غدا أصحو مبكرة إلى عملي. سنأوي إلى فراشنا بعد ساعة وهكذا سنجد من الوقت ما يكفي قدر ما نريد.
- ما أذكاك وألذّك امرأة!
- الليلة انتهك فتوتك حتى آخر قطرة. لقد وعدتك (بأوضاع) أخرى كل ليلة من الليالي الأفروديتية. أتذكر؟
- وإنّ لك جسدا افروديتيا لا يجارى!
- يا متسلّق الروابي.
- يا لاهية بالأدغال.
- فاقطعها وارحنا.

كان المستشفى أقرب إلى بيتنا.. فكانت نينا بتروفنا تفضّل تقضية الليل معي كلما التقينا مساء في شقتي. كنت أستحم وأرتدي ثيابي قبلها متعمدا. فقد كنت أحب أن أوصلها إلى المستشفى.. مع أنها لم تكن توافق الا بعد إصرار منّي.. فإن تأخرت أنا في ارتداء ثيابي عنها قبّلتني قبلتها الحارة، وأسرعت إلى الباب كالظافرة في سباقها معي. احياناً تحمل معها من بيتها بدلة اخرى ليوم غد وتترك ما كانت ترتدي في خزانتي الكبيرة. أو هي تفعل العكس. مع هذا فقد تجمع لدي عدد من أثوابها وأقمصتها. ولم تتحدث عن فارق العمر بشيء. أو هي لم تعد تتذكره كما يلوح لي. لقد انتهينا منه منذ مرضها. ومذ عرف

المستشفى كلّه قصّتنا الشيّقة.

جاء الربيع ممطراً وهزيلاً وبارداً وكأننا في أخريات الشتاء. وأقبل الصيف وقد تفجّرت المدينة خضرة. وأخذ الشاطئ الرملي أو تلك البقعة المعهودة من الشاطئ، قريباً من تلال العصافير وغابتها، تمتلئ بالسابحين. وبدأت قوارب النزهة تجوب النهر منطلقة من الشاطئ الآخر.. شاطئ الملعب الكبير.. حيث يقوم المقهى الصيفي. ولم تكن نينا بتروفنا بادية الحماس للتمتّع بإجازتها الصيفية عند البحر الأسود. لم تكن تريد، كما يبدو لنا، أن تنأى عني. ولم تسافر إلا بعد إلحاح منّا، وكنت منتظراً ان اتمتع، انا الآخر، باجازتي الصيفية.. انما في منتجع غير منتجعها.. فلم يكن من الأمكنة المقرّرة لنا. وقريباً سيسافر اندريه في مهمة صحفية إلى لينيغراد.. ولأسبوع بأكمله. فأصرت ناديا ان تسافر معه على حسابها بالطبع. ليس من المفترض أن تسافر على حساب الصحيفة. وألحّت عليّ أن اسافر معهما.. وكانت تقول لأندريه:
- طيلة النهارات ستكون منشغلاً بأعمالك الصحفية (الشاقة). فمع من أتجوّل أنا ولا أصحاب لي هناك؟
وألحّت وألحّ أندريه أيضاً. فكان لا بد من أن أسافر معهما. في البدء كنت أقول لهما متهرِّباً:
- قد لا تتاح لي موافقة رسمية.
وكان أندريه يقول:
- لا شيء أيْسر من (توقيع) موافقة لك. دع الأمر لي. ويمكنك (انتزاع) أجازة صغيرة من داركم.. وبلا صعوبة.
- لا ضرورة إلى أجازة من الدار. سأنجز عمل أسبوع الرحلة خلال ثلاثة أيام.. منذ اليوم.أو منذ هذه الليلة.
- أرأيت؟

وكنا نفضّل القطار. قلت مقنعاً إياهما:
- لتكن رحلتنا في الدرجة الأولى. وسأدفع أنا الفرق.

كانا هما، بالطبع، في قمرة واحدة.. وأنا في قمرة مجاورة. وشاء حُسْن الطالع أن أقتسم القمرة مع امرأة لطيفة. فدعوتها إلى العشاء معنا في مطعم القطار. ورأتها ناديا منّي خطوة لتبديد غمائم الشك.. إذا ما بدا لها ان تتجمّع في عيني اندريه اللاهي على ضفافه الأخرى.

كان اندريه في واد والشك في واد آخر. كانت ناديا حذرة جداً. وتبدو اعتيادية تماماً معي. وكان اندريه يعلم أن هواي على شاطئ آخر.

صباحاً في الفندق كنت متوقعا ان تطرق ناديا على باب الغرفة حالما ينصرف اندريه إلى شواغله الصحفية. لكنها لم تطرق. بل تلفنت لي قائلة إنها ستنتظرني في بهو الطابق الأرضي. بعد ساعة. كان الانتظار الطويل مملاً في الغرفة. فرفعت السماعة مخبراً إياها أنني هابط إلى بوفيت الطابق الأوّل. وسأنتظرها هناك. نزلت البوفيت ورحت أتجرّع قدح كونياك صغيراً وفنجان قهوة مرّة. وجاءت ناديا بعد اقل من نصف الساعة. وخَيّل لي غروري أنها تخشى أن (ألتقط) نزيلة جميلة ما أو نادلة بوفيت. وما اجملهن واسرع مصاحبتهن أحيانا! اتفقنا ان تكون صبيحتنا الأولى هذه حرّة ومفتوحة.. وأن نتغدى في مطعم آخر غير مطعم الفندق. فأخذنا نتجوّل ماشيين إلا نادرا.. كنا نريد ان نريح اقدامنا في التاكسي. كانت هذه رحلتي الثانية إلى لينينغراد ولم اشاهد الارميتاج مشاهدة شافية من قبل. قالت مؤكّدة لي:

- اعتمد علي. غداً سأرهق قدميك تجولا معي قاعة إلى قاعة. لن نترك صغيرة أو كبيرة الا ونتوقف عندها ونتملّاها جيّداً. لا يكفي يوم واحد بالطبع. قد نحتاج إلى اسبوعنا هذا كلّه. وأنت حرّ في أن تكتفي

بالارميتاج أو ان نزور معالم المدينة الأخرى.. بعد يوم أو يومين في المتحف الذي كان قصر القياصرة الشتوي كما تعلم.

ركبنا السفينة الحربية البيضاء افرورا أو نجمة الفجر.. ورأينا مدافعها التي قصفت القصر الشتوي. وكانت هي الضربة المرعدة في مهب رياح الثورة الأول. استرحنا طويلا ونحن نتغدى في أحد المطاعم. ولم نعد إلى الفندق الا مع هبوط الليل وكان اندريه قد عاد فأتفقنا ان نتعشّى بعد ساعة في مطعم الفندق. اندريه على حساب الجريدة، وأنا وناديا على حسابي.

صباحا حين التقينا انا وناديا في البهو الارضي دعوتها إلى غرفتي.. اعتذرت ناظرة إلى عيني بقوة قائلة:
- انا لست في الفندق لأي واحد منكما.
-فأين تريدين؟
- اذا انت (متيّم) حقاً.. خذني إلى الغابة.
- وأين ننام هناك؟
- على معطفك النايلوني المطري هذا.. فوق أبسطة العشب الأخضر الوثيرة.. ومعطفي النايلوني المطري هو الغطاء.. إذا ما هَمَى الرذاذ الناعم اللطيف أو أمطرت.
- ومن يهجر فراشاً وثيراً إلى أبسطة العشب؟
- أنا!
- أنت مصرّة؟
- الاصرار كلّه. وأنت حُرّ.
- قد يمرّ بنا أحدهم هناك.
- إنهم يلجأون إلى الغابة، وقد ضاقت المنازل بهم ذرعاً.
وأضافت مذكّرة:

- ألم ترَ بعضهم مفترشا العشب في غابة تلال العصافير؟
- لم أرهم. سمعت من تنادي بعضهم مستعجلة.
- بعد أن انجزت هي (مهمّتها).
- أتعدينني أن اتسلّل بك إلى غابة العصافير مرّة؟
- أرأيت؟ لقد أغريتك ببساطة العشب تماماً.
- أتعدينني؟
- أعدك إنما لمرّة واحدة.
- وهنا؟
- هي الأولى.. والأخيرة.
- يا لك من فتاة متعنتة!
- أنا متعنتة! أم انك نسيت ما كان وكان؟
- أنطير بالتكسي إلى الغابة الآن؟
- بل ندع الغابة إلى آخر يوم لنا هنا.
- ما بك؟ اتمزحين؟
- انا جادة تماما.
- فاذا جاءتك (الضيفة) الثقيلة؟
- اطمئن. لن تزورني الا بعد اسبوعين.

واضافت رانية إليّ في دلال جميل:

- اتدري؟ كم اود ان أحبل منك؟

اتسعت عيناي فزعا. فأمسكت بيدي متلطّفة:
- سألد لك طفلة جميلة. كل صاحبة لي تؤكد هذا.
- وتزغرد الفضيحة!
- لا فضيحة هنا. يطلّقني اندريه. وتتزوّجني أنت.
- وأضافت جادة تماماً:

- سيغدو مسروراً بتخلّصه منّي.
- ما بك؟ إنه يحبك.
- لم يعد يحبني. صدقني. بل هو يتحين أقرب فرصة للفرار مني. وأنا أيضا. ألم تر شبح الطلاق واضحا وقريبا جدا؟
- لم أر شيئا من هذا.
- إننا (نمثل) جيدا أمام الآخرين.
- وهل تعلم نينا بتروفنا؟
- بالطبع تعلم؟ وهي ترى الطلاق أفضل حل.. ما دمت لم أعد أحبه، ولم أحمل أو اضع مولوداً بعد. وهي محقة جدا.
- بالطبع. انت ربيبتها الوحيدة.
- اتدري؟ سيسرها زواجي منك سرورا صادقا؟ إنما بعد أربعة أو خمسة اعوام. وهي محقة هنا أيضا.
- وتنتظرين هذه الاعوام كلها؟
- ليست الأعوام الأربعة بزمن طويل.
- ألن نركب إلى الغابة؟
- قلت: في آخر يوم.
- وذهبنا إلى الأرميتاج. وأخذنا نتفرّج علي معروضاته المتنوّعة من قاعة إلى ألاخرى.. حتى بدا الإنهاك واضحاً عليها. فخرجنا نتغدّى. ومكثنا طويلاً أيضا في المطعم. كان لا بد من أن نريح أقدامنا. وعدنا إلى المتحف بعد الغداء. وخرجنا أوّل الليل. لم يعد اندريه. قالت ناديا:
- سأصعد معك إلى غرفتك لأريك شيئاً.. لا لأنام معك. فعدني رجاء ألا تقربني.
- أعدك.
- نزعت عنها أثوابها العليا كلّها. وأعطتني ظهرها الجميل. فرأيت على كتفيها آثاراً داكنة الحمرة، خفيفة.. آخذه بالزوال.

- هذه آثار عضاتك.
- أنا لم أعضضك.
- لم أقل إنك عضضتني بأسنانك. بل بشفتيك.
- ولم تبرح إلى الآن؟
- ألم أزرك قبل الرحلة بيوم واحد؟
- ألم يرها اندريه؟
- نحن منفصلان منذ شهرين. لم نعد ننام معا. هو له البهو وأنا لي غرفة النوم. هكذا أفضل.

وارتدت اثوابها العليا غير متعجلة. ولم يعد اندريه بعد. فانحدرنا إلى المطعم. ولبثنا حتى الثانية عشرة. ولم يعد ايضا. قالت ناديا:

- اترى؟ يبدو أنه (تأبط) صحفية ما.
- الا تودين ان نصعد إلى غرفتي؟
- قد يأتي الآن تظاهرا منه بالفضيلة.
- لن يطرق الباب علينا.
- ادري. لكنني لا أريد أن ابدو متهتكة أمامه.
- ما أوحش الفراش خاليا منك!
- تصبر يا عزيزي.
- كيف أتصبر وانت على بعد خطوة مني؟
- لن أتعرّى تماماً لك إلا في الغابة.
- اما تزالين مصرة على هذه الفكرة الغريبة؟
- ألا تريد لي أن أتدلّل عليك؟
- بودّي أن أترك آثاراً أخرى.
- في شقتك. سأزورك في أقرب فرصة تتاح.
- أتفكرين بالطلاق حقا؟
- ألم أقل كلّ شيء لك؟ سأعود إلى نينا بتروفنا. ويبدأ السير في طريق

الطلاق. وستسير القضية سيراً سهلاً موفقاً.. ما دمنا نحن متفقين على أنّ الطلاق هو خير الحلول.

- لم يخطر ببالي أي شيء من هذا.

- ألم أقل لك إننا ممثلان جيدان؟

وأضافت وهي تقبّلني قبلة عجلى:

- أنا ذاهبة لأنام. انا مرهقة فاعذرني.

كان آخر يوم ممطرا، مرعدا.. فلم نركب إلى الغابة. وكانت ناديا تقول مازحة، ونحن في بوفيت الفندق نرتشف القهوة والكونياك:

- ألا تريد أن تبسط لي معطفك النايلوني فوق الأعشاب الغرقى؟ كم سيغدو المنظر مبهجا حين تضرب الصاعقة إحدى الأشجار العتيقة، الحانية علينا؟ ألا تريد؟

كان على اندريه ان يتأخر يومين أو ثلاثة، وقد انتهت إجازة ناديا. فحجزت لنا قمرة في قطار الساعة الحادية عشرة من الليل.. ولم نجتز بعض العربات إلى مطعم القطار، بل اكتفينا، بعد عشاء الفندق بزجاجة نبيذ. وكنا نزيح الستارة عن النافذة فلا نرى إلا الظلام أو اضواء القرى المتباعدة، المتناثرة. وكانت حركة القطار مفرحة ومثيرة وكأنها رقصة حب. وكانت ناديا راغبة، عالقة بي.. وكأنّها أول ليلة حب لها. وكانت حركة القطار هي حركتنا نحن الاثنين.

اتفق لنا، أنا وناديا، أن نتمتّع بأجازتنا الصيفية في منتجعين من منتجعات البحر الأسود. لا يبعد أحدهما كثيراً عن الآخر. كانت الحافلة تقطع الطريق الريفي بين المنتجعين في أقل من ساعة. اجازتها قد بدأت قبل إجازتي بأسبوع. فانتظرت حتى تبدأ إجازتي كي نركب القطار معا إلى هناك. لم نبد في نظر الآخرين، لحظة واحدة إلا زوجاً

وزوجته. وكنّا نلتقي في البلدة الصغيرة، القريبة من البحر حيث تتوقف الحافلتان المتجهتان إلى البحر. حافلتي وحافلتها. ولم تكونا تتوقفان في ساعة واحدة بالطبع فكان على السابق منا أن ينتظر صاحبه في البلدة الصغيرة. ومن هناك ننطلق في أية حافلة صغرى إلى بلاجها أو بلاجي. ونعود قبل عودة الحافلتين إلى البلدة الصغيرة، وينتظر كل منا حافلته حتى تأتي. وكنا ننأى، أحياناً، بعيداً عن البلاج. ونضطجع على الرمال الدافئة في منحىً عن الأنظار. ونعود إلى البلاج لنسبح. ومن هناك نعود إلى البلدة الصغيرة. وينتظر كل منا حافلته حتى تعود. كانت الرحلة إلى البحر يومية تقريبا. وكنا نعرف جيدا متى تتوقف الرحلة فنتفق. انتهت إجازتها قبل انتهاء اجازتي بأسبوع. فقطعت إجازتي وعدنا في قطار واحد إلى موسكو.. وفي قمرة واحدة.. كانت بشرتها الناصعة ملوحة بالشمس. التلويح هو النصف من الغاية المرجوة من الرحلة. وهذا ما تتعشقه الروسيات ويزهين به.

استرحنا في شقتي أولاً. بعدئذ أوصلتها إلى بيتها. لن أفاجئ نينا بتروفنا بعودتي. هي الآن في موسكو منذ أسبوعين تقريبا. لم يزل الغروب بعيداً. ساتصل بها مساء وأخبرها أنني قادم بعد قليل. فاذا وجدتها سأزورها حاملا هديتي وقنينة الخمر الجنوبية. كنت مرهقا البارحة. فرقدت طويلا.

في السابعة طرقت الباب طرقاً هيناً. كنت قلقا منذ الصباح لا بدّ من أن اندريه قد انبأها أنني رحلت مع ناديا في قطار واحد إلى الجنوب، وفي قمرة واحدة. صحيح أننا كنا في منتجعين مختلفين إلا أنهما متجاوران تقريبا. ولماذا أصرت ناديا أو أصررت أنا على الرحيل معا، وفي القطار نفسه؟ من الصعب جداً أن أقنع نينا بتروفنا ببراءة الرحلة. هكذا كنت اقول لنفسي وفتحت نينا بتروفنا الباب.

- منذ ساعة وأنا انتظر.
- أردت أن تستريحي ساعة بعد العمل.
أخذتني بين يديها وقبلتني قبل أن أدخل. وسريعا ما أعدت المائدة. كانت ضاحكة الوجه.. جميلة بلا زينة تقريبا.

- اخبرتني ناديا أنكما عدتما في قطار واحد.

- هذا أفضل إنها لا تكره شيئا مثلما تكره الرحيل مع أغراب. وهي آتيه الآن، سريعا ما انجلى (الغم).. إنها لا تمثل معي ولا تجيد التمثيل مثلما تجيده ناديا. ولعلها لم تبرح ترى في (تعلق) ناديا بي طيف هوى أو رغبة عابرة. واقبلت ناديا طلقة الوجه، متحرِّرة من أي ارتباك. وكأن (البارحة) لم تكن الا حلما.. أو (خلسة المختلس).. وكأننا لم نلتق هناك الا نادرا ومصادفة في المدينة. ولم يكن الحديث عن الرحلة الا نتائف عابرة كغيوم الصيف الجنوبي نفسه. ولم أسأل انا نينا بتروفنا عن رحلتها. بل هي التي تحدثت وأخبرتني بكل شيء سار أو غير سار. وسريعا ما انعطفت بحديثها إلى المستشفى. غالبا ما كان يسرها الحديث عن المستشفى.. عن الممرّضات والأطباء والأنباء الطبية المتسارعة من أرجاء العالم، وعن الطريق من الأحداث والمسائل الطبية.. هي التي تجيد الانكليزية وتقرأ مجلاتها الطبية.

أغضبني على ناديا (لماذا لا اغضب على نفسي أولاً؟) اقتناعها أنها محقّة في كل ما جرى بيني وبينها، وأنني زوجها السري مؤقتا. ما الطلاق من آندريه والزواج مني إلا صفحة (مقدّرة) ستكتب في يوم واحد.. وليكن بعد أربعة أيام أو بعد أربعة أعوام. بل هي مقتنعة تماماً، كما يلوح لي، بأنّها هي الزوجة الباقية. كانت على يقين تام بأن حبي

لها هو الباقي، وان حبي لنينا بتروفنا هو الزائل. الأنها شابة؟ ربما. هي جميلة، وجميلة جداً. لكنها تعلم وترى أن نينا بتروفنا أجمل منها وجهاً وقواماً. أو لعلها تظن أن لها هي جمالا ولنينا بتروفنا جمالا آخر. لا حل الا أن اقطع الاسباب بيني وبينها. إنما هل في استطاعتي هذا؟ لا أدري. إنّها لطيفة معي وصادقة ولا تمثّل.

أخيراً قلت لنفسي مريحاً إياها من البحث المزعج عن حل لا يؤلم أحداً منّا: ستبدي لك الأيام ماكنت جاهلاً! كان الحوار بينهما دُائراً عن آخر أفلام تتيانا اسمايلوفا.. المأخوذ عن رائعة تولستوي (أنا كارنينا). وكانت الجدّة تتابع تحقيقاً في التلفزيون عن التقدّم الصناعي الهائل.

كنا أربعة شخوص، ففرغت القنينة بعد ساعة ونصف، مع أن الجدّة لم تشرب إلا كأساً. فاقترحت أن ننحدر إلى شقتي. والى هناك أيضا ينبغي أن يأتي اندريه ليعود بناديا إلى البيت. فعلينا الآن مخابرته. كان الجو رائقا.. الرياح تهب رخية، والأشجار تتحرك برفق. ولم يكن المنزل بعيداً. كانت ناديا تتغنى مرحة في السيارة. وكانت نينا بتروفنا تتحدث عن رحلتها الجنوبية غير مصغية اليها. حالما دخلنا الشقة، وقبل أن ننزع المعاطف المطرية الخفيفة قالت ناديا:

- سأكون أنا المضيفة.

قالت نينا بتروفنا:

- لن يعوزنا طعام بعد أن أكلنا عندنا. فلن تتعبي نفسك بشيء شاق.

- سأنظف الفاكهة إن وجدت.

قلت وأنا اعلق المعاطف:

- ستجدين عنبا في الثلاجة. ابتعته وغسلته جيدا.

قالت نينا بتروفنا متأكدة:

- فانفضي عنك دور المضيفة. وتعالي إلى المائدة ضيفة معززة!
لا قيادة تنتظرني. فأتيت بقنينة ويسكي. قالت نينا بتروفنا:
- سأدع الويسكي لكما. أنا أحبذ النبيذ إن وجد.
- هناك اكثر من زجاجتين.
قالت ناديا ممازحة:
- هي كلها لك أمي أندريه يعشق الويسكي كما تعرفون.
قالت نينا بتروفنا متأكدة أيضا:
- إذا جاء.
- لا فارق لدي. سأنام ملء جفوني هنا.
هنا قالت نينا بتروفنا متذمرة قليلا:
- لا أدري متى ستنتهي هذه القصة المملة.

هي تشير، بالطبع، إلى قصة الطلاق المؤجلة. لم أشأ المشاركة في ما بدا أن نينا بتروفنا عازمة أن تفصح عنه. ولم تقل ناديا شيئاً فآثرت نينا بتروفنا النأي عن الموضوع. وجاء اندريه متأخراً قليلا فلم يتجرع غير قدح واحد. وانصرفا وناديا مكتئبة قليلا. قالت نينا بتروفنا ونحن نعيد الاطباق والأقداح إلى المطبخ.. وكأنها تريد ان تزيدني ايضاحاً لا غير:
- الأفضل لهما أن ينفصلا نهائيا.

وأضافت وهي تطفئ التلفزيون:
- ألم تقصص عليك ناديا (الحكاية) وانتما في القطار؟
- اخبرتني بشيء من هذا ونحن في لينينغراد.

- لقد تعجلت الزواج منه ولم تسمع نصحي. وسريعا ما مل أحدهما الآخر. كل شيء كامن هنا:الملل.

- انها تستحق زواجا أفضل.
- بالطبع. هي جميلة وذكية.

عندما افقنا قبل الفجر بساعة كان المطر ينهمر، والريح تجأر عبر الكوة المفتوحة. فسددتها. وعدنا إلى الرقاد، وقد رددنا علينا الغطاء. لقد بدأت طلائع الخريف البارد، واخذت الأوراق تصفر وتتساقط من اشجارها في الحديقة والبولفار.

كنت أترجم وأترجم طردا للسأم، وأنا وحيد طيلة النهار. وتمر الأيام غائمة أو ممطرة والشجر يتعرى. وها أنا ذا أسمع طرقا هادئا، متباعدا وكأنه الملاطفة أو المداعبة. هي ناديا، وقد فوجئت بها (طارقة) في العاشرة صباحا. كانت في معطفها الخريفي الخفيف ضاحكة العينين، وشعرها على كتفيها:
- هل تنتظر أحدا.
- لا انتظر غيرك. تفضلي.
- ومساء؟
- ومساء أيضا. تفضلي.

واعنتها في انتزاع معطفها وعلقته. وأخذت أقبلها وهي تسرح شعرها الأشقر الكثيف. ودعوتها إلى المائدة.
- مابك؟ لم يزل الوقت مبكرا لتعاطي الأنخاب.
- طردا لوحشة الطريق.
- لم يكن الطريق مضجرا وأنا مسرعة اليك.
- أهلا بك.
- نسيت أن اتلفن لك. دعنا نجلس على الأريكة.
- عند المائدة.. أفضل.

- ليس الآن. أنت لم تسألني عن تعطلي اليوم.
- ولماذا أسأل وأنا مسرور بطلعتك؟
- شاكست رئيسة القسم. أعني ضاحكتها ووعدتها بزجاجة ويسكي. وسآخذ الزجاجة منك. وسمحت لي بالخروج مبكرا.
- يا لك من فتاة حذقة؟ بماذا نبدأ الآن؟
- بالسكر أم..؟
- بأيهما..
- لنشرب، إذاً، ما دمت تريد الاثنين.
- هي ذي فتاتي الفائقة الجمال!
- ليكن نبيذا من فضلك. ليس الوقت وقت ويسكي.
وأضافت (متضرّعة):
- من فضلك.. تذكر ألا تترك آثاراً لك على كتفي.
- قد أنسى.
- سأذكِّرك.
- لكن لماذا لا؟
- سأستحم عند نينا بتروفنا اليوم.. بعد هذا.
- وهل تستحم نينا بتروفنا معك؟
- إنها تحمّم ظهري.
- ستظن أنها فعلة رجل آخر.
- كلا. من أوّل نظرة ستعرف انها آثارك أنت.
- طيب. لن أقبل أكتافك طويلا اليوم.
- سنكتفي بالقبلات الحانية.
- متى تشرق شمس يوم الطلاق المنتظرة؟
- لا أريد أن تتكدّر الآن بالغيوم سماء نينا بتروفنا الصافية.
- لكنّها غير راضية عن زواجكما.

- أعني بغيوم يوم زواجك إياي.
- فاتني انك بعيدة النظر.
- لن تمر الأعوام الثلاثة ثقيلة الوطأة عليّ مادام لي النصف من شقتك.
هذا اذا افترضنا ان النصف سيظل مرحبا بي.
- وإذا افترضنا أيضا أن العصفورة لن تبني عشا آخر.
- ما أنا عصفورة طائشة.
- أنا أمزح.
- أدري أنك تمزح.وإلا لنشرت جانبي معطفي وطرت.

أول ليلة الأحد الخريفية كنت انتظر نينا بتروفنا آمنا، هادئا. ولم تحضر. ومر الوقت بطيئا، ثقيلا. ولم تحضر. وكانت الدنيا تمطر، والمطر يدق النافذة، وأنا أقول لنفسي:
من يطرق الباب الغريب إذا انهمر
ملء الدرابين المطر؟

أيّ طارئ طرأ؟ (الدربونة هي الزقاق) أهو ازدحام الطريق؟ ربما. قد تتأخر عشر دقائق، عشرين.. أما أن تتأخر اكثر من نصف ساعة ولم تتلفن فهي الأولى. كنت خائفا عليها من احداث الطريق.
- اعذريني ايتها الجدة عن إزعاجي. ألم تصل نينا بتروفنا بعد؟
- كلا. لا بد من أن الطريق مزدحم جدا.
- أنا قلق.. وخائف.
- لا تقلق يا بني. إنها زحمة المساء المعتادة.
- أرجو ذلك.
- ما دامت قد تأخرت هكذا.. فستسرع اليك أولا.
- أرجو ذلك.
- لا تقلق.

وكان الباب يطرق فأسرعت اليه من غير أن أغلق التلفون.
هي نينا بتروفنا. فضممتها بين ذراعي مقبّلاً وجهها بلا توقف.
- ما بك؟ دعني ادخل أولا.
وأسرعت إلى التلفون. وكان مغلقا. فأدرت الرقم وأنبأت الجدّة بقدوم نينا بتروفنا، وهي لم تنزع معطفها الخريفي بعد. كانت تنظر إلي باسمة بسمتها التي تتسع محبة وسرورا.
- دعيني انزع معطفك عنك.
- كنت خائفا علي؟
- ما أجملك!
- سأحيي أمي تحية المساء.
- وأنا سأعد مائدة لائقة بحضورك المتأخر.
- سأعدها أنا خيراً من إعدادك. ايها الصبي المذعور!
وبعد ان اعادت سماعة التلفون قالت:
- كان تنبؤاً مني بازدحام الشوارع.. شرائي أمس ما تحتاجه أمي من المخزن. لا تقل لي إنك متزوج من امرأة غير فطنة.
وفي المطبخ تنبّهت فقالت:
- سأرتدي ثوباً منزلياً.. هو مريح اكثر.
- وأنا سأرتدي بيجامة.
- شتوية من فضلك.
- نحن لم ندخل السينما منذ عودتي.
- لم يعرض أي فيلم شائق حتى الآن.
- ما ادراك؟
- ما اكثر ثرثرة الممرّضات!
- هناك إخراج جديد للخال فانيا.

- لن تجد تذاكر لليلة الأحد الآتية.
- أعرف بائعة تذاكر في (بهو الأعمدة).
- ستبيعك لقاء (منحة) صغيرة ما شئت من التذاكر.
- ليلة الأحد نحن في المسرح المعاصر.
- أظن أن دوري في الخفارة سيحل بعدئذ.. مع هذا سأتلفن لك من المستشفى قبل أن تقتطع التذاكر الثلاث.
- الثالثة للجدة؟
- بل لناديا. لن تطيق الجدة الجلوس طويلا هناك. هل تعلم؟ اكتشفت ناديا (مرافقة) جديدة للصحفي (اللامع).
- وكيف عرفت؟
- أبصرت بهما معا في السينما إحدى صواحبها.
- وهل كاشفته ناديا؟
- أنكرَ بالطبع. لكنها، محامياً. وسوف يتم الطلاق سريعا كما نأمل. وهي منتقلة بأغراضها غدا إلى شقتي.
- ما رأيك أن آتي بها وبحوائجها في سيارتي؟
- الأفضل لا. سأعود أنا بها وبمتاعها في التاكسي.
- أخيرا!
- أجل. أخيرا!

وكنت أقول لنفسي: حسنا يا مترجما يعمل في بيته. انتهى النوم في غرفة نينا بتروفنا. منذ الليلة لن ننام معا الا في شقتي. ليس من اللائق أن أنام معها في غرفتي وناديا نائمة في الغرفة المجاورة.

هي ربيبتها بالطبع. انما أي فرق؟ أليس من الأفضل أن أقطع الخيط قطعا باتا مع ناديا؟ ليس من الصعب على فتاة في مثل جمالها وأناقتها أن تجد صاحبا عند كل خطوة. إنهم يتهافتون على مثلها تهافتا. لكن

هل أقدر أن اهجرها وهي الطيبة جدا معي، المطمئنة إليّ، والوفية لي؟ وهبني اقتدرت.. فهل يمكنني رؤيتها والحديث معها ثانية؟ عندئذ لا يمكنني الاقتراب من شقة نينا بتروفنا ولو للحظة. ترى ماذا سأقول للدكتورة؟ أأقول أيضا: دع المقادير تجري في أعنتها؟

انتقلت ناديا انتقالا هادئا وحاسما من شقة أندريه (كانت الشقة لأمه الراحلة) و (استقرت بها النوى) في شقة نينا بتروفنا. ولسان حال اندريه يقول له، لوكان عارفا ما قاله الغلام القتيل:

يالك من قبرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضي واصفري

ولم يزرني اندريه، بعدئذ، إلا لماماً. كان يخشى اللقاء مع نينا بتروفنا أو مع ناديا. فقد تجيء بصحبة بتروفنا في أي يوم. كما انني أقرب إلى (الجانب الآخر) ولأسباب قوية. إلا أنّ الوجه (السيئ) من (المسألة) هو أن نينا بتروفنا أخذت تلحّ علي، بل (تأمرني أمراً) أن أخرج مع ناديا إلى السينما، إلى المقهى للترفيهَ عنها. كان هذا موافقاً جداً لناديا. غير أنني كنت أكره أن تقوى اواصر (الصحبة) فيما بيننا. وأي فرق بين أن ندخل المقهى أو شقتي؟ في الموضعين كنا نشرب. وما من حاجة إلى سرد أحداث الفيلم أو الحديث عن جودته أو أسباب رداءته أو ضعفه. إلا أنّ رفقة شابة حسناء في السينما أو المقهى أكثر أُنْساً، بالطبع، من القبوع منفردا هناك. فاذا ما عَنَّ لي أن (انفرد) بها فما من حاجة إلى إقناع أو توسل. غير أن الوضع لا يخلو من خطورة. قد تحبل مصادفة أو تعمداً.. أو ثأراً من اقتران خائب. فإذا ولدت فلن تخفى حقيقة (الأب الفاضل) حتى عن الضرير.

كانت ناديا منطلقة تماماً، فرحة بخروجها معي من غير تستّر أو رقيب.

وهي تنتظر الدعوة إلى الشقة بالطبع. فأطلت انتظارها. فلجأت إلى التشويق والإغراء.. أو إثارة الغيرة. فانقطعت عنها أسبوعاً بحجة الترجمة المتراكمة. واتصلت بي راجية اصطحابها لأي فيلم جديد. كانت متستِّرة، متكتِّمة.. فلم تعرف نينا بتروفنا شيئاً عن (اللعبة) الدائرة. أما ليلة الأحد فلم تزل، بالطبع، ليلة نينا بتروفنا وحدها.. بعد العاشرة. قد يلتئم (الشمل) في شقة نينا بتروفنا أو في السينما أو المطعم.. وبعد السهرة نوصلها حتى أعتاب المنزل الكبير وننحدر إلى بيتي. وجاءت ناديا.. جاءت ساعة الغروب بلا تلفون إلى شقتي. سألتني قبل أن تدخل كالغضبى عليّ:

- هل تنتظر أحداً؟
- لا أنتظر أحداً غيرك.

وكان ما كان. عندئذ عرفت الا صاحب لها غيري. أما لماذا؟ فلا أدري، ولم أسألها. اتفقنا أن تزورني مرة كل أسبوع، وأن نزداد حذراً وحيطة. من يعرف؟

قالت ناديا، وكنا عائدين من السينما القريبة سيرا على الأقدام، وكان الليل قد أرخى سدوله، والريح باردة:

- اسمع يا عزيزي.. لست مرغماً، كما قلت لك أكثر من مرة، على الزواج مني. فإذا أصررت أنت يوما ما على الأمر فلن يحدث هذا إلا بعد اربع سنوات من هذا اليوم. فتذكر رجاء ما أقوله الآن لك.

وقالت مرة أخرى:

- لست مرغما على الزواج مني.
- هل أنت..؟
- كلا. لست حبلى. لن يحدث هذا الا بعد الزواج.

- فلماذا تعيدين وتكررين؟
- تذكيرا لك.
لم تكن تشبه نينا بتروفنا. فهي ليست ابنتها. إنها ربيبتها، وهذا ما أراحني.. فكأنني (أتجوّل) مع فتاة غريبة.
- أين تريدين أن نتعشى؟
- أينما ترد.
- أم تفضّلين أن نصعد إلى الشقة؟
- لا (طريق) لك الي اليوم.
- لن نطرق باب المضجع.
- ما أضيق البهو بقبرته بعيدا عن (وكرها)!
- قد نتسلى بالتلفزيون وحده.
- قد تتلهّى أنت به. أما القبرة فلن تطمئن الا في عشها.
- فأين تودين أن (أضيفك)؟
- لن نذهب إلى المركز. فقد نلقى الشوارع مزدحمة جدا فنصل متأخرين. فلا نجد مكانا في المطعم. كلها ملأئ الآن.
- ما زلنا في الثامنة.
- سوف نصل متأخرين كما قلت.
- ما أسرع المترو.. والمحطة عبر الشارع!
- كما تشاء.
اخترنا مطعم (موسكو) وليس بيننا وبينه الا خطوات.. وأظهرت النادلة الجميلة فرحها وترحيبها بي.
- أهي من الصويحبات؟
- لم نلتق الا في المطعم.
- إنها جميلة.. فلن أصدق.
- لم أصاحب امرأة غير نينا بتروفنا مذ عرفتها.

- وأنا؟
- أنت يمامة الوكر.
- شكرا. أنا احب الحمائم.
- وأنا أيضا.
- أنت لا تحب منها إلا النوم في أقمصة النوم.

كنا أوصينا على كونياك. فلا سياقة بعد المطعم.. كان معظم الرقصات متسارعا أو (طائشا) كما تقول نينا بتروفنا. وكانت ناديا تحبذ الحوار معي وحديثي عن أيامي (الغابرة) في موسكو.. وكلما انتأيت عن ذكر (الزميلات) أعادتني إلى ذكرياتي عنهن، طالبة مني (التفاصيل) مؤكدة رغبتها هذه، مصرة.. ولا ادري لماذا؟ قلت وقد أقبلت النادلة بالعشاء، ولم ينقص الكافيار الأحمر كثيرا:
- لماذا لا تذكرين انت أصحابك؟
- خاب مسعى العشاق.
- مسعاك أم مسعاهم؟
- أنا لم أقل مسعى العاشقات.
- آ.. اعذريني.
- ألا تصدّق؟
- مع فتنتك وسحرك.. أصدّق.
- لا تبدو مصدِّقاً.
- هل أقسم؟
- لا ضرورة.
- ولا ضرورة لذكرهم ما دمت غير راغبة.
- ألم اقل إنّك غير مصدّق؟
- وماذا يهمّنا منهم، وقد بعدنا عن الزمن الجامعي.

- وهل في الجامعة وحدها يعشق الناس؟
- كنت أعني التعدّد في العشق.
- اترى في الاثنتين رقما غير كاف؟
- أنت غضبى اليوم، ولا أدري لماذا؟
- أنت تدري، فلا تسأل.
وانفرجت شفتاها الشهيتان عن ابتسامة مصالحة:
- انا التي ارتضت (المشاركة) فلن ألومك.
وأضافت وهي تطعمني بشوكتها:
- أنا (اشتراكية).
- لا اشتراكية في الحب كما تعلمين.

- في دياركم تتعدّد الزوجات.
- نادرا جدا.
- و(زواجنا) من المزدوجات النادرة.
- أنت غضبى اليوم.
- ربما بسببها.
- بسبب من؟
- أنا أعني (الزيارة) القمرية الثقيلة.
- هذا أفضل من أن اكون أنا السبب.
- أنا قلت: لا عتاب عليك. أنا لا أعاتب إلا نفسي. وهذا لا يحدث، بالطبع، إلا إذا حلا لي أن يحدث.
- قلت إننا سنتزوّج بعد خمس سنين.
- بعد ثلاث من فضلك. وأنا التي قالت وليس أنت.. من فضلك. ما أطولها خطبة! مع أنك لم تخطبني بعد.
- أنا اخطبك الآن.

- أرجو ألا تكون خطبة كونياك.
- لست ثملا.
- أنا الثملة.
- حقا أنت ربة العناد اليوم.
- اتذكر موعد الغابة في لينينغراد؟ كم كان المطر معاندا!
- كنت انت المعاندة. كان الفراش الوثير بين ايدينا.
- كنت انتظر ليلة القطار.
- حقا كانت ليلة أجمل من الف ليلة وليلة!
- آن ان (نفرنقع).
أوصلتها إلى بيتها، وأردت أن أقبل وجهها وأنا أقول:
- ليلة هادئة.
فتمنعت قائلة:
- قد يمر أحد الجيران. إنهم يعرفون أنك فتى نينا بتروفنا.
واضافت مازحة:
- تحيتي إلى جارتك؟
- وأين عرفتها؟
- صعدنا معا، مرة، إلى طابقكما. كانت تنظر الي وكأنني شريكتها أو ضرتها. يبدو أن لها (قصة) معك.
- لم (يحدث) بيننا أي (تقارب).
- إن لها قواما مائجا.
- إنها متزوجة.
- وأنا كنت متزوجة.
- يا قبرة طرفة.
- ماذا؟ ماذا؟
- كانت معاندة مثلك.

- ما حكايتها؟

- كان طرفة شاعراً (جاهلياً) فذّاً. وقد قُتِل في باكورة الشباب. مرّة كان يحاول اصطياد قبّرة. لم تقل الرواية شيئا عن آلة الصيد كما اذكر. ربما كانت فخا أو شبكة. وعلى أية حال كانت آلة مخادعة. ولقد أعاد المحاولة مرارا ولم تقترب القبرة من شبكته. فنفضها وعاد بها إلى (خيمته) وهو يقول أرجوزة سارت مثلا:

يا لك من قبرة بمعمر

خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت ان تنقري

- لماذا قتلوه؟

كان في رحلة مع خال له إلى الملك النعمان. وكان للملك يومان: يوم نحس ويوم سعد. وقد وصلا هما في يوم النحس. فبعث بهما إلى وال له على الجانب الغربي من الخليج العربي.. مع رسالة مغلقة إلى الوالي مع كل منهما. لم يطمئن الخال إلى الرسالة، ففض ختمها في الطريق فاذا الملك يأمر الوالي بقتله. فمزقها. ونصح الشاعر أن يفض الختم هو الآخر. ولم يسمع الفتى النصيحة مطمئنا إلى حظه السعيد. ووصل الوالي حاملا حتفه بيده وهو لا يدري. فقتلوه على جذع نخلة.

- يا للفتى السيئ الحظ!

اتصلت نينا بتروفنا صباحا، قبيل العاشرة:

- هل يمكنك الذهاب، الآن، إلى سينما روسيا واقتطاع ثلاث تذاكر؟ الفيلم ليس جديدا. لكنه مأخوذ من رواية (الأبلة) وانت معجب بها.. كما ذكرت لي اكثر من مرة.

- ثلاث؟

- بالطبع. الثالثة لناديا. لم تصاحب شاباً بعد.. مثلما أعرف. لن يسرّها الذهاب منفردة إلى السينما.

كانت ناديا حذرة. غير أن الجلوس بينهما لم يعد آمنا لي. بل أصبح (الوضع) غير مريح. أنا لا أجيد (التمثيل). أما المصارحة فلا تعني إلّا أن أخسرهما معاً، وأن افترق عن نينا بتروفنا افتراقا عاصفا. ولماذا أخسر امرأة رائعة مثل نينا بتروفنا من اجل معانقة أسبوعية لا أدري هل تدوم طويلاً مع ناديا؟ وهي مصاحبة غيري غداً أو بعد غد؟ لقد أوقعت نفسي حقا أو اوقعتني المقادير على منزلق خطير! فتبّاً، وتبّاً لِي. قد أخادع نفسي وأقنعها، أحيانا، أنني (متزوج) من امرأتين. لكن.. أمِنَ السهل عليَّ مخادعة امرأة حسناء محبة ووفية لي؟ ألأنا مخادع؟ هل أنا غشاش؟ لا أظن بل من العسير أن أصدق هذا. ماالحل؟ وأين راحة البال؟ هل (لمست) نينا بتروفنا شيئا ما، وغضت الطرف من أجل العزيزة ناديا؟ لا امرأة على الأرض ترضى هذا كما أعلم. فأذا فضحت ناديا نفسها من غير أن تدري؟ وقد تعاود نينا بتروفنا الشكوك التي اقلقتها عندما عرفت ان ناديا قضت الليل كله في شقتي، وقد منعتني الزوبعة الثلجية الهائلة من توصيلها، ولم يكن أندريه معها؟ ولم يقع آنذاك ما يخفى، وقد صدقتني هي واطمأنت إلى. ألن تعاودها الشكوك أو التساؤلات؟ من يدري؟ ولماذا أظنها شاكة وهي لا تظهر حقا اي شك أو طيف شك؟ بعد السينما دعوتهما إلى العشاء في المطعم. اقترحت نينا بتروفنا:

- مارأيكما بمطعم موسكو؟

قالت ناديا ممانعة:

- حبذا باكو مطعما وهو أقرب!

تذكرت أن النادلة قد ادركتنا البارحة، ونحن نتحدث عن الخطبة

المتوهمة، وسترى في نينا بتروفنا أما لناديا، وستهنئها، وينكشف الأمر. فأضفت مؤكدا اقتراح ناديا:
- ليس هو بعيدا. وسنترك السيارة في موقفها.

لم تزل الحسناء الشهية زهرة نادلة هناك. غير أن اللقاء معها كان عابرا، وعندما كنت طالبا.. فلم أقلق. لن تتقرب بالطبع مني وأنا بين سيدتين في مثل جمالهما. ولم تزل الفرقة الموسيقية الشرقية على عهدي بها. الا أننا لم نرقص. لم أشأ الانفراد بناديا فقد (تتغنج). ولم ترغبا بالرقص مع الآخرين. كانت النادلة زهرة لبقة. وكانت نينا بتروفنا زهرة المطعم.

كانت ليلة الأحد، ليلة الشقة. اوقفت السيارة عند منزل نينا بتروفنا. فأسرعت ناديا تتمنى ليلة هادئة، واتجهت إلى المدخل. وهمت نينا بتروفنا بالخروج. فأمسكت بذراعها قائلا:
- إنها ليلة الأحد.
- ستغار.
قلت مصطنعا الهدوء، مع أنني كنت هلعا:
- تغار؟
- اعني أنها شابة، وستنام وحيدة، بينما نحن..
- لكنها تعرف كل شيء.
- مع هذا.
- لن تأبه. أنذهب؟
- كما تريد.
لم يكن البيت بعيدا. وكانت الريح ندية، باردة حين خرجنا من السيارة. وقد أخذ الرذاذ يهمي فتلوح الأضواء كالنعسى.
- شقتك دافئة منذ الآن.

قلت ممازحا:
- إنهم يعرفون أنني من الصحارى الحارة.
- الم يتساقط الثلج مرة عندكم؟
- لا أذكر. لكنه يهطل في الجهات الشمالية المرتفعة. اتذكر تجمد المياه، مرة، وأنا تلميذ في الابتدائية.
جئت بقنينة نبيذ وقدحين من المطبخ.. فقالت:
- سأكتفي برشفات.. بعد زجاجة المطعم.
- وأنا (سأنتهل) كأسين.
- هذا كثير.
- احتفاء بك.
- لا أدري لماذا لم تصاحب ناديا فتى طيبا حتى الآن؟
- سرعان ما تلقى صديقا لائقاً لها.. اذا كففت انا عن الخروج معها. آن أن اتوقف عن صحبتها إلى السينما والمقهى. قولي أنت من فضلك: من ترى يفكّر بالتعرف اليها، وهو يراها بصحبة رجل آخر؟
- ربما حيث تعمل، وقد عرفوا أنها مطلقة. إنها بارعة الحسن.
- ولهذا ينبغي أن ابتعد عنها.
- إنها منجذبة اليك.. كما قلت لك مرة.
- لا أظن. غير أن من الضروري أن انأى عنها.
- ليس الآن.
- ألم تقولي إنها (منجذبة) الي؟
- أيطاوعك قلبك على كسر قلبها؟
- ليست متيّمة بي.
واضفت وأنا أعرف أنني (أمثل) الآن:
- كثر هم المعجبون بها.. مذ كانت متزوجة.
- دعنا نفكر مليا من فضلك.. ليس الآن.

- ولماذا ليس الآن؟
- يا الهي.. انها فتاة طيبة.
- وانت طيبة ايضا.
عجبا لي من مراوغ! كنت أدري أنني أصطنع (دورا).
- انتظر اسبوعا أو اسبوعين.
- ولماذا من فضلك؟
- سنجد من يعجبها. لن تكتفي بالجلوس في المقهى والسينما.
- لن تجد ما دمنا نتجول معا.
- أنا حائرة.
- لا بد من أن أتنحّى.
- يبدو أنك محق. إنها جميلة وجذابة.
واصطنعت البعد عن ناديا. ولم تصدق. لم أعد ازور نينا بتروفنا في بيتها. كنا نلتقي في شقتي. وكانت ناديا تتصل بي بين الحين والآخر مدركة أنني في حيرة من أمري.
- مرّ اسبوعان (باردان) يا صديقي.
- لم أزل مثقلاً بالصحائف التي تنتظر ترجمة مني. صدقيني.
- أنا أصدّقك.
أهناك صديق آخر؟ وكنا نعرف أن نينا بتروفنا الليلة، ليلة الأحد خفيرة في المستشفى. ولن تعود إلى بيتها إلا صباحا.
- اتدري ماكنت انتظر؟
- من اين لي أن أعرف؟
- كنت انتظر تلفونا منك.
- سأمر عليك الآن... ونتنزه.
- أنا سأمر عليك.. ونرى إلى أين نذهب.
قالت ناديا وانا آخذ عنها معطفها الخريفي الجميل:

- لماذا تكرهني جارتك؟

- أين رأيتها؟

- هنا وانا اطرق الباب. فتحت بابها وردت تحيتي في غموض.. وأغلقته عليها. ربما كانت آتية اليك. متبرجة وكأنها على موعد مع عشيق. يا للمرأة النكدة!

- إنها جارة طيبة.

- لا أحبها.

- ماذا تفضلين؟ الويسكي أم الكونياك؟

- أفضل.. الخروج.

- الطرقات باردة والليل ممطر.

- هل كنت تنتظرها؟

- انتظر من؟

- جارتك.

- وهل انتظرها وانتظرك في آن واحد؟

- ربما كنتما متفقين قبل يوم أو يومين.

- لا شيء بيني وبينها غير التحية.

- فلماذا هي نفور مني؟

- قد تكون في خصام مع زوجها.

ومع أول نخب طرق الباب. قالت ناديا:

- إنها هي.

وأضافت عندما وقفت:

- لا تفتح قبل أن تسأل. ربما هم أغراب.

هي لوسا آخذة زينتها وفي رداء ضائق بتموجها.

- تفضلي.

- دعنا نبتعد قليلا رجاء.

ابتعدنا خطوتين عن الباب المردود.

- تفضلي.

- إنها تكرهني.

- هي تعرف أنك جارتي المقربة. كنت مرة معنا،

- تظنني (ضرّتها).

- هو جمالك يبغّضك النساء.

- هي ليست أقل جمالا. أحببت أن (أزورك).

- يسرنا الجلوس معك.

- ليس معها. سأجد فرصة في وقت آخر.

قالت ناديا متبرمة:

- ماذا (تروم)؟

- تسأل عن الوقت. ساعتها عاطلة.

- لماذا لم تسألني أنا؟ إنها تعرفني.

وأضافت متشككة:

- لماذا رددت الباب خلفك، وأطلتما الوقوف؟

- ماهي إلا كلمات عجلى بين جارين.

- كانت عازمة على زيارتك ورأتني فأحجمت. وعادت مرة ثانية تريك تبرجها.. وتسألك موعدا آخر.

- لم نكن على موعد.. أقسم لك.

- أقسم لها على فراشك أنك لم تنم معي.

- يا لك من صبية مشاكسة، فاتنة!

- ويا لك من دونجوان متأنّق! لن أنام معك الليلة. سوف ترى.

سأشرب حتى أسكَر وستوصلني مرغما حتى باب غرفتي. وتعينني في انتزاع اثوابي كلها وستطرحني عارية على فراشي.. وتغطيني

بيديك هاتين.. وتقبّلني على جبيني متمنياً ليلة هادئة لي. ولن تذهب حتى تجدني قد غرقت في النوم.

- وماذا ستقول الجدّة؟

- لتقل ما تقول.

- فاذا عرفت نينا بتروفنا؟

- لست ابنتها. أنا عشيقتك الصغرى.

- ستطردني كما يطرد اللص.

- سأخرج معك. واعيش هنا. وأحبل منك. وتتزوجني. سأكون لك نعم الزوجة؟ سأكون مطيعة، وفية لك. وسنرزق بطفلة جميلة.

- ألم نتفق على الزواج.. فيما بعد؟

- بل غدا.

- غدا عطلة.

- إذاً يوم الاثنين.

- عندنا يفضلون ليلة الجمعة ليلة للزفاف.

- سنؤجل عرسنا إلى ليلة الجمعة.

- أنت حقاً مطيعة.

- أترى كم انت محظوظ؟

- فاذا طرقت الجارة الباب؟

- الآن؟

- صبيحة العرس.. مهنِّئة.

- سأقدم لها القهوة، وأشكرها على الهدية.

- أنا لم أقل إنها جاءت حاملة هدية.

- لن تأتي إلا بهدية. إنها جارة مهذّبة.

- الآن أصبحت محبّبة، طيّبة؟

- سيمحو العرس الخواطر الكدرة كلها.

- ولن نزور نينا بتروفنا أو تزورنا؟
- قلت لك: سيغدو الماضي صفحة بيضاء.
- كقلب الجنين كما قال توفيق الحكيم.
- من القائل؟
- أحد كتابي المفضلين.
- ما ابرعه كاتبا!
- سأعيرك روايته (عودة الروح).
- مترجمة إلى الانكليزية.
- لدي ترجمتها الروسية.
- ضعها قرب حقيبتي الآن فلا ننسى.
- أنت الحكمة ناطقة، مجسّدة.
- أنت لم تعرف مني، بعد، إلا هفواتي الضئيلة، الطافية. سأتعلم الطهو في أرقى معاهده.. فلن تفكر يوما بمطعم أرمينيا أو باكو. وأزيد معرفتي بالرتق والكي. وساجعل من غرفة نومنا معبداً للذائذ والحسرات. وأما طفلتنا السمراء، الزرقاء العينين.. فستجعل من ظهرك حصانا خشبيا لها. ولن ترضع إلا من صدري الدافق.
- يا للصحفي الصغير من فتى عاثر الحظ؟
ضحكت ناديا وقالت بلا اكتراث:
- أما تزالان تتزاوران؟
- نادرا.
- اتدري؟ خيل لي، في لينينغراد، أنه يعرف.
- لكننا لم ننم معا مرة هناك.
- وإن يكن؟ كل شيء كان يقول إنني زوجتك.
- ربما أنت من أزاح له الستار.
- لم أقل أنا شيئا. بل التصاقي وتعلقي بك.

- فلماذا لم تر نينا بتروفنا شيئا مما بيني وبينك.. وهي الذكية جدا، والقريبة جدا منك ومني؟
- ما ادراك؟
- أتظنينها ترضى بالنصف مني؟
- انا ربيبتها المدللة.
قالت هذا مازحة، واضافت جادة:
- يخيل لي أنها تعرف. بل يبدو واضحاً لي، أحياناً، أنها تعرف. هي ذكية جدا كما قلت أنت. لن يخفى عن مثلها هذا التعلق مني بك. إلا أنني لست متأكدة من شيء.
- أنا لا أقصد (التعلق).
- لست متأكدة.
- فلماذا أدرك أندريه ولم تدرك هي إلى الآن؟
- في لينينغراد كنت آخذة حريتي كلّها معك. كنت أنا الصديقة والزوجة لك. قالت إحدى العاملات في طابق الفندق الأرضي مرة: لم نعد نعرف من هو الزوج ومن هو الصديق؟ قلت لها: هو الزوج وهو الصديق معا. قالت: من هو منهما..؟ قلت: احزري. قالت: حزرت.
- قد تشك أو يخيل لها. أما أن تدرك فلا أظن أنها قد أدركت. لو أدركت مرة حقا لتركتني لك. أنا أعرفها.
- لكنها قد تدرك.
- ربما يوما ما. وستطردني.
- وقد تتغاضى.
- لا أظن.
- سأغدو اكثر تكتما وحذرا. سأزعم أن لي صاحبا، ولأنه متزوج فهو لا يريد أن يريهما وجهه. حتى تتم اجراءات الطلاق بينه وبين زوجته. ونحن نلتقي مؤقتا في غرفة صديق له. انا لا أريد أن اؤذيها. قد لا

أزورك الا مرة أو مرتين في الشهر.. لا شر عندها في تعلقي بك. وأين هو الضرر في أن آخذ اكثر مما استأهل. وأنا غير آخذة إلا النصف من الغنيمة.

(هل ستزعم أن لها صاحبا؟ لا ادري)

- أنت اليوم أنجب تلميذة سقراطية.

- أرأيت؟ انت تراني محقة.

- أوَليس من حقي أن آخذ النصف الآخر من الجارة؟

- كلا ياعزيزي. لديك أربعة انصاف. لا سبيل إلى نصف خامس. ورياضيا كما تعرف لا وجود لنصف خامس. ثم ما ادراك من أن نصفها الآخر غير مستحوذ عليه بعد؟ فاذا عن لك أن تأخذ شيئا من فضلة السيد الآخر (أو كنت قد أخذت) فما هي الا لصوصية منك. ما أنت الا من النشالين أو من قطاع الطرق.. اذا شئنا أن نضفي عليك سِمة من الرقي.. أو من (الترفيع).

- ما أحذقك معلمة في مدرسة الحكمة!

- أنا ناظرتها.

- أعطيني قطرة من بحر علمك كما قالها، مرة، موظف الجوازات في مطار تونس لشاعر معنا.. يدعى بحر العلوم.

- وهل تفضل عليه بقطرة؟

- تماما كما تفضلت علي أنت اليوم.. قبل أن ترفع أعمدة الخيمة المرمرية حتى السقف.. وتتساقط الأنجم.

- وقبل أن تلوذ النعجتان البيضاوان الصغيرتان بالراعي.

- ألم يئن أوان الخيمة الآن؟

- بل بعد أقداح وأقداح.

- يا لك من حكيمة متعنتة!

- ويالك من راع غير متصبر!
- أتطيلين اصطباري حكمة أم تسلطا منك؟
- كما أطلت انتظاري مذ كنت عصفورة في زي التلمذة.
- أنا لم اعرفك الا في العشرين من عمرك.
- وأي فرق أيضا؟ كنت أحلم بك.
- وكيف كان لي أن أعرف فأطير اليك كما طار أبو الهول.
- وهل طار؟
- بعنوان قصة.
- لا تطر.. واسفح لنا من فضلك.
- أجل يا سيدتي مينرفا.
- الليل يطول وأنت تشبع قلقا و(انتظارا) كما قال نشيد من أناشيد العهد القديم على لسان الحكيم.. أهو سليمان؟
- أظن. لم أعد أذكر جيدا.
- عد إلى المجلد واخبرني.
- وأين هو الطريق إلى النور (فاقرأ).. كما قال الحكيم نفسه في ما أظن أيضا. علي أن اشحذ حدّ ذاكرتي بنفحة من حكمتك.
- هو يعني الضوء السماوي. أما أنت فلا تعني إلا ضوئي المادي الجسدي. أم تراه لهبا لم يزل مرتجفا في المعابد المجوسية؟
- أو الروسية. ألم يعبد الروس قديماً يار إله النار؟
- لا أدري.. لست مولعة مثلك بأساطير الأوّلين. أنا لي آلهة أخرى أعبدها.. متسلِّلة اليها بين الأدغال.. كما ذكرتني مرة.

اصفرت الأشجار تماما. وأخذ بعضها يتعرّى منذ الآن. وكان بعضها أسرع من غيره إلى التعرّي. وقد يهبط الشتاء فجأة في أي يوم. ولم أفاجأ بامرأة عابرة تقول، وأنا خارج من المنزل، والثلوج تتساقط خفيفة:

- هو ذا الشتاء نازل إلينا.

كانت السهرة، ليلة الأحد، في شقة نينا بتروفنا من أجل ناديا. فاذا ذهبنا إلى المطعم أو السينما فهي معنا. قد تتخلف ناديا عن السهرة أو السينما، وهو نادراً ما يحدث، حين يكون على موعد مع صاحبة لها. وهكذا كنا، أنا ونينا بتروفنا، بعد السهرة أو قبلها، نأوي إلى شقتي.. وفي الجولة، نهار الأحد، غالبا ما كانت ناديا معنا. تلك هي رغبة نينا بتروفنا.

- لن نتركها وحيدة فتذوي مللا.
- قالت، مرة، إنها تتواعد مع أحدهم.
- لا أظن.

قد تعتذر ناديا فجأة، وأنا ونينا بتروفنا في شقتها قائلة: أنا ذاهبة ازور صاحبة لي.. أو إن صاحبتي تنتظرني قرب السينما. ولم نعد نبيت أنا ونينا بتروفنا معا إلا في شقتي. قلت لنينا بتروفنا مرة، وكنا نتمشى بين أشجار البولفار العارية والريح الباردة في وجهينا، في الطريق إلى سينما الحي:

- كم يسرّني أن نتزوّج الآن. لن تبقى الجدّة وحيدة. ناديا معها. فإذا تزوجت ناديا، وهذا قد يحدث قريبا، فبإمكاننا العيش في شقتك. فهي أوسع من شقتي. وفيها غرفتا نوم.

- ما بك؟ أنت في عمر ابني. كيف أتزوجك؟
- ما أنا في عمر ابنك. تعرفين أنني أحبك.
- أعرف، ليس هذا سببا قويا.
- بل هو أقوى الأسباب.
- تصوّر خجلي وأنا أوقع العقد في مكتب القِران.. أو وأنا في رداء العرس الأبيض. وتخيّل نظرات الآخرين.

- أتخجلين من زواجك مني؟
- ليس منك بالطبع. أنا زوجتك. ومنذ اول ليلة لنا وأنا زوجتك. تلك كانت ليلة زفافي.. أجمل ليلة لي. اتذكر؟ عندما اقترحت أنا اللقاء.. الموعد الأول قبالة منزلك، عند محطة المترو.. كنت أقول لنفسي: غدا ليلة عرسي! أنا أخجل من الناس. سأحرج واترك كل شيء وانهزم راكضة. ماذا تروم مني اكثر مما أعطيك الآن؟ لن أمنحك، بعد الزواج، من نفسي ومن جسدي اكثر مما امنحك الآن. فلا تخطبني.
ونظرت إلي ضاحكة العينين:
- لا تخطبني مرة بعد اليوم.
وأضافت مازحة:
- لماذا لا تتزوج ناديا؟
- اتمزحين؟
- إنها ربيبتي. ليست ابنتي. ما أجملها زوجة لك!
- دعينا من مزاحك هذا من فضلك.
- قد أمزح. لكنني لا أرى زوجة أليق بك منها.
وكنت أقول لنفسي ساخرا من نفسي:
قيل: التقى الأجنبي الغر سيدة
من (آلهات) الخطى الثقلى الأماليد
وغادة غضة، فاحتار بينهما
شأن المحير بين العيد والعيد

كان الفيلم كوميديا فضحك الناس، وضحكنا معهم. وخرجنا إلى الشارع والرياح الباردة مبتهجين. واتخذنا طريقنا ثانية بين أشجار البولفار المتجردة. ولم تكن المصاطب مغرية في الليل البارد. كنت قد أبقيت السيارة إلى الجانب من منزلها. لم تكن السينما بعيدة.. بل هي

قريبة بعد موقف باص واحد. قالت نينا بتروفنا:

- كان فيلماً مضحكاً. ليت ناديا كانت معنا.

- شاهدت ناديا الفيلم قبلنا. هي التي نصحتني به.

- ترى أهي في البيت الآن؟

- لا أدري. كنت معك.

- هل اخبرتك إلى أين هي ذاهبة؟

- لم أسألها. لا أسرار لديها كما تعلمين.

- إنها تنفرد بك اكثر مما تنفرد بي.

- لا صديق لها الآن غيري كما يبدو. لنذهب إلى شقتي. سريعا ما خيم الشتاء، وتعرّى الشجر.. هل لك بالمجيء معي؟

- البارحة كنت عندك. سنمر على المخزن القريب ونبتاع قنينة نبيذ وأي شيء آخر يعجبك. قد نجد ناديا وتشرب معك.

- وأنت؟

- لا أريد أن أشرب اليوم. لا رغبة عندي. البارحة شربت معك اكثر مما يجوز. انت اقترحت الويسكي. ولم أكن مرهقة، فأحببت أن انتشي معك. من الطريف أن تقع السينما قريبا هكذا من المنزل. والمخزن ايضا. أما عندكم فمحطة المترو هي الأقرب.. ما عليك الا ان تعبر الشارع.

- فباتي عندي كل ليلة وستصلين المستشفى بعد ثلث ساعة أو اكثر قليلا. ما رأيك؟ وناديا مع الجدة. فلن تشعر بالوحشة فاذا ارادت ناديا أن تنضم الينا فمرحبا بها. ليس بيننا وبينكم غير ثلاثة مواقف حافلة أو باص.

- لن تتخلف ناديا عن الجدة ليلة واحدة.

لم تحضر ناديا بعد (هي تعرف أن نينا بتروفنا عائدة إلى الشقة من

السينما) فلم افتح القنينة منتظرا عودتها. الا أن نينا بتروفنا فتحتها. وملأت قدحين لي وللجدة قائلة قبل أن تذهب إلى المطبخ لتفتح الثلاجة، وتأتي بشيء يصلح مزة:

- لن تشرب أمي الا كأسا صغيرة واحدة. وسيبقى من الزجاجة ما يكفيك ويكفي ناديا. لن تتأخر اكثر. تعرف أننا قلقون عليها.

واضافت مؤكدة:

- لن تتأخر ما دامت لم تتلفن بعد.

فتحت ناديا الباب وأنا لم ارتشف غير النصف من قدحي. نزعت عنها معطفها وغطاء رأسها. وأصلحت من نفسها قليلا، وقبلت الجدة ونينا بتروفنا وأقبلت عليّ مبتهجة فرحة. كانت تفضل الفرو الأبيض غطاء للرأس مهما يكن لون المعطف الذي ترتديه.. مثل نينا بتروفنا. قالت (ناظرة) إلي:

- ظننت انكما في شقتك، فتلفنت (لأضايقكما) بمقدمي الموهوم فلم يرد أحد. فعرفت أنكما عندنا. لن تذهبا إلى مطعم أو مسرح من غير أن تدعواني. وإن كنت أفضل أحيانا أن تلتقيا منفردين في هذه الأمكنة المبهجة.. فتتناجيا فيما بينكما كما تتناجى الحمائم!
- لكنك تعرفين أن نينا بتروفنا عائدة إلى هنا.
- قلت: ربما.
قالت نينا بتروفنا:
- لن نذهب يوما إلى مسرح أو مطعم من غير أن نتأبط ذراعي عروسنا الفاتنة. أي سرور هناك بعيدا عن طلعتك و أمازيحك؟
- كلا يا أميمتي ينبغي أن ينفرد أحدكما بالآخر.

ونظرت إلي (مذكرة):

- ألست محقة؟ ألم أقل لك إنني منصفة، عادلة؟

- أنا (أتذكر) جيدا ما قلت.

صببت لها فرفعت هي نخبا ما. وأخذنا نتحدث ونرتشف. فجأة التفتت إلى نينا بتروفنا الآتية من المطبخ حاملة صحنا من الصلصة:

- اتعرفين من رأيت اليوم؟

- ترى من؟

- زميلتك الدكتورة ناتاليا دميترفنا.

- أين رأيتها؟

- في (عالم الأطفال).

- وما كنت تفعلين هناك؟

- كنت مع صاحبة لي تبحث عن كسوة دافئة لطفلها.

- آمل أن تبحثي قريبا، هناك، عما يخصك أنت.

- يخصني؟ ما الذي يخصني في (عالم الأطفال)؟

- اعني كسوة أو دمية لطفلك القادم.

ونظرت ناديا (مازحة) إلي:

- لن يولد إلا بعد ثلاث أو أربع سنوات.

قالت نينا بتروفنا:

- ولماذا ننتظر طويلا؟

- قلت! إنني (عادلة).

- أنت (تتذاكين) كثيرا اليوم.

(هي غيرى اليوم. غيرى من نينا بتروفنا) سريعا ما وجدت المنعطف إلى الحديث الذي يعجبني اكثر من غيره، واعرفه اكثر ممّا اعرف غيره: الجديد في العالم الثقافي. وهو ما يُعجب الجدّة ويسرّها. وهو ما خيب

مسعى ناديا التي أرادت أن تثأر منّي وتخوّفني بتسلّلها إلى (موضع الأسرار) كما يقول الحسن بن هاني.

التقيت لوسا مصادفة في مخزن الحي الكبير. كان ذا طابقين. الثاني منهما للمعاطف والثياب والقرطاسية وغيرها من اللوازم. فلم يكن يهمني الصعود اليه. بينما كان الطابق الأول للتسوق المنزلي. كنت قد ابتعت طبقة بيض وفاكهة. لم يكن المخزن بعيدا. وكان يسرني أن أذهب اليه واعود منه ماشيا. وكانت هي قد اشترت ما تحتاجه. فعدنا معا تحت اوائل الليل البارد. لم تكن الثلوج تتهاطل. الا أن الرياح كانت (ثلجية). لم أشا أن أذكرها بالزيارة المرتقبة. ومن الحوار معها عرفت أن زوجها قد عاد من بعثة عمله له قبل يومين. لم أكن أدري شيئا عن هذه الرحلة. فهي لم تنبئني نبأها. ولم تشر إلى (الزيارة) بشيء. إلا أنها، قبل أن ندخل المنزل الكبير (تذكرت) فقالت:

- سأجد (منفذا) إلى زيارتك: فلا تظنن، لحظة، أنني ناسية أوناكثة. طرقت الباب عليك مرتين ولم يرد أحد.
- كنت متغيبا كل مساء تقريبا عن الشقة.

لم أعد اذكر في وضوح اكنا اتفقنا في آخر لقاء على موعد أم تركنا الباب مواربا؟ وقبل أن نصعد إلى طابقنا سألتني:
- هل يمكنك، من فضلك، أن تقرضني الآن؟
- كم تريدين؟
- عشرين روبلا.

أخرجت لها الورقتين الورديتين من جيبي.
- شكرا لك.

أنا لم أقبّلها، حتى الآن، قبلة واحدة. وهي جميلة. وان لها قواما. وأي

قوام! وتذكرت أنها (أهدتني) صاحبة شهية لها. وخرجنا من المصعد. وأخذنا نتحدث في أي شيء، عن عملي، عن عملها. وهمت بتقبيلي امتنانا وشكرانا. وتوقف المصعد عند طابقنا فابتعدت آسية عني. وخرجت الجارة الأخرى من المصعد، واغلقته وراءها في هدوء. حيتنا وفتحت بابها وألقت نظرة ما علينا. وبعد أن اغلقت الجارة بابها قبلتني لوسا. واسرعت إلى بابها وقوامها يترجرج لي.

قالت ناديا وكنا عائدين إلى بيت نينا بتروفنا:

- لا تسرع رجاء في القيادة.

وكنت مسرعا. اضافت:

- سيجدوننا جثتين يوما ما.

- لن أقود مسرعا. لا تجزعي.

وخففت من السرعة:

- سأوصلك آمنة إلى البيت.

- لاتقد سريعا رجاء. خفف من السرعة. أخشى عليك اكثر مما اخشى على نفسي. لا شيء يتعجلنا.

- ها أنا أقودها كما اقود عربة طفل.

- لا تدري كم أحبك.. وكم افكر بك.

- أدري.

- لا تدري.

كانت الساعة الثانية عشرة من الليل تقريبا عندما فتحت ناديا الباب. لم تنم نينا بتروفنا، بعد، بالطبع. كانت قلقة جدا. لم تقل شيئا لي أو لناديا. قبلتها ناديا قائلة:

- أنا السبب. اعذريني. اردت أن نبقى وقتا آخر في المقهى. كنت أظن أن الازدحام سيخف مع تقدم الليل.

والتفتت إلي قائلة بصدق:
- ابق الليلة هنا. لا تعد إلى الشقة الفارغة.
- لن أبقى. لا بد من أن تناما بلا تأخير. غدا لديكما عمل أنا عائد إلى البيت. اعذريني نينا بتروفنا عن الإزعاج.
- أنا السبب في هذا الإزعاج كله.

قالت ناديا هذا مسرعة. لم أكن ارى في عيني نينا بتروفنا عتابا معي أو لوما. ولم تكن لائمة ناديا. كانت صامتة. كانت قلقة من تأخرنا. ولم يكن الوقت المتأخر وقت اتصال بتلفون ودق أجراس فالجدة نائمة. وكانت ناديا تقول وأنا أعتذر:
- لا تذهب. ابق هنا الليلة. إلى أين أنت ذاهب؟ ابقَ رجاء.

واسرعت عائدا إلى الشقة. فتحت المصعد واغلقته ورائي في هدوء. غير ان الصوت كان مدويا كما بدا لي، كان الصمت شاملا. فتحت الباب فابصرت (قصاصة) على الأرض: (انتظرني غدا. العاشرة صباحا أو بعدها) ولم أقرأ اسما. لابد من أنها لوسا، لن تمرر ناديا (قصاصة) إلي من تحت الباب. كانت ناديا معي. لم أنم بعد أن اغتسلت وارتديت بيجامتي كما كنت آمل.

لم أكن جائعا مع أننا لم نتعش في المقهى. لا يقدم هناك غير الشراب و(المثلجات) تقريبا. صببت لي كأسا من الويسكي ورحت أتساءل: من هي؟ إنها لوسا بالطبع. لم تكتب اسمها. لماذا؟ حذراً من المنظفة ربما. ومن أين تعرفها المنظفة؟ ربما هي امرأة اخرى؟ لا تتغابى. انها هي. وهي بين ذراعي غداً. بقوامها الشهي، الطويل كله. وأردت ان املأ الكأس ثانية. فانتبهت. كلا. سأصحو متأخرا. كلا. ستأتي وتدق دقا هادئا بالطبع ولن اسمع وأنا نائم. ولا أدري متى رقدت. وقد نمت

نوما عميقا، فقد صحوت في الثامنة، وأنا يقظ تماماً. حلقت وجهي واستحميت بالماء الدافئ. أفطرت إفطارا خفيفا. وارتديت. وزيادة في (التهيؤ) أترعت لي كأسا من النبيذ (القوي).. وانتظرت مطمئناً، مصغياً إلى الطرقة المنتظرة على الباب. انتظرت، وانتظرت ولم يطرق الباب. مرّت العاشرة ومرّت الحادية عشرة، والثانية عشرة ولم يطرق الباب. لم أكن غاضبا.

كنت هازئاً من نفسي، ومن انتظاري الوعود الباطلة. ربما شغلت. ربما لم تمنح أجازة. ومن أين لي أن أعرف؟ إنها لم تطرق الباب ولم تأت. وهذا الحل ما اعرفه. فالى الجحيم بها وبالوعود الكاذبة كلها. وأسرعت مغلقا بابي غير ملتفت إلى باب شقتها كما خيل لي. وهبطت. وقضيت النهار القصير كله في مكتبة الاداب الأجنبية (ملجأي ومنزواي). ولم أعد إلّا في ساعة متأخرة من الليل. تعشيت عشاء (باردا) في احد المطاعم المتأخِّرة. وعُدت. وجدت (قصاصة) اخرى: (لماذا لم تنتظر؟ لا ادري متى (سأنتزع) أجازة نهار آخر.) يا لك من امرأة ماكرة! مزقت (القصاصة) وألقيت بها في سلة المهملات. أنا لم أشرب في المطعم غير قدحي نبيذ. كان الوقت متأخرا. أخرجت قنينة النبيذ المترعة صباحا، وأخذت أشرب وأنا العن نفسي واطمئنانها إلى الوعود الجوفاء. وبعد انحدار السائل الوردي (المخادع) إلى النصف من مكمنه الزجاجي ارتضيت أن اغفو.

أفقت مبكراً كما بدا لي (في الثامنة). استحممت بالماء الدافئ، و(شربت) البيضتين الحارتين، وتجرعت فنجاني قهوة سوداء. وطفقت اترجم.. مؤجلا فنجان القهوة الثالث إلى وقت آخر.. حامداً بريقها الأبيض الناصع، المنقط بالنقاط الشذرية الزرق. وكنت أترجم (مفتوناً) بترجمتي لا بالنص الثقيل. وطرق الباب. إنها الثانية عشرة.

لا أظنها ناديا. لن تطرق بلا تلفون إلا نادراً. صحيح أنها ميالة إلى (البادرات) الا أنها تفضل (الحشمة. وطرق الباب مرة أخرى طرقا غير متسرع.. وكأن الطارق آمن إلى مكمني في الشقة. وتمطيت غير آبه، ونظرت إلى الساعة ثانية: إنها الثانية عشرة. ساعة انتصاف نهار المكدودين، المواظبين وأنا منهم. وخطوت غير منتظر شيئا مأمولا إلى الباب وفتحته بلا تعجل: إنها لوسا.

- لماذا لم تنتظر أمس؟ لم (أقتلع) أجازة اليوم الواحد إلا في الثانية من النهار وأسرعت في التاكسي اليك. لماذا لم تنتظر؟
- كنت يائسا تماما.

أخذت عنها معطفها الأنيق وعلّقته. وأجلستها إلى المائدة. وجئت بزجاجتي الخمرة والكولا والأقداح. واخذنا نشرب و (نتعاتب). كنت متحيّراً. ليست الثانية عشرة من النهار ساعة رقص فأضمها إلي واراقصها ثانية واضمها وأقبّلها. وبعد الرقصة الثالثة الخافتة أضمّها وأقبلها طويلا. وينحدر بنا الطريق إلى (هناك) حريريا كالطريق إلى الصين.. إنّها الثانية عشرة من النهار. فلو أنها الثانية عشرة من الليل فما أهدأ وما أيسر الطريق إلى (الصين)! وكنت (مهذباً) جداً. وأنا بطبعي رجل مؤدّب، وقور. لن اعكر صفو مائها الساكن برمية ذرّة من الرمل. أخيراً قالت لوسا كمن تحذرني:
- لن أبقى بعد الخامسة.
وأضافت مبتسمة لي وكأنها (تتفهّم) حيرتي:
- ينبغي أن أعود إلى البيت وكأنني عائدة من العمل.

ليس هذا جديد عليّ. انما الوقت مبكر للرقص و(الممهدات) والخمرة خير ممهّد. كان من (الأنجع) أن أفتح زجاجة ويسكي أو كونياك. وأنا

لم افتض إلا قنينة نبيذ خفيف توافقا مع الثانية عشرة من النهار.. أو الصباح وهو الأصح. وقوامها الروسي الشهي ملء عيني. قالت لوسا:
- اعذرني. أنا مدينة بأكثر من خمسين روبلا لك.. في الأيام الأخيرة أنا لم أعدها (وفتحت ذراعيها كالمتسائلة) ربما بأكثر من ستين روبلا. لم أعد ادري حقا. سأعيدها بالطبع.. إنما (وابتسمت) شيئا بعد شيء. نحن جاران.
- لا تعيدي.. رجاء.
- لماذا؟ إنها نقودك.
- نقودي هي نقودك. أقسم لك.
- فلماذا أنت كالخجل منّي.. (كالمتحفّظ) معي؟
وخطت هي إلى الغرامافون.. ووضعت اسطوانة رقص هادئ.. فدعوتها إلى الرقص. بعد الرقصة الثالثة كنت أقبلها آخذا بها إلى هناك، وهي (تتمنّع) مرحة كالراضية.
وفي الثامنة من الليل كانت ناديا تتلفن لي ناشجة، خائفة:
- لم تعد نينا بتروفنا إلى البيت.. ولم تتلفن.
- أنا قادم بعد دقائق. وسنذهب معاً إلى المستشفى.
كانت نينا بتروفنا متمدِّدة على السرير الابيض.. بطولها الفائق الحسن كله هادئة.. تبتسم لنا غير مكترثة بشيء:
- لا تفزعا.. ما هي إلّا وعكة طارئة.
واضافت آخذة بيدي ويد ناديا:
- وهي زائلة الآن. أنا عائدة معكما إلى البيت.
كنت قلقاً، خائفاً. قلت:
- أهو المرض.. ذاك؟
- كلا. ما بك؟ ما هي إلّا وعكة عابرة. كنت مرهقة فأغمي عليّ.. يحدث هذا لي نادراً كلما أجهدت نفسي ولم أرحها قليلاً. أعطني يدك من

فضلك. أنا ناهضة الآن. وسأذهب معكما إلى البيت.
- الأفضل أن تمكثي مستريحة.
وأضفت مقبّلاً يدها غير آبه للطبيبة الأخرى والممرضة:
- قد تحتاجين إلى علاج أو فحص.
- لا أحتاج إلى شيء غير العودة معكما إلى البيت.
وقالت الطبيبة الشابة المؤتزرة بالبياض ضاحكة الوجه:
- خذاها معكما. لا ضرورة لبقائها هنا.
وفي الممر بين الاشجار العارية إلى الشارع كنت أقول معاتباً:
- لماذا لم تتلفني؟
- لم أستعد صحتي وانتباهي إلا قبل قليل.
- أأنت متأكدة من أن البقاء في المستشفى لم يعد ضرورياً؟
- فلماذا سمحوا بخروجي وعودتي معكما.. إن لم يكونوا متأكدين؟
وأنا نفسي متأكدة تماما من أنني موفورة العافية.
وأضافت مازحة:
- ما رأيكما أن نذهب الآن إلى بارك غوركي؟ هناك ساحة جيّدة للتزلّج على الجليد. سأبز المتزلجين هناك براعة.

لم أعد، تلك الليلة، إلى شقتي الا بعد الثانية من الليل. كنت أخشى أن يعاودها المرض.. مع أنها كانت تؤكد لي انها متعافية، ولا ضرورة لبقائي. كان المخزن مغلقا عندما وصلنا. فأسرعت إلى شقتي بعد أن صعدنا إلى شقة نينا بتروفنا، وعدت بقنينة ويسكي. تلك هي رغبة ناديا.. (لن نسهر إلى مائدة عارية).
- يمكنك أن تبقى الليلة هنا.
- كلا. لن أضايق نينا بتروفنا. سأعود إلى بيتي متأخراً.

(ارغمنا) نينا بتروفنا على النوم مبكراً. واتّخذنا أنا وناديا، من البهو

باراً منزلياً. وكنا نختلس النظر إليها عبر الباب الموارب تفقّداً. نامت نينا بتروفنا نوما عميقا، هادئا وكانت مجازة أسبوعاً.

- سأذهب بكما كل ليلة إلى سينما أو مقهى.

- ماذا جرى لك؟ ينبغي أن تستريح في فراشها طيلة الأسبوع. لماذا منحوها أجازة في رأيك؟ للسهر والسكر؟ بل لتستريح في بيتها. واضافت قابضة على يديّ بيدها الغضة الحارة:

- كنت قلقا. كنت خائفاً عليها جدا.

وقبّلت يدي شاكرة:

- يا للصبي المفتون! اتحبها هكذا كثيراً؟

- هذا واضح. أنا قلت لك هذا مرة.. كما أذكر.

ولم تعد (ظهيرة) لوسا إلا (كباقي الوشم في ظاهر اليد).. لم اتذكرها مرة مذ اتصلت ناديا إلا لحظة أخذت بيدي في يدها الحارة.. فتذكرت الدفء الافروديتي والقبلات الحارة. لم نتفق، أنا ولوسا، على لقاء قريب أو بعيد. بل تركنا الباب مواربا. ليس بيننا الا الحائط أو طرقة (خجلى) على الباب كما قالت لوسا.

عدت مبكراً إلى نينا بتروفنا قبل أن أفطر. فأعدّت هي الإفطار والقهوة السوداء المرّة لي، والممزوجة بالكاكاو والسكر لها. كانت ناديا ذاهبة إلى عملها. ألحّت على نينا بتروفنا أن تستريح في فراشها. وأخذت كرسياً لي وجلست إلى جانبها. كانت في رداء منزلي جذاب، كما يقول الروس، أزرق قليلاً، منفتح عن أعلى صدرها الناهد كصدر عذراء. قلت معجبا بها وبثوبها:

- لم أرك في هذا الثوب من قبل.

- ما بك؟ انت اشتريته لي قبل شهرين.

- فلماذا لم أره؟

- رأيته مراراً عليّ هنا أو في شقّتك. لكن أثوابي كلّها في مثل هذا اللون تقريباً. ولهذا يبدو لك وكأنّك لم تره من قبل.
- سأشتري لك اليوم ثوباً منزلياً أحمر، داكناً.
- لماذا من فضلك؟
- تنويعاً.. وتلويناً.
- هو ذا صبي نينا بتروفنا العزيز!
أبصرتها مرتدية الثوب الجديد في اليوم نفسه، أوّل الليل، وقد عدت اليها بعد ثلاث ساعات في الترجمة. كانت تشع جمالاً وفتنة.. وناديا في المطبخ تعدّ لنا الشاي.
- لماذا لم تبتع لناديا ثوبا مثله؟
- لا أعرف قياسها.
- فكيف اشتريت لها أردية من قبل؟
- كان الصحفي (النابه) معي.
- اذهبا غدا معا، واشتريا مثل هذا الثوب.
- أهي معجبة به؟
- بل مسحورة.
- غداً سانتظرها هناك. ستلحق بي بعد انقضاء عملها. وأنت؟ أتريدين ثوباً آخر؟ أو أي شيء يسرك ان ترتديه؟
- لا تهدني أية هدية أخرى.. حتى تهل علينا ليلة رأس السنة الموعودة.. ولتكن قنينة عطر صغيرة.
- غداً سأشتري القنينة.
- لا تكن مبذراً... ينبغي أن تسافر إلى اوربا.
بعد الشاي قالت فجأة، وناديا تتفرج على التلفزيون:
- ما رأيكما في ان تذهبا إلى المركز، وتتجولا هناك؟ أو ان تدخلا أي مقهى في شارع غوركي؟ إنها ليلة الأحد. لو لم أكن متعبة

لذهبت معكما. إلا أن الخروج غير مسموح لي حتى انتهاء الأجازة. سأنام مبكرا بعد قراءة صفحات من رواية ما.

مذ مرضت نينا بتروفنا مرضها الأخير لم تشر ناديا مرة، ولم أشر أنا إلى زيارة الشقة. انعطفت بالسيارة الدافئة إلى مركز المدينة.. أوقفتها حيث اعتدت إيقافها عند الرصيف الجانبي من فندق متروبول. وانحدرنا جوار فندق موسكو إلى النفق.. لنصعد منه إلى شارع غوركي. كان الصف طويلا عند مقهى (الفضاء) أو عند مقهى (موسكو).

اجتزنا الشارع إلى مقهى آخر لا اسم له. لم يكن مبهجا، ضاجا بالحركة مثلهما. كان أهدأ وأقل ازدحاماً. أوصينا على شمبانيا و(مثلجات). وهي أكلة روسية باذخة، قد لا تجد لها نظيرا في العالم كله. إلا أنها سرعان ما تذوب. كانت النادلة الطويلة تعرفني. أخذت مني، مرة، لفافة. ورجتني أن آتيها، في المرّة القادمة، بعلبة من سجائري. لم تصلها العلبة الا بعد شهرين. وهي تذكرني بهذا مازحة كلما جئت المقهى. وقبل أن تذكرني، هذه المرة، أخذت أنا لفّافتين من العلبة وتركتها لها كلها وهي ملأى. أفرحتها (المنحة) الأجنبية وشكرتني شكرها الروسي الجميل مازحة:

- اذا احتجت لفافة ثالثة قل لي و(سأهديك).. وتذكّر من فضلك: لفافة واحدة لا غير.. لفافة واحدة!

قالت ناديا بعد ان ابتعدت النادلة:

- يبدو لي أن لك معها (رواية).

- أهديتها، مرّة، علبة سجائر. لا أقل ولا أكثر!

- ولماذا اصدّقك؟ إنّها جذابة.. ومِمراح.

- هي هكذا مع زبائنها.. انظري تري.
- ما هي معهم مثلما هي معك.
- أنا أجنبي! يسرّها أن تمزح معي.. وتلهو.
- مثلما سرني (اللهو) معك.
- سنعود إلى (المغاضبة). لا مفر معك من هذا.
- أتريد منّي أن ألعب معك لعبة شطرنج جادة؟
- هي أمتع من المخاصمة بلا سبب.
- وهل أنا معابثة أو مهووسة في تصوّرك؟
- يقينا أنا لم أقل هذا أو أزعمه.
- لم تقله بلسانك بالطبع.. بل بعينيك.
- يا لك من قارئة عيون لا تبارى.
- انا المذنبة. لا يهمك معي غير امتطاء المرتفعات.
- بل التنزه في حدائق النور والغزلان.
-هل ترى لي قرونا؟
- ما بك؟ هل جننت؟
- لم يجنني أحد عداك.
- ما أحلى الجلوس معك في المقهى.. بين الأنظار المستغربة!
- بل ما أروع أن اتنازل لها عنك.. وأسرع إلى مقهى آخر ورفقة ثانية! لم نزل في أول السهرة. والمقاهي ملأى بالمتوحدين واكثرها امتلاء بهم.. المقهى الصغير في الطابق الأرضي من فندق موسكو.. عند السلم الاشهب إلى المطعم. ما اكثر الطلبة الأجانب الوحيدين هناك! كنت مرة مع صديقة لي هناك. دخلنا المقهى مصادفة. أخذوا يفترسوننا بنظراتهم الكاسرة، الجائعة افتراسا. من غير أن يجرؤ أحد منهم على الدنو منا. فانهزمنا لا خوفا منهم بل سخرية: يلوح لي أنني رأيتك جالسا بينهم.

- متى كان هذا؟
- قبل أن التقي الشاعر اليافع بشهر.. بل بشهرين.
- لم ادخل ذلك المقهى مرّة منذ عام.
- إذاً كنت أنا وصاحبتي هناك قبل عام.
- فلماذا لم انتبه اليك؟ لماذا لم انظر اليك؟ ألست جذابة بارعة الحسن؟ كان من الجائز جدا أن يبقى طيفك الجميل، الساحر منعكسا في قاع نظرتي إلى يومنا هذا.. بل إلى آخر يوم.
- إنني اراه مترقرقاً، منعكساً حتى هذه اللحظة.
- هذا لأنك جالسة أمامي الآن. ما رأيك بقدحي شمبانيا باردين آخرين؟ وبمثلجات أخرى؟ لم نزل في أول الليل كما قلت أنت.
- إنّك تريد إطالة الجلوس تحبّباً منها وتقرّباً إليها.
- بل اريد طرد هذه الغمائم الموشكة على الهطول من هاتين العينين الفذّتين. ما أروعهما ناظرين فاتنين!
- لن تؤثر بي المصالحات المراوغة.
- سامحك الله. أأنا مخادع؟
- لا أعنيك أنت. بل اعني المصالحة.
- أي فرق مادمت أنا (منبعها)؟
- ثمّة فرق هائل.
- لا أرى (خيط) فرق. سأوصي على شراب ومثلّجات أخرى. أم تفضّلين صنفا غير الشمبانيا؟ كونياكا مثلاً؟
- بل قهوة لي ولك. تذكّر أنك ستقود.
- لا أثر للشمبانيا في رأسي. أتريدين نبيذاً أم كونياكاً؟ اختاري أياً منهما من فضلك. سأدعو صاحبتنا النادلة الآن.
- صاحبتك رجاء.
- ليكن. إنها امرأة ظريفة.

- قد (أكاشف) نينا بتروفنا.
- لم تكتشفي (أثراً) مهماً غير علبة سجائر.
- ما العلبة الا دليل فاضح إلى مكامن الصيد.
قلت داعيا النادلة الطروب:
- من فضلك.
اقبلت تتأوَّد ناظرة إلي نظرة اشتهاء. نظرة صيّادة متمرِّسة، مترجرجة، لينة، غير مكترثة باشتعال عيني ناديا غيرة:
- تريد لفافة؟ لم تزل إحدى لفافتيك على المائدة.
- أريد نبيذاً ومثلجات.
قالت ناديا حالما ابتعدت النادلة:

- تتغنّج!
- هذا شأن أية نادلة تعوّدت المغازلة من الزبائن. انظري إلى النادلة الحسناء الأخرى.. إنها تتدلّل على زبائنها تدلّل الغانيات.
- لست (متبحِّرة) عميقة الخبرة في هذه (المساخر). لم أنصب لك فخّاً، ولم أصطنع مكيدة. جرى الأمر فيما بيني وبينك من تلقاء نفسه كما تتفتّح البراعم.. أو كما تجري الأنهار والسواقي إلى مصباتها. كان التقارب مسلياً. كان المخدع شبه مظلم، والستائر الحريرية منزاحة نصف انزياح عن الضوء القمري المرتجف. ولم يقرع جرس الخصومة الا بعد جولات. لم أقرأ سطراً من الرواية الضخمة.. حيث تتربّع على عرشها ملكة المقاهي المتوّجة. ها قد جاءت نادلتك المفتونة تتموّج اغراء.

- ما كنت يوماً أقل منها تموّجاً.
- على أبسطة الغابة أم على سرير الشقة؟
- أين كنت تخبئين هذا المجلد من النظريات المغلقة؟

- ألم (تكتشف) بعد؟
- كلا. وغمازتيك فراستي الافئدة.
- فلماذا لم أصطد حتى ريشة من الطائر المكابر؟
- أوَلَم يتهاو متخبطا بأوّل سهم؟
- لم يفتأ متنقلاً من (وكر) إلى آخر.
- ما ألطفه نبيذاً!
- لا تطلب مزيداً. سنخرج بعد أن نفرغ من هذا.
- متصالحين؟
- متى طال (اصطراع) لي معك إلا في الوكر؟
- ما رأيك بقدح أخير في الشقة؟
- ليس الليلة. غداً بعد أن تتغدّى عندنا. سأعلّمك (لعبة) لم نلعبها من قبل.. (لعبة) تتساقط معها الأنجم الحمر من السقف!

فتحت لي ناديا الباب وهي تضحك. لا أدري ماذا كان يدور بينها وبين نينا بتروفنا من محاورة. وقبل أن أعلق معطفي قالت:
- أنا من أعدت الغداء الفاخر.
- بإشراف وبنصائح من نينا بتروفنا.
- ليكن. كنت أعد الأطعمة جيداً في شقتي.
كانت نينا بتروفنا على اريكتها الصغرى المفضّلة في البهو. قبّلت وجهها ويديها، وجلست على الأريكة الطويلة. انتقلت من مكانها وجلست إلى جانبي. قبلتني قائلة:
- هل تخاصمتما البارحة؟
- اتهمتني بمغازلة النادلة.

- إن كان اتهامها جاداً فهي محقّة. من يعاف مغازلة حسناء مثلها ويلهو بمطاردة نادلة؟

- ما أنا بالمغازل البارع.
- أتقول لي أنا هذا؟
- أنا أعرفها. أخذت منّي، مرّة، علبة سجائر. لا أقل ولا أكثر.
قالت نينا بتروفنا مازحة:
- أنبأتني ناديا أنها حسناء (متموّجة).. وأنا أعرف افتتانك (بالتموّج) ومنذ أول لقاء لنا وأنا أدري. لا تنكر.
- منذ أول لحظة رأيتك فيها لم اشتعل بغير تموّجك أنت. وأنت تدركين أنني صادق في اعترافي هذا الصدق كلّه. كم من مرة كنا معا في الأمكنة العامة ورأيت وعرفت؟
- أنا أعرف حقاً أن كلا منا يحب صاحبه اكثر مما يحبّ نفسه. لن يضرني أو يسيء إلي تغزلك العابر بامرأة ما.
- تزعم ناديا أنها أعدت غداء معجزا.
صاحت ناديا وهي آتية من المطبخ:
- لم أقل معجزا. قلت فاخرا.
- إنها طاهية ممتازة.
- بنصائحك وتعاليمك.
- لم أنصح. ولم أذكرها الا تذكيراً هيناً.
- سنذوق ونحكم.
قالت ناديا ما معناه:
- ما انت بالحكم الترضى حكومته..
قالت نينا بتروفنا مذكرة:
- لكنك خبرت طهوها من قبل.
- لم أعد أذكر.
- لا تزعجي نفسك أمي.. لا يسرّه شيء كما تسره المغالطة. هو معك، طيع، لين. أما معي فلا شيء غير المناكدة.

- سأؤنبه تأنيباً لا ينسى إنما ليس الآن. هو الآن ضيف. لا تصح ملاسنة الضيوف. سأؤنّبه ونحن نتنزّه في البولفار، تحت الثلوج المبكرة. أم تريدين أن امتنع عن زيارته؟
- كلا. إنصحيه أن يكف عن إغاظتي قبل أن تثور ثائرتي.
- سأنصحه نصحاً قاطعاً.

كان الغداء شهيا.. بحساء اللهانة الروسي، والبطاطا المهروسة ولحم الضان. لم أقل ملاطفة ولم (أعلق). قالت نينا بتروفنا جادة:
- لم يقل الضيف رأيه في مهارة الطاهية الشابة؟
- لا أقول الآن.. بل بين اشجار الممشى العارية.
- لا تغالط. ما أمتعه غداء!

أهي المصادفة المعابثة جمعتنا مع لوسا في المصعد إلى الطابق الثالث؟ ربما. لا شيء غير التحية العجلى والنظرات (المتكبّرة) المتجاهلة.. ولم أكن أنا محرجاً. ليست هي المرّة الأولى التي تلتقي فيها المرأتان كلتاهما معي. ودّعتني لوسا بصيغة المفرد (متعمدة؟) وهو أمر لا يجري الا بين الأصحاب المقرّبين. وفتحت بابها واغلقته وراءها في هدوء. بينما كنت أبحث عن مفتاحي في جيوب المعطف والسترة. أخيرا وجدته في غير موضعه.. في جيب السترة الداخلي. لا أدري ما الذي طوّح به إلى هناك. ودخلنا. أضأت النور. كنا قد شربنا نبيذا طيبا مع الغداء. وأنا لا أقرب قطرة بعد الطعام. سنؤجّل المنادمة إلى جثوم الليل.

كنت أقبّل ناديا داعياً إياها إلى المضجع. وكانت تتمنّع بقوة لم أشهد منها، مرة، من قبل، مثل هذا الرفض القوي، المعاند. إلا أنّني لم أكفّ لحظة عن المعانقة والتقبيل. وهي حارة وراغبة. وعنادها يضعف ويتراخى. وها هي تقربني وتقبّلني.

هبط الليل مظلماً مبكراً. الكوة في نافذة البهو منفرجة. والرياح تهبّ باردة، قارسة. رددت الكوة. وأخذنا نُعدّ المائدة إعداداً لائقاً. وطرق الباب. إنها لوسا. صرت أعرف طرقتها. ما جاء بها وهي تدري؟ ليس هذا إلا جرأة ومشاغبة. وفتحت الباب. كانت واقفة إلى جانب، متبرّجة وفي ثوب أحمر ضيّق، مثير. ما أجملها!

- لا أنكر أنني غيرى؟ ولا حيلة في يدي حيال هذا. أنا متزوّجة وأنت حرّ. وسأبقى جارتك المقرّبة.

وقبّلتني مضيفة:
- تفوح منك رائحة (عريك) التي أريدها الآن.
- أنا أفهم. ما جاءت بك إلّا الحاجة الملحة.
وأضفت متشجعاً بتقبيلها إياي، والباب مردود خلفنا:
- قولي من فضلك كم تريدين؟
- عشرين روبلا.
- سآتي لك بثلاثين.
- هذا كثير.
- ما هو إلّا مبلغ زهيد. أنا قادم بعد ثوان.
- لا تدعها ترَ.
- لن ترى شيئا.
وعدت بالمبلغ مخبئاً إياه في جيب بنطلوني.
- تفضلي.
- لا أعرف كيف أشكرك. هل هي بائتة؟
- كلا. سأوصلها قريباً إلى بيتها.
- هلا طرقت عليّ بعد عودتك؟ أحب أن أجالسك. أنا وحدي.. أمه مريضة. وهو عندها. لن يعود إلا مساء غد.

- الأفضل عندي.
- بالطبع عندك. لا شراب لدي.
- سأطرق بابك حالما أعود.
قبلتني وانعطفت إلى بابها. وجدت ناديا في المطبخ. اقتربت مني متسائلة بعينين متسعتين، وبوجه غاضب غير مفاجأ:
- ماذا تريد منك؟
- كيف عرفت أنها هي؟
- ما أنا غبية أو حمقاء فيما أظن.
وأضافت عاضة على شفتها السفلى:
- ما جاء بها؟
- اقترضت مبلغا صغيرا.
- يا للجرأة! لم تأت من أجل مبلغ صغير.
وعضت شفتها السفلى ثانية:
- يا للبغي التعسة!
- إنها متزوّجة.
لا شيء يقف في وجهها. لست زبونها الوحيد كما يخيّل لك.
- أنا لم أقربها مرّة.
- قل هذا لغيري.
- دعينا منها. سأسقيك نبيذاً فرنسياً رائقاً.
- لن تبيت الليلة هنا. عندنا متّسع لك.
- ولماذا نزعج نينا بتروفنا وهي تعِبَة؟
- سأفرش لك في البهو. عندنا فراش زائد مريح.
- أي شر في مبيتي، هنا، في شقتي؟
- ستأتي إليك حالما ترجع من توصيلي.
- زوجها في الشقة.

- كلا. زوجها غائب. لم تجيء لتأخذ نقودك لو أن زوجها غير مسافر أوليس في خفارة ما. لا بد من أن تدفع هي الثمن مثلما دفعت أنت.
- لن تبيت هنا الليلة. إن لم تجيء معي. سأبقى أنا.
- وماذا نقول لنينا بتروفنا؟ لم تزل مريضة.
- سنقول إنني سكرت، وفرشت لي على الأريكة.
- لن تصدق.
- لا حل إلا ان تبيت عندنا. لن اتركك لها.
- سوف تتساءل نينا بتروفنا عن السبب في نومي عندكم. أنا لم ادخل غرفتها، مرة اثناء النوم، مذ عدت إلي شقتكم.
- هي نائمة الآن. سأقول لها غداً إنك اوصلتني وشربت أيضاً. وسكرت. وخفت عليك من حوادث الطريق. لا تخف. لن أتسلّل إليك بالطبع. لا أريد أن أؤلمها.
- أعرف يا ملكة الأدغال.
وقلت هاماً متذكراً: لو أنّها عقلت، إذاً، لبكت
ماء الفرات ومنبت النخل..
- ما الذي تبرطم به؟
- لا شيء. قول قديم تغنّى به شاعر جديد. لن أبيت عندكم.
- لماذا؟
- ستغضب عليّ نينا بتروفنا. أنا أعرفها.
أوصلتها وعدت. وطرقت.
- هل (رحلت) الصغيرة الغيرى؟
- إنها في بيتها الآن. تفضلي معي.
- سأرتدي معطفي على ثوبي المنزلي (العاري).
في الساعة الثانية عشرة، نهار اليوم التالي، وكنت في أوج الترجمة سمعت التلفون يدق فلم آبه له. غير أنه ظل يدق. إنها ناديا:

- ما هي أنباء الجارة الطروب؟
وتذكرت قول شوقي: يا جارة الوادي طربت..
- لا (أنباء) لديّ عنها.
- ما أنت صانع الآن؟
- بعد أن أنتهي من الترجمة سأزور نينا بتروفنا. وسأبقى هناك إلى أن تعودي أنت. وسأبقى عندكم أيضاً. وسأركب المركبة عائداً إلى بيتي قبل أن تنام نينا بتروفنا. سأكون مرهقاً بعد نهار مثقل بالترجمة.
- وبعد ليلة تناصفتها معك امرأتان.
- لا تمزحي.
- طيب. اراك، إذاً، ساعة اكفهرار الليل.

انقضت أجازة نينا بتروفنا. وأخذنا نلتقي مرتين كل اسبوع.. أحياناً أكثر من مرّتين. أزورها في الشقة أو أنتظرها عند باب سينما (مرّتين في الشهر عند باب المسرح). أما اللقاء المنتظر في شقتي فلم تحبذه هي إلّا ليلة الأحد. قد تزورني هي أوّل ليلة الأحد أو أعود أنا بها اليها من سهرة ما.. اعود بها ملتفة بمعطفها الفرائي الأحمر الداكن أو الازرق الفاتح، المائل إلى البياض، وبغطاء الرأس الفرائي الأبيض غالبا، وقوامها الممتلئ الأهيف معا يستوقف أنظار الرجال. وهي تعرف هذا، فتتقرب بوجهها أو بجانبها أكثر مني. قد نتجوّل على الرصيف حيال المخازن الليلية المتوهجة أو تحت أشجار الحدائق المجللة بالثلوج نهار الأحد. وقد نقصد المخزن أو المخبز المجاورين غير مسرعين.. بينما ناديا (المدللة) تتفرج على التلفزيون. الثلوج تتكوم أو تنبسط في (ممرّاتها) حيال المنازل وراء اسيجتها الواطئة، الممتدة.. تحت الأشجار الفتية، العارية. والصنوبر والشوح يتعاليان بخضرتهما القاتمة. ونعود بالخبز الحار، الأسود أو الأبيض من المخبز أو بالمشتريات من المخزن

الكبير القريب. الريح ساكنة أو هابة باردة وقوية في وجهينا. وقد يعنّ لنا، ونحن في مركز المدينة، أن ندخل (الكوم) مخزن العاصمة المركزي.. وننعطف إلى المدخل الجانبي الصغير، عبر الخيزران الأصفر المنحدر ستارا على الباب، ونرتشف البونش والقهوة السوداء (حالما نعود ونقص قصة الجولة ونذكر المقهى الجانبي اللطيف تقول ناديا: لماذا لم تقولا لي فأذهب معكما؟ لماذا؟) بعد المقهى قد نهبط قاصدين شارع غوركي المزدحم، المتوهج عبر النفق.. فنتجوّل متمهّلين حيال المخازن الكبيرة، العديدة المشتعلة بمصابيحها.. حتى مترو ما يكوفسكي، مارين بساحة بوشكين وتمثاله الواقف المتأمّل. ومن هناك نركب عائدين إلى مترو ماركس حيث اوقفنا السيارة عند الرصيف من فندق المتروبول. ونحن في انتظار ليلة رأس السنة. الريح باردة، طيبة في وجهينا. ووجهها الأبيض الناصع يتورد. خصلاتها الشقر الكثة منفلتة من تحت القبعة (هي من الفرو الأبيض غالباً).. أو ينحدر شعرها الأشقر الكثيف مائجاً، قد ندخل مخزناً ما، وهو مزدحم أوّل الليل، ونشتري حاجة ما. ونخرج إلى الرصيف المتمهّل بالناس. وتقول نينا بتروفنا ناظرة إلى ساعتها:

- سنرجع متأخّرين.
- وماذا يهم؟
- ناديا في انتظارنا منذ ساعة.
- إنّها مع جدتها.
- لن تحلو لها (ثرثرتها) إلّا معك.
- من الضروري أن تتزوج أو تجد صاحباً طيباً.
- هذا ما يخصّها وحدها.
- لن تبتهج كثيراً برفقة الفتيات.

قالت مازحة، ملتفتة إليّ بوجهها المتورّد.

- فجد لها أنت رفيقاً.

ونعود وناديا تفتح الباب قبل أن نفتحه:

- أين كنتما؟ لقد تأخرتما.

وتقول نينا بتروفنا:

- ألم أقل لك؟

- ماذا قلت له؟

- قلت له إنك خير زوجة له.

- ماذا جرى لك يا أمي؟

و(تغضب) ناديا وتهرب وتعلّق الجدّة مرحة:

- هذه من عجائب الخطب.

وكنت أقول لنفسي: سأنام وحيدا ليلة رأس السنة.. إذا ما رأت نينا بتروفنا ألا تري ناديا أنها ذاهبة للرقاد مع رجلها، بينما ناديا لائذة بوحشة الفراش الخالي. فمن الخير لي أن أعود من السهرة في شقة نينا بتروفنا بساعتين قبل الفجر الأغبش. ولا أمل لي بلوسا. ستسهر مع زوجها بالطبع في بيتها أو أي بيت آخر. فإذا طوّح القدر بزوجها في مهمة خارج المدينة (وما هي إلا منية باهتة) ستسهر مع أصحابها، وهي تعلم أنني مع غيرها. وقد تعود متأخرة، منفردة (من يدري) فتطرق عبثاً أو تهكماً فمن الخير لي أن أعود قبل عودتها ركضاً منّي وراء هذا الاحتمال الطائر.

وقبل أن أرتدي معطفي ناوياً زيارة نينا بتروفنا طرق الباب. وقد هبط الليل الكبير القاتم، ليل الأحد.. المرصع هنا، المنقط هناك بآلاف الأضواء المتجمّعة، المتناثرة (كما أذكره وقد أطلَلْت عليه من نافذة عالية ما).. طرق الباب. ففتحته عن لوسا. هي قادمة من العمل كما

يبدو، لم تزل في فراشها.
- تفضلي.
- لن أجلس الا برهة. قد تفاجئنا الصغيرة (العزيزة) فتقوم القيامة. أنا أمزح بالطبع. لن أبقى فالزوج (الغيور) عائد. طرقت عليك مرة ولم أجدك. كانت الفرصة مواتية. سأجد غيرها. ربما قريبا. وقد تقع (المعجزة) فأمنح أجازة نهار.. فأزورك زيارة طويلة. جئت أحييك وأقبّلك، وأمتّع ناظري برؤيتك، وأذكّرك (بصنائع) يدي وشفتي آخر مرة.

فتحت الجدّة الباب. لم أجد نينا بتروفنا. لم تعد بعد. هو الازدحام الغروبي الهائل، وهي في الطريق إلى البيت فلم تتلفن. ولم تكن ناديا في البيت أيضاً. أين هي؟ وأخذ طائر الشك.. يرفرف. ماذا يعنيني حضورها أو غيابها، وأنا انتظر نينا بتروفنا؟ ربما بعد دقيقتين تطل ناديا بطلعتها البهية، الضاحكة لي، ومعها صاحب ما، فما دخلي أنا؟ إنّ لها الحق في ملاقاة غيري، هي صاحبة (النظرية) الطريفة في النصف من (الغنيمة). وانفتح الباب، وإذا بناديا تدخل قائلة:

- مساء الخير. لم تحضر أمي بعد؟
- لا بد أنها عالقة في الزحمة.
- أرجو ذلك.
وسألتها قلقاً:
- أهي تشكو من شيء؟
- كلا. ألم تتلفن؟
- إنها في طريقها الينا. لا تقلقي.
- إنها تتلفن كلما تطلب العمل تأخراً.
- لا تقلقي.

- أنت أكثر قلقاً مني.

لم تنتظر أكثر من عشر دقائق.. وطلبتها في التلفون. فلم تجدها. أخبروها أنها خرجت لحظة انتهاء دوامها. فازددنا قلقا وحيرة. وكنا صامتين، وأسماعنا إلى الباب والتلفون. وسمعنا باب المصعد وقد انغلق مدويا هذه المرة. فأسرعت ناديا تفتح الباب، وتقول مبتهجة:

- لقد تأخّرت كثيراً؟

- ليس كثيرا.

وأخذت تقبّلنا الواحد بعد الآخر. وتقول:

- هو الازدحام بالطبع. لكنني مررت بالمخزن المجاور لاشتري فاكهة ورنجة. نحن لم نذق الرنجة منذ زمن بعيد.

قلت ممازحا:

- لن تطيب الرنجة إلا مع الفودكا، في هذه الليلة الصقيعية، ومع الخيار المملح أيضا. وأنا لم أحمل معي الا قنينة الويسكي المعهودة. لم أكن (أتوقّع) رنجة.

- اطمئن. ابتعت فودكا ايضا ولدينا خيار مملّح. كنت أعرف أنك ستسأل عن الفودكا حالما أذكر الرنجة. فأخفيت أمرها تعمّداً منّي و(إقلاقاً لك). فلسوف تفكر بالاسراع إلى المخزن والتعرّض للزمهرير.. والريح القوية في وجهك.

- منذ قراءتي أول رواية روسية وأنا أحب الشتاء الروسي.

قالت ناديا تحرّشاً:

- والمرأة الروسية؟

- لا يعشق الجمال الا مجسّداً.

قالت نينا بتروفنا متسائلة، جادة:

- ما هي تلك الرواية الأولى؟

- الأم.. لغوركي.
- إنها جيدة.. وممتعة:
فإذا ناديا تقول معترضة:
- لم اقرأها. ولن أقرأها. لا أحب الآداب السياسية. استنكرت نينا بتروفنا امتعاضها:
- كيف تحكمين عليها وأنت لم تقرأيها؟
- حدّثونا عنها في الثانوية. وطلبوا قراءتها فلم افعل.
- لقد (خسر) غوركي (قارئة ممتازة).
- استمتعا أنتما بقصصه. أما أنا فأحب همنغواي.
- ونحن معجبان به ايضا.
- لا أظن.
قلت مذكّراً إياها:
- ألم أرِك في أول زيارة مع الصحفي النابه كتبه المترجمة إلى العربية والروسية على أحد الرفوف؟ وتحدثنا معجبين بفنّه الروائي والقصصي. وكتابه عن الصيد في افريقيا تلك الليلة؟
- لا اذكر شيئاً من هذا.
- لا تذكري.
- لم يعد غوركي يقرأ الا في الحصص الأدبية.
- انت متوهمة.
- وانت غير مقتنع بدفاعك عنه.
- ما ادراك بالخفايا من آرائي؟ اتقرأينها في جلاء؟
- ما أيسرها قراءة!
قالت نينا بتروفنا متهكّمة:
- للمرة الأولى اكتشف أن في بيتنا طبيبة نفسية قديرة.
قلت (مؤكداً):

- كان الانفع لناديا دراسة علم النفس.
- انا نفسي كلية علم نفس!
قالت نينا بتروفنا (ساخرة):
- كم أنا متشوقة لأول محاضرة منك لي!
- وأنا أيضا.
وقبل الحادية عشرة من الليل قالت ناديا:
- هذه آخر كأس لي.. أنا نعسى.

أوقفت السيارة تحت نافذتي مثلما اعتدت. واتجهنا، أنا ونينا بتروفنا إلى المدخل المزدوج اتقاء الريح الباردة كأي مدخل روسي في موسكو. كانت لوسا وزوجها واقفين في انتظار المصعد.. وقد رأتنا لوسا حالما انفتح المدخل. ومن نظرتها المتسعة عرفت انها قد ادركت أي جمال قادم معي. حييتهما ووقفنا ننتظر معهما. قال الزوج:

- سيطول انتظارنا عبثاً.
قالت لوسا:
- ليس عاطلا. هو منفتح فوق. وسيهبط.

ونزل بعد تأخّر قليل آخر. خرج بعضهم منه وصعدنا. وكانت لوسا تتجنّب النظر إلى نينا بتروفنا. وقبل أن يتجه كل منّا إلى بابه قال كلّ منّا للآخر: ليلة هادئة. قالت نينا بتروفنا، وقد أضاءت النور، وقبل أن أنزع عنها معطفها الفرائي الثمين، الأنيق مبتسمة لي، وفي عينيها طيف ما، ظل ما:
- جارتك جميلة.
- أنت أجمل منها.
- أنت دائم الامتداح لي.

- إن لي عينين.
- لا أدري من الأجمل منهما: هي أم ناديا.
- ناديا بالطبع.
- ها أنت تميل إلى الجانب الأقرب.
- لن (تزعجك) كأس نبيذ؟
- سأترشّف كأساً صغيرة معك. لن أبكر عجلى إلى الشقة. سنصحو غدا متأخرين وقد شبعنا رقادا. لقد اعددت الغداء بينما كانت ناديا تتحاور معك.. في ما لا أدري من (ابتكاراتها) النقدية.. وأنت أيضاً كنت (جاداً) مثلها. وكأنّك لا تعرف أنّها كانت (تتقنّع) وتزعم.. (لإغاظتك).
- أحببت أن أجاريها.
- أرجو أن تتهاطل الثلوج طيلة النهار والليل أيضا.. عشية رأس السنة. سيزونا بعض الأصحاب، ونزور غيرهم اذا ارتضيت.
- قد تُدعى ناديا إلى حفل أكثر (بهرجة).
- هذا أكثر إمتاعاً لها.. (برفقة) جديدة.
وأضافت بعد تفكير:
- لكن ما أدرانا؟ إنّها (تتستّر) أحياناً.
- ربما هو متزوّج، ولا تريد أن تقول فتعذليها.
- إنّ لها (أسرارها) الصغيرة بالطبع. لكنّها لا تخفي عنّي (سرّاً) مهما كان كبير الأهمية. وهي ذكية ومتأنية. والليالي ملأى بالمفاجآت. إنما قلْ لي من فضلك: أتتزاور مع جيرانك.. مثلما يفعل الجيران؟
- أنا لا أزور جيراناً. ليس تجنباً. بل هو طبعي.
- بدا لي أنّها متحفِّظة معي.
- هي (تتصنّع).
- ربما. وهي انيقة أيضاً.
- مرّة قالت جارتي الأخرى، وهي امرأة مرحة تحيّيني باشة كلّها

التقتني في الطريق أو عند المصعد (حذار من الغانية. قلت: من الغانية؟ قالت: جارتك من الشمال. قلت: نحن غير متعارفين. قالت: قريبا جدا ستتعرف هي بك) وقد تعارفنا بالطبع فلم أر منها ما يريبني. ربما كانت المرأة الأخرى غضبى عليها لسبب من الأسباب.

- هي ادرى منك بها.

كانت كأسها فارغة. فأردت أن اترعها.

- لا تسكب لي بعد من فضلك. اسكب لك إذا رغبت. أنا ذاهبة إلى المخدع. لن أتأخر الا قليلاً وأعود إليك.

عادت محلولة الشعر، في ثوب أزرق فاتح، عارية النحر والذراعين أخذتها بين ذراعي مقبّلاً وجهها ونحرها وذراعيها ويديها وأنا مفتون. لم تكن آخذة أية زينة. إنها زينة مَنْ خلَق وسوّى الشقة دافئة. والريح تئن أنيناً كئيباً. الطرقات مقفرة، باردة لا خطى تسمع فيها.. مثلما أتصورها تحت أشجارها العارية.

بعد الغداء الطيب في المطعم غير البعيد أوصلت نينا بتروفنا حتى أعتاب منزلها. وعدت (أدبج) عدداً من هذه الصفحات. أنا لم أقرب (أوراقي) منذ أيام. فرحت أكتب وأكتب. لم افرغ من (التأليف) إلاعصراً أو هو أوّل الليل الشتوي (المبكر). وهبطت إلى الليل.

طفقت أتجوّل ملتفاً بمعطفي المبطّن الدافئ لا أعرف بأي نوع من الفرو كان مبطّناً. لا رغبة في العودة إلى الشقة. ولا موعد لي في مركز المدينة. فإلى أين؟ وتذكرت مقهى في الجانب الآخر من الشارع، بعد موقفين. لكن ماذا أنا صانع منفرداً، مستوحشاً هناك؟ هو آنس من وحشة الشقة بعد الكتابة. عبرت الشارع وأخذت أتمشى إلى هناك. لم يكن المقهى مكتظاً اكتظاظه ليلة أحد أو عيد. دخلت فتاة طويلة،

ممتلئة في ثوب أحمر، آتية من الشارع (ربما كانت تتلفن في الكشك القريب من المقهى) واتجهت إلى مائدة تجلس اليها ثلاث أو اربع فتيات. لم تنظر الفتاة (متعمدة) مثلما بدا الأمر واضحاً لي. فأهملتها. أومأت النادلة الكهلة إلى مائدة لا تشغلها غير فتاتين. وبقي المقعد الرابع خالياً. وأخذت أتحدث مع الفتاتين كما يحدث هذا عادة. وطلبت لهما مزيداً من النبيذ وشوكولا. لا رقص في المقهى. جاءت الفتاة (الحمراء)، وقد رأت علبة سجائري الامريكية على المائدة، ورجتني أن أعطيها لفافتين. فأعطيتها اربع سجائر. والزحمة تتزايد. وقبيل الحادية عشرة، ساعة إغلاق المقهى، خرجنا إلى الشارع البارد. هما إلى جهة وأنا إلى جهة اخرى. كان الصمت شاملا في الطابق. وكان إغلاق المصعد مدويا كما بدا لي. علقت بدلتي في الخزانة. وارتديت بيجامة. وتناولت من أحد رفوف البهو الجزء الثالث من (دروب الحرية). ورحت أقرأ وانا في فراشي طافرا طفرات السرد المتغيرة، المفاجئة.

بعد ثلاثة أو اربعة أيام (لا اذكر) رن التلفون بعد الرابعة مساء، وكنت اترجم. هي ناديا. كانت تعرف أنني قد انتهيت أو أنني سأنتهي من الترجمة. هي ذكية وتعرف أهمية عملي لي:

- آسفة. ادري أنني أبعدتك عن (الصومعة).
- سأطوي (صفحة) الترجمة بعد دقائق.
- ما رأيك في أن ازورك.. بعد الخامسة؟

واسرعت مضيفة، جادة:

- أم أنك غير متهيّئ؟ قل لي أرجوك.
- لا أنتظر غير مصافحة يدك الغضة، الحارة.
- اتفقنا. بعد الخامسة. لن أتأخر.

جاءت في معطف فرو لم أرها فيه من قبل، وبقبّعة فرو لم أرها عليها

من قبل، مكتئبة قليلاً، متورِّدة الوجنتين. قبّلتها قبل أن تدخل، ورائحة الصقيع، كما خيل لي، تفوح منها، هي في بدلة حمراء ضائقة بمفاتنها، لائقة ببياضها وشقرتها. وشعرها الأشقر الكثيف يفيض عبقا آسرا. لم أرها في مثل هذا الجمال المتألّق من قبل، كما بدا لي. أخذت بيدها إلى المائدة، فانثنت إلى (المكتب) وأعجبها أن تتصفح الأوراق. وتقلب صفحات الكراسة الاخيرة المكتوبة من هذه المذكرات أو هذه الرواية.

والتفت إلي كالمعاتبة، وقبلتني قائلة:

- كم ترهق نفسك!

- أي نبيذ تفضلين؟ جورجيا أم بلغاريا؟

- اي نوع يعجبك.

- ومن الموسيقى؟

- لتكن احدى ليليات شوبان.

- أو احدى رباعيات بتهوفن.

- كما تريد.

وكنت أقول لنفسي: أنا أحب فيها نينا بتروفنا، وأحبها في نينا بتروفنا. لا عتاب علي، كلتاهما فتّانتان، باذختا الجمال. ولم تبرح مكتئبة قليلا، متورِّدة.

- شفتك (حارة).

- بعد صقيع الشارع.

- هل ترغب أن نؤجِّل السهرة هنا إلى وقت آخر، ونتسكّع أو نشاهد فيلما؟ لا بد من أن نجد فيلما جيداً هنا أو هناك.

- لماذا لا نبقى هنا؟

- انا (تقية) اليوم.

قلت مازحاً:

- لن آخذك عنوة.
- لسنا في أحد الكهوف.
- لا أريد أن يراك أحد غيري.
- ألا يسرّك أن ترى نظرات (الإعجاب) محيطة بي؟ كم من مرة كنت فخورةً بك وبنفسي.. وأنا أراهنّ يُطلن إليك نظراتهن الحارّة! فإذا الححن أكثر كنت أشيح عنهن.. وأتنمر.
- اختاري أي مطعم أو مقهى.
- اختر أنت.. أنت (أعلم) مني.
اخترت مطعماً لم أكن فيه إلا مرّتين متباعدتين. ولم تتوددني أو أتودّد أية نادلة فيه. كان مزدحماً، صاخباً.. هناك أكثر من عرس يحتفى به. فخرجنا. اقترحت (النويرة الخضراء).
- انه ناء جدا.
- فإلى مطعم موسكو. غالباً ما هو هادئ.

ارتقينا السلم المرمري الأشهب، ودخلنا المطعم. هو متّسع، وسقفه عال ورمادي. أجلستنا النادلة إلى مائدة خالية، لا ندري من سيأتي ويجلس على مقعديها الآخرين. وتركت ناديا الخيار لي من القائمة. سنخرج قبل الحادية عشرة كما اتفقنا. لم أطلب غير سلطة ونبيذ وعشاء خفيف. ولم تحبّذ ناديا الرقص.. كانت تود أن أحدّثها عن طفولتي وعن القرية. أعجبها الرقاد تحت السماء المقمرة أو الممتلئة نجوماً صيفاً، والتمتع بنار الموقد في ليالي الشتاء، وتسلّقي النخلة العالية ابتغاء اوائل الرطب، والسباحة طيلة النهار الحار في نهر القرية. أضحكها تعرّقي وتسهّدي خوفاً من بتية الشمطاء المجنونة، مترقباً تسلّلها إلي وحدي، دون سائر الخلق، من النخل المظلم الهادئ أو المولول في الرياح الهابة، متخيّلاً أصابعها الطويلة (المعقوفة) وهي

تروم خنقي.. متذكّراً عينيها المخبولتين، المريضتين. وأحزنها وأثار أسفها بحثنا عن بيض العصافير في أعشاشها الآمنة. أعجبها حديثي عن أمي، وهي المرأة الوحيدة التي تجيد القراءة في قريتنا والقرى المجاورة. استلطف الرجل والمرأة الجالسان إلى المائدة ما كنت أقصّه، وأصغيا في انتباه زائد، واستغربا حديثي عن فيضان الصيف.

قالت ناديا عند المدخل إلى بيتها:

- لن أطيل انتظارك (معانقتي).. بعد يومين أنا آتية.

وطرق الباب قبل أن أخرج إلى نزهتي الغروبية. إنها لوسا تحمل إلي رماناً جاءت به صديقة لها من باكو. دعوتها إلى الجلوس مرحِّباً بها حقاً، ناظراً إلى وجهها وقوامها بإعجاب:

- تفضّلي.

- لن آخذ من وقتك إلّا دقائق.

- أأنت عجلى إلى مكان ما؟ واضح أنك وحدك في الشقة. فتعالي نجلس ونتحدّث. أنا لم أجلس معك منذ (قرون).

- طيب.. سأمكث قليلاً.

قلت، وقد أغلقت الباب، واتجهنا إلى البهو:

- لماذا (قليلاً)؟

- أنت على موعد. لا أريد أن أؤخّرك.

- ما أنا على موعد.

- لكنك متأهّب للخروج.

- أردت أن أتنزّه قليلاً في البولفار. أما الآن فأريد أن أتنزّه بين ذراعيك، وأمتّع نظري بكواكب عينيك.

- أنا أنتظر ضيفة. صدّقني. إنها آتية بعد نصف ساعة. هي حاملة

الرمان. اتريد أن آتي بها اليك؟ اعني أن نجلس كلتانا معك. لا أريد أن اتركها وحيدة معك. ولماذا؟ إن لك (حريما).
- ما أنا خليفة أو سلطان.. كما تعلمين.
- والحسناء الثانية؟ أي جمال يا الهي!
- لا أجمل منك!
- لا (تتودّد). لن ادعها تطرق الباب عبثا.
واضافت مازحة:
- أم تريد أن أهديك إياها كما أهديتك ليزا من قبل؟
- ماهي انباؤها؟
- إنها تتذكرك متحننة اليك.
- بلغيها مني التحية رجاء.
- سأبلغها. سأعود وضيفتي اليك، ونمرح ساعة.
لم تكن الضيفة في مثل جمال ليزا. انما هي عذبة ومرحة. خيرتهما بين الجن والويسكي. فاختارتا النبيذ. قالت لوسا:
- لا نريد أن تفوح منا رائحة أجنبية.
جئت بالأقداح أولا. قالت لوسا، وكانت الفتاة تتفرّج على الرفوف مادحة كثرة كتبها وتنوعها:
- أنا ذاهبة معك إلى المطبخ.
أخذتها، في المطبخ، بين يدي مقبلا، قائلا:
- ما أحرّك وأشهاك!
- قريبا جداً سامنحك ليلة كاملة.
- وهو؟
- سيمضي في مهمّة عمل ليوم واحد. سأترك لك خبراً. والآن لا (تحرجني) أمام صاحبتي وأنا المتزوجة الرصينة.
- كم أنا متضوّر إلى تقبيل سرّتك المكنونة!

انحنيت عليها ولثمتها مرارا.
- ما أنعمك أنثى!
- لن نبقى بعد العاشرة. صحيح انني معها. إنما الأفضل أن نعود إلى الشقة قبل أن يحضر هو.. تحوطا.
لم تسألني الضيفة إلا عن الدنيا الأخرى، عالمي أنا ، وعن القرية.
وحين ذكرت طائر الوقواق وصيحاته الباعثة على الكآبة، قالت لي:
- أعندكم وقاوق؟
- ولقالق وسنونو وانواع الطيور المهاجرة.

وذكرت قصصاً عن صيدها بالشباك: تخدع بنثر حبوب الرز في بقعة رطبة من الحقول، قريبة من حافة الهور، اكثر من مرة. وبعد أن يرى آثار ارجل الطيور هناك يسعى الصياد إلى البقعة مساء.. يفرش جانبي الشبكة المربوطين بحبل إلى مكمنه القشي، موطأين بعدد من العصي. ينثر الحب وينتظر في مكمنه، وهو مطمئن إلى عودة الطيور من الخضيري والحذاف وغيرهما، فقد رأى آثارها في البقعة المحددة. وتجيء الطيور ليلاً، وتحط متزاحمة، لاقطة، لاغية. ويجر الحبل. فينطبق جانبا الشبكة بالأوتاد كالخيمة المحكمة على الطيور المتخبطة. ولا منفذ لها إلى الخلاص. ويسرع اليها الصياد فرحاً، سالا خنجره المسنون. ويدور حولها آخذاً بتقطيع اعناقها. ويعود بها وبرؤوسها المقطوعة ايضا في قفته الثقلى إلى القرية.. مرتجفاً برداً عبر الحقول العارية (بعد الحصاد) تحت جنح من الليل الغائم أو الصافي. وتنتف منذ الفجر الباكر، وتُباع في أقرب سوق. أما الرؤوس والحواصل والأكباد فهي من حصة الأهل. وقد تباع أيضاً. ويحتفظ بالريش للوسائد. ويقال لنا في المدارس، ونحن صغار، إنها آتية من سيبيريا فراراً من الصقيع. ويصاد البط البري أيضاً. وقصصت عليهما قصة عشقي بطة بيضاء

جميلة، أهداها أحدا عمامي لي وأنا صبي صغير. وَلَهَوْت معها كثيراً رابطاً إياها بحبل طويل، ساعياً بها إلى البرك والمناقع. وفوجئت يوماً، وأنا عائد من مدرسة القرية، بريشها ودمها على الأرض، وقد ذبحوها إكراما للضيوف. فبكيت بكاء مرّاً، طويلاً. فضحكوا مني. وظللت حزيناً عليها أياماً.

بعد خروجهما همست لوسا متأخرة عن الضيفة:

- سترى (قصاصتي) في اقرب فرصة.

كانت ناديا تزورني اكثر مما تزورني نينا بتروفنا، وأتجوّل معها أكثر مما أتجوّل مع نينا بتروفنا... برجاء من نينا نفسها. فإذا تذمرت أو عصيت متحجِّجاً بأية حجة أو ذريعة قالت لي:

- تذكر أنها (صبية) وبحاجة إلى التنزه أكثر مما أحتاج.

- لكنّك أنت صاحبتي وليست هي.

- هي صديقتك أيضاً. وأنت صاحبها المقرّب.

- اتعرفين؟ أخذ معارفها (يلاحظون) أنها هي (الصاحبة) ولست أنت. بل مزحت احداهن قائلة: أنت اليوم وحيد، فريد بلا خطيبتك. قلت: من خطيبتي؟ قالت ممعنة في المزاح: إنها ناديا. قلت: كلا. هي ربيبة صديقتي. قالت: وأي فرق؟ قلت: لا تنسي أن هناك فرقا كبيرا. أنا أحب الدكتورة نينا بتروفنا. وهذا ما يعلمه الزملاء والجيران.

- دعهم يمزحوا أو يظنوا. أنا أعرف أنني امرأتك المختارة الوحيدة. وما خروج ناديا معك الا لهو وتزجية وقت.

- أنا (أحذّرك) ياعزيزتي. قد يتعمّق اللهو أو ينحرف فتفكّر أن لها الحق في مطارحتي الهوى مثلما هو حق لك أنت.

- أنت تعرف جيداً متى وكيف توقفها.

قلت مازحاً:

- فإذا أغريت أنا بها؟

فضحكت عن نواجذ نقية، ناصعة:
- عند ذاك أتخلى لها عنك.

قبّلت فمها الفاغم شذى عذبا، واحتضنت قوامها الممتلئ، المائج طراوة. لكن لماذا سررت جدا (بقصاصة) لوسا، وهي تعدني بالزيارة (المنتظرة) كما كتبت، في السابعة مساء هذا اليوم؟ وجدتها بعد عودتي من مكتبة الآداب الأجنبية في السادسة. يبدو أنّها مررتها من تحت الباب بعد عودتها مساء، وبعد أن طرقته ولم تجدني. ولم أفاجأ بها تطرق بابي بعد قليل:
- سمعت المصعد وهو يغلق بقوة كما اعتدنا. فقلت: ربما هو فأسرعت اليك. لا تقل إنك تنتظر الصغرى أو الكبرى. سأرغمك على أن تزورني وتمضي الليل معي. أنا وحيدة.. متشوّقة وشائقة.
- لا أنتظر أحداً غيرك. تعالي.

وأخذت تتعرّى مبقية على القميص الوردي الخفيف وحده، منحسراً على الكتفين البضتين، الممتلئتين، وعن النصف الأعلى من الثديين المكوّرين. فاحتضنتها مقبلاً، ساعيا بها إلى المخدع. فانتزعت نفسها من بين ذراعي (متمنّعة، معاندة) وهي متضاحكة، منهزمة مني إلى المائدة العارية، قائلة:
- فيما بعد. أنا أكثر رغبة منك. إنّ لك امرأتين وربما أكثر فأنا الرابعة، وربما الخامسة، من يعلم؟ هات شرشفا جديداً من فضلك للمائدة. أنا سأعد كل شيء.

وتساءلت في المطبخ وهي تسدل الستارة:
- ما البرنامج؟
- نشرب ونأكل وننام.

- الا تريد أن (أعاركك) أثناء الأكل والشرب؟
- الطريق إلى (هناك) مفروش لقدميك المترفتين بأوراق الورد الناعمة، الطازجة، والمهاد وثير في ارتقاب الملكة.
- الليلة تطير (الطيور) الجاثمة من اوكارها، وترتفع (الأشرعة) إلى السقف، ويلقى القبض على (الحمامة) في مظانها.
- امتلاؤك يرتجف ترفا!
- ورغبة!
- فلماذا لا تبدأ (المطاردة) الآن؟
- بل بعد تمايل الوعلة انتشاء بخمرة الصياد.
- سأهديك قنينة عطر تتمناها النسوة تمنيا.
- سأتعطر بشيء منها الآن. لن آخذها. سيفطن الزوج الأمين أم تريد أن تفضحني؟ ابقها لي عندك. فاذا شمّت الصغيرة العزيزة عبيرها فاعطها اياها هدية مني. لا أريد أن أتسبّب لها معك بخصام أو بخصام لي مع زوجي. وها نحن متعادلان.

كانت تمزح وكأنها جادة. والليل في اوله. ولم تخبرني أن (المعجزة) أي الاجازة في حقيبتها الا بعد الكأس الثالثة تدللا وتشويقا.. والقميص يفوح شذى، ويشف عما يشف، وينحسر عما ينحسر، وأنا اعلم واتكهّن. و(الممانعة) تطول. ولم نفطر. فقد صحونا متأخرين.
وذهبنا إلى مطعم نتغدى فيه.. بعد اختيار منها.
- هل أنت ناو على الزواج من الصبية؟
- إنها شابة.. ومطلّقة.
- ليس الطلاق سببا مانعا عن الزواج.
- لا أعني الطلاق. لا أريد (مستقرا) وشريكة بيت.
- اكنت السبب في طلاقها؟

- كلا. هو. كان (يلهو).
- هل اكتشفت مواعيده مع غيرها؟
- كانت تشك. فأكّدت صاحبة لها صحة الشكوك.
- فإذا طلّقني زوجي.. ألن تتزوجني؟
- لماذا ندور في هذه الدائرة الآن؟
- أنا أمزح. أنت متزوّج من امرأتين.
- كيف عرفت أن الأخرى غير متزوجة؟
- لم أر خاتما في يدها.
- طيب. كلي ولا تتحدّثي.
في العاشرة صباحا تلفنت ناديا لي:
- هل يمكنك التفرّغ من الأشغال الشاقة ساعة.
- يمكنني جداً.
- في سينما متروبول فيلم فرنسي ممتع كما يشاع. وتريد نينا بتروفنا مشاهدته. امتدحته الممرضات لها.
- لماذا لم تقل هي لي.
- أنت تدري أنها تتحرج.
- أنا مغادر الآن. وساقتطع ثلاث تذاكر.
- الثالثة لي؟
- لجارتي.
- لا تكن متخاشنا. قبل السادسة ننتظرك هناك.
واضافت (مذكّرة):
- لا (تمتط) السيارة. في المترو أسرع.

جاءتا قبل السادسة أنيقتين ومرحتين، فائقتي الجمال.. تنظران إليّ كالضاحكتين، بين الأنظار المتلفتة إلي. كان الفيلم مدبلجاً كأي فيلم

أجنبي شاهدته في موسكو. وكان طريفا، كثير المفاجآت. خرجنا من السينما مستمتعين. فدعوتهما إلى مطعم متروبول، وهو إلى جانب السينما. قالت نينا بتروفنا غامزة لي غمزة استلطاف وممازحة:

- اذهب مع ناديا. أنا مرهقة وعائدة إلى البيت.
- لن اذهب معه الا وأنت بيننا.
- قلت أنا مرهقة.
- أنا مكدودة اكثر منك.
- أكنت تحتفرين الخنادق؟
- كنت منهمكة بما هو أشق.
- يا للصبية الفاتنة، المثقلة بالمتاعب.
- لن أذهب الا وانت بيننا. هذا آخر قول لي.
- ما رأيكما بالعشاء عندنا؟ سنأخذ من مخزن المأكولات المجاور كل ما يعن لنا أخذه. وهو عبر هذه الحديقة الصغيرة حيث يقف تمثال ماركس.

قلت زاهدا بموسيقى المطاعم الضاجة:

- اقتراح رائع كصاحبة الاقتراح!

أخذت اقود حذرا، غير مسارع خوفا عليهما. لم تشرب الجدة ونينا بتروفنا الا قدحين صغيرين. كانت قنينة النبيذ الأبيض كلها تقريبا لناديا ولي. وكان العشاء طيبا والوفاق يرفرف. اوصلتني ناديا إلى المصعد القائم اتجاه الباب. وهمست لي محاذرة:

- غدا قد أمر وأقول لك مساء الخير.
- تلفني لي مؤكدة من فضلك.
- فإذا لم أنبئك فأنا آتية.

وتلفنت في الثانية. كانت تعرف أنني عائد من الغداء منذ حين:

- ما هي اخبار الترجمة المحمودة؟

- إنها تتعافى.
- أسائرة هي قدماً على مايرام؟
- أسهل بكثير من شواغلك (المضنية).
- أنت فتى محظوظ.
- هذا ما تعزّزه زيارتك مساء.
- أنا لم (أوضح) بعد أنني قادمة.
- وهل حديثك اعسر فهماً من الترجمة فتوضحي؟
- ألم تعترف، بعد، ببلاغتي العالية؟
- ما أشعار مارينا تسفيتايفا الا لغو شارع مقارنة ببيانك الرفيع. إنني أضع المعجم إلى جانبي وأنا اتحدث اليك.
- طيب. لن أؤخرك عن (بدائع) ترجمتك.
- لَمْ تقولي.. أأنت زائرة أم لا؟
- لا ادري بعد.
- إن لم تؤكدي الآن فلن أنتظر.
- من اجل التخفيف عن برد وحشتك.. أنا قادمة.
وقبل أن أعينها في انتزاع معطفها قالت مغيظة:
- لماذا تفتح بابها المصون كلّما انفتح المصعد أو انغلق؟
- ربما هي تنتظر أحدا.
- وهل يتوافد عشاقها متزاحمين بين ساعة واخرى؟
- قلت لك إنها متزوجة، وزوجها معها كل ليلة.
- ما ادراك؟
- هذا من الضروريات المتبعة بين المتزوجين.
- وتلصصها عليك.. أَمِنْ سجايا الجيران؟
- ولما تشكّكين بها؟ وبأي حق؟
- بحقي في التعرّي لك كلما طاب لك الأمر.

- هي حرة، ولا شأن لنا معها.
- أخرجت لساني الساخر تحية لها.
- لا أصدق. أنت فتاة مهذبة.
- لا مهادنة معها منذ الساعة.
- دعينا منها. ودعيني آخذ كفايتي من رضابك العذب.
- أتترضاني؟
- ما هي جريرتي إذا فتحت جارة بابها؟
- لم تفتحه إلا غيرة.
- ألم تقولي إنها.. مرحة؟
- (لتمرح) بعيدا عنا.
- هي أبعد ما تكون.
- حذرها من إغاظتي. سأعنِّفها تعنيفاً لا يُنسى.
- كيف أحذرها؟، وليس بيننا غير التحية؟
- فانتظر البرق والرعد.

ضحكت غير حافل بوعيدها. وابتعدت بها إلى المطبخ فاتحا لها الثلاجة الصغيرة واجبا أن تختار ما يعجبها من القناني، فاختارت البيرة.
- لماذا البيرة وهو الشتاء القارس؟
- الشقة دافئة.
- لن تحلو السهرة بغير كونياك أو ويسكي.. أو نبيذ في الأقل.
- من قال لك إنني ساهرة؟ لم أحضر إلا وفاءً بالوعد.
- لا فائدة من التناظر معك. سأشرب ما أشرب وتشربين ما تشربين. والثلاجة كلها لك. وأنا الساقي والنديم.
أخذت هي البيرة وأخذت أنا الكونياك. ولم يفلح معها نصح أو ترضية. وبعد أقل من ساعة نهضت (مصطنعة) الرضا، قائلة:

- شكرا على لطف استقبالك. لا تزعج نفسك بتوصيلي إلى المصعد. أنا ذاهبة إلى بيتي. اتمنى لك ليلة غير هادئة.. بين أحضانها.
- سأوصلك بالرغم من أنفك الروسي الجميل.
أصررت على مرافقتها. وفتحت الباب، واغلقته هي بقوة متعمّدة. ووقفنا ننتظر المصعد. وانفتح باب لوسا وهي تحييني وتقول:
- لا أدري لماذا تأخر زوجي. وأنا قلقة عليه.
أغلقت الباب في هدوء متعمّد هي أيضاً. لم تقل ناديا كلمة واحدة طيلة الطريق. الا أنها (غمغمت) وهي تفتح باب السيارة لتخرج:
- لا تتعب نفسك فتخرج. الجو بارد جدا.

ولم تنتظرني وقد رأتني أخرج. وأسرعت إلى المدخل كالمنهزمة وردته وراءها ردا قويا، مزعجا، فلم اتبعها، وعدت إلى شقتي.
أغلقت المصعد اغلاقا (يسمع) عبر الأبواب عند طابقي. وفتحت بابي ودخلت. هل مرّت خمس أو عشر دقائق؟ لا اتذكر. وطرق الباب.
انها هي، لوسا. كانت آخذة زينتها اللائقة بها، وفي رداء ضيق تتموج به تموّجاً. وكأنها كانت تنتظر عودتي. حيّتني وهي تبتسم لي ابتسامتها الظافرة. فرجوتها أن تتفضّل.

- جئت أخفّف عنك برد الوحدة.
- والرفيق الصبور؟
- اقترض مني نقودا، ولن يعود من سهرته الرخيصة إلا بعد الواحدة. وأمامنا ساعات. فلا تقلق عيناك السوداوان.

حملنا العلبة الفارغة والقدحين والصحون، وجئنا بغيرها. وتركنا القنينة الملأى تقريباً في مكانها. قبّلت وجنتيها النضرتين، الممتلئتين:
- قد يعود قريبا.

- لا تقلق علي.
- فاذا عاد؟
- ساقول إنني كنت أزور أحداهن، في أحد الطوابق.
- كم اخذ منك؟
- عشرة روبلات.
- لن يعيدها اليك. سأعوضك.
- وما ذنبك أنت؟
- اعطيته لتزوريني.
- جئت أرفّه عن نفسي وعنك. فلا تتساخ يا صاح.

وأرغمتها، بل أطبقت أصابعها الغضة، الشهية على ثلاثين روبلا، وهي تقول لي صادقة، مقبلة إياي:
- هذا كثير حقا. لا ذنب لك.
أخذنا نتفنّن في اختيار الانخاب، وكنت انظر إلى الساعة.
- لا تخشَ علي. سيعود ثملاً تماماً. وسيسرع إلى الفراش ويغرق في النوم. فإذا انتبه إلى خلو الشقة مني، وهذا أمر بعيد الاحتمال، سيتصور أنني ضجرت وذهبت في زيارة ما.
وامتعضت أنا عندما رفعت هي نخبا ساخرا منه.
- ما بك؟ إنه يخونني.. فلماذا أرأف به؟
- مع هذا. لا أرتاح إلى السخرية منه.
- ما أطيبك! لن اذكره منذ الساعة وأنا معك. غير أنني نسيت فلم اسألك: ترى ما أغاظ (الصبية) فانهزمت؟
- إنها غَيْرى منك.
- مني أنا؟
- وأين في المنزل حسناء أخرى غيرك؟

- وكيف عَرَفْت أنني ازورك؟ أنت لم تقل لها شيئاً مهمّاً عنا.
- إنها تشك.
- لا أهمية لشكوكها.
واضافت آخذة كأسي لترتشف منها تدانيا:
- يا فتاي المللوح؟
وبعد أن أغلقت بابها وراءها تلفنت لي:
- كل شيء هاديء في (الجبهة) اللصيقة (بجبهتك).
- ليتك أنت اللصيقة بي.
- التصقنا الليلة ماشاء لنا الهوى أن نلتصق.

وكنا في انتظار ليلة رأس السنة. وأين سنحتفي بها في غير شقة نينا بتروفنا؟ لم اتلفن لناديا، ولم أزر الشقة منتظرا لقاء ليلة الأحد المتفق عليه مع نينا بتروفنا. ولم تتلفن ناديا لي. بل تلفنت نينا بتروفنا متسائلة قبل ليلة الأحد كالضاحكة:
- اين أنت؟ لا اتصال ولا انفصال.
- أنا آت. تعرفين كم أنا متشوّق. إنما ليس الآن.
- أعرف. إنما قل لي من فضلك: ما الذي أغضبك من ناديا أو أغضبها منك؟ هي (متدلّلة) كما تعلم.. إنما أنت أعقل منها.
- إن لها (طبائع) متقلّبة أكثر من تقلب سماء صيف موسكو.
- قلت مراراً لك: كن مترفقاً بها.
- إنها تبتدع (المنازعة) ابتداعاً.
- اعرف. ليس من الصعب عليك إطالة الحبل بينك وبينها.
- وليس من الصعب عليها اقتطاعه في أية ساعة.
- إنها غضبى. تعال إلينا و(لاطفها). وستلوذ بك كما تلوذ القطط بأصحابها. إنها طيّبة وتودك. لم يعد لها صديق غيرك.

- سأزوركم قريباً.. و (أتصالح) معها.

- بل تعال الآن. إنها في البيت.

- فإذا استكبرت وتنفّرت؟

- هي التي ستفتح الباب متعجلة زيارتك.

- بعد أن افرغ من الترجمة.. بعد أقل من صفحة.

لم تفتح ناديا الباب لي، بل فتحته الجدة.

- أين هما؟

- عائدتان قريبا.

- إلى أين ذهبتا؟

- نينا إلى المخزن. وناديا إلى المخبز.

ورحت أتصفح مجلة طبية ما. وجاءت ناديا قبل نينا بتروفنا. لم تفاجأ بي مقتعدا أريكة نينا بتروفنا المفضلة. ولم تقبلني.

- مساء الخير.

ولم تبتسم لي ابتسامتها المرحبة بي، التي عرفتها منذ أول لقاء معها. ولم أقل أنا اي شيء لها. وظللت أقرأ في المجلة، وأنا اتذكّر أول ليلة مع ناديا. وأعلت هي صوت التلفزيون. قالت الجدة:

- لماذا رفعت الصوت؟ إنه يقرأ.

- إنه يتظاهر. لا شيء يهمه من هذه المجلة المضجرة.

- ربما لا يهمك أنت. أما هو فرجل ثقافة واطلاع.

- اسأليه عما يقرأ، ليس في مقدوره أن يجيبك. وكيف يجيبك عن نص لم يقرأ منه حرفا واحدا؟ إنه يتظاهر.

- انت المتظاهرة بالغضب واللامبالاة.

- انت مثل أمي.. إلى جانبه دائما.

- لأن الحق إلى جانبه دائما.

- ما أدراكما؟
- وأنت تعرفين أنه محق.

وعادت نينا بتروفنا، وقد ضحك وجهها لي حالما راتني. واتجهت إلى المطبخ، بعد أن نزعت معطفها (بعون) مني، حاملة شبكة التسوق الملأى، ناظرة إلى ناديا نظرة العارفة (تمثيلها) قائلة لي:
- اعذرني. سأعد المائدة خلال دقائق.
قالت ناديا متعمدة إعلاء صوتها:
- امي اتحتاجينني بشيء الآن؟ انا ذاهبة إلى السينما.
- احذري عندما تعبرين الشارع.
قالت الجدة مستغربة:
- ماذا جرى؟ تتركين ضيفك مسرعة إلى التسكع؟
- إنه ضيفكما.
قالت نينا بتروفنا من المطبخ (متهكمة):
- دعيها تخفف عن (متاعبها) بالهواء الطلق المنعش.
لم تقل ناديا حرفا. كانت تتعمد إطالة التزين أمام المرآة الصغيرة المعلقة على حائط البهو وكأنها ذاهبة إلى موعد حب. واكتست بمعطفها وغطاء راسها الأبيض، واسرعت إلى الباب:

- إلى اللقاء.

وضحكت نينا بتروفنا ضحكة سمعتها ناديا. وقمت أنا إلى المطبخ لأعين في نقل الكؤوس والقنينة التي اشترتها نينا بتروفنا إلى المائدة.. تاركا القنينة التي جئت بها على منضدة المطبخ (للطوارئ). وبدأنا نشرب متمهلين، متندرين عن غياب ناديا (المسرحي). وكانت نينا بتروفنا اكثرنا تندرا وضحكا. قالت الجدة كما في كل مرة:

- سأكتفي بقدح واحد. وسأجيء لناديا بقدح وصحن. انها عائدة. لن تطول بها (النزهة) منفردة مستوحشة.
فأضافت نينا بتروفنا مؤكدة، مرحة:
- (ستختزل) فيلمها وتعود.

لم تلبث ناديا غير نصف ساعة خارج البيت. وفتحت الباب قائلة كالغضبى قبل أن تنزع معطفها وغطاء رأسها:
- لا ادري ما أصابها، الفتاة الكسول. لم تحضر. انتظرتها نصف ساعة قرب كشك التلفون. ولم تلح طلعتها البهية.
قالت الجدة جادة تماما:

- جدي لك صاحباً.
- ما اكثرهم!
- فماذا تنتظرين؟ ما المتعة التي تجدها فتاة ناضجة مثلك في انتظار الصواحب عند أبواب السينمات أو التجول معهن على الارصفة وفي مماشي البولفار؟ وانت الفاتنة الأنيقة؟

قالت ناديا كأنما تسخر مني:
- لم اجد، بعد، الرجل الذي انتظر.
- ستنتظرين طويلا.
- لن أبور يوما. كثر هم المتزلفون إلي.

ورفعت قدحها كالهازئة. قالت الجدة:
- أنا أحضرته لك. كنت أعرف أنك سريعا ما ترجعين.

لم تتفوه ناديا بلفظة طيلة السهرة الا نادرا. أحيانا تنظر إلي نظرات (فصحى) لائمة أو معاتبة، فأنزلق بنظراتي عنها. ولم أرفع نخبا من

اجل (القبرة الماكرة) مثلما كنت افعل في كل مرة. وبدت لي نينا بتروفنا قلقة، متفكرة. وكنت أقول لنفسي: إنها تعرف منذ اول يوم. إنها ذكية جدا. وقبل أن نركب قالت:

- واضح أنها مغرمة بك.

- لا أظن. ربما هو خيط من التعلق العابر.

- أرجو ذلك.

وأمسكت بيدي كالراجية:

- اذا أحببتها أنت حقاً سأبتعد عنك من أجلها.

- لا ينأ خيالك بك.

وفي الشقة كانت كالمغمومة. فكنت أضاحكها. مزيحا عن ذهنها ظل ظنها الطائف القائم.. بهذه الحكاية الصغيرة الساخرة أو تلك مما تزخر به الآداب العربية القديمة. وبدأت تبتسم. ثم أخذت تضحك وهي ترى صدق إعجابي بها وحبي إياها. تلك الليلة أبديت لها افتتاني كله بجمالها وقوامها (وهما في عز نضجهما) ولم ادع شيئا من طولها كله الا ولثمته باشتهاء و(تعبد) جليين (من وجهها وكتفيها إلى أصابع قدميها). منذ تلك الليلة لم تعد تشير جادة أو محزونة إلى شيء من (الظل) القائم الذي خلفته (لعبة) ناديا خلف ستار حبنا الا نادرا.

ولم تتلفن ناديا لي، ولم أرها إلا ليلة راس السنة في شقة نينا بتروفنا.. وقد حلت مجللة بالثلوج. قبل (الليلة) انتظرت نينا بتروفنا في شقتي عشية الأحد.. مترقبا طرقتها (الدافئة) على الباب.

- ساهديك هدية مفاجئة.

قالت نينا بتروفنا لي مشيرة إلى (العيد) المنتظر. وكنا في المطبخ متعاونين بنقل الكؤوس والمزة إلى مائدة البهو. كانت الستارة منفتحة

عن نافذة المطبخ فأسدلتها. كانت النافذة آخذة بالتجلد.
- صرت أعرف قياسك وقياس ناديا. فلا ضرورة من الذهاب معي إلى السوق الحرّة. وسأقدم للجدّة هدية تفرحها كما آمل.

- لماذا تبهظ جيبك هناك؟ لقد غمرتنا بالهدايا. لم يعد من اللائق أن تهدينا أي شيء آخر. هات معك باقة ازهار، وهي كافية.
- لا تكفي. ولا بد من أن أصالح ناديا بهدية ترضيها.
- ومن قال لك إنها غاضبة عليك حقا؟
- قد تزيدها الهدية غيظا فنضحك.
- محتمل جدا.
وطرق الباب. إنها لوسا.
- تفضلي.
- أمي وأختي وزوجها في زيارة لنا. جئت استعير مقعدين أو ثلاثة. فقد يحضر ضيف آخر.
- تعالي لنحملها اليكم معا.
- هل (الصبية) في الداخل؟
- كلا. معي صديقة لي.
- الشقراء الحسناء؟
- هي.
- سأدخل إذاً.
- اتحتاجين عددا من الأقداح والصحون؟
- شكرا. عندنا ما يكفي.
حيّت نينا بتروفنا باشة بها، سائلة عن الحال. وحملنا ما تحتاجه. ولم أدخل أنا. قلت مسارعا، هامسا:
- سآتي لك بزجاجة.

- شكرا. عندنا مايكفي ويزيد.
وهَمَست مازحة:
- لا تفضحني.

قالت نينا بتروفنا، ولم تفتأ منشغلة في المطبخ:
- حقا إن لك جارة جميلة كما قلت من قبل.
- اخبرتني هي أنك أجمل الجميلات.
- لا تتباه بي.
- لو تدرين كم أفخر بك كلما رأوك معي!
- أنا أكثر افتخارا بك حين تراك النسوة معي وانت في مثل عمر ابني.
- لا فارق في العمر فيما بيننا.
- ما أطيبك معي!
- ما أنا اكثر طيبة منك معي.

وأضفت ضاما إياها:
- صدقيني.. سأقنعك بالزواج مني
قالت كالجادة المازحة:
- أنا سأختار لك العروس اللائقة.
- لا عروس لي إلاك.
- أنا الأولى.. وهي الثانية.
- لم نختر، بعد، أية قنينة لليلة.
- اختر انت، أتدري؟ كان من الملائم لو عرضت على جارتك زجاجة من الويسكي. إن لديها ضيوفا وستفرحهم هديتك.
- سألتها فقالت إنها في غير حاجة إلى مزيد من الخمر.
- خذ قنينة الآن واطرق بابها.

نينا بتروفنا أعرف مني بالمتبع بين الجيران الروس في مثل هذه الحفلات. فأذعنت وحملت زجاجة ويسكي، وطرقت الباب طرقا هادئا. قالت لوسا فرحة بي وبالزجاجة، هامسة:

- ألم أقل لك ألا..

- الدكتورة هي التي اقترحت، وهي أعرف بعاداتكم مني.

- أهي طبيبة؟

- وبارعة جدا.

- ما أسعدنا حظا! بلّغها شكري. وشكرا لك.

حالما فتحت نينا بتروفنا الباب لي قلت:

- كنت محقة. سرتها الزجاجة. وهي تحييك وتشكرك.

- ألم أقل لك؟

لو أنها ناديا لامتلأت الشقة دخان شك! قبل (العيد) اخترت في السوق الحرة ما يليق بهن هدايا. وحملتها معي إلى شقة نينا بتروفنا عشية (الليلة). وأخذت معي ايضا ما ظننته كافيا من القناني والمعلبات. فقد يحضر ضيوف أو جيران. واخذت علبتي سجائر. كانت الشقة مزدانة، والمائدة عامرة. وقبل أن أجلس قبلت كلا منهن. وقبلنني.

قبّلتني ناديا مسرورة، ناسية أي ظل قاتم أو غير قاتم. كانت هدية نينا بتروفنا لي مجلداً واحداً يضم أعمال بوشكين الأدبية كلها. وكانت هدية ناديا لي سونيتات شكسبير مترجمة إلى الروسية، وهي نسخة نادرة جدا.. (ترجمة مارشاك). كانت شجرة الميلاد مونقة، ألقة بالمصابيح الصغيرة. ابتعتها أنا. وقد جيء بها من الغابات المجاورة أو من مزارعها. لا أدري. ولم تزل رائحتها العبقة تفوح. لم نزر احدا.. بل استقبلنا عددا من الضيوف أصحابا أو أقارب. وقد سرهم الويسكي سرورا زائدا. ودخنوا من السجائر الأجنبية.. ففتحت نينا بتروفنا

كوى الشقة كلها. وفتحت باب الشقة ايضا وهي تضحك. لا ادري متى انفض سامرنا: في الرابعة أو الخامسة فجرا ربما. وقبل أن أصحب نينا بتروفنا إلى شقتي لاح لي طيف أسى وغيرة في عيني ناديا. قبلتها نينا بتروفنا، وقبلتها أنا. وخرجنا.

الثلوج تتساقط غزيرة. الأشجار تبدو مثقلة بها، مرتدية أثوابها البيض. الريح باردة في وجهينا ونحن نخطو متمهلين إلى السيارة. الشوارع مقفرة تماما الا من تاكسي يعبر مسرعا هنا أو هناك. نادرا ما التقينا سيارة. لا حافلة أو ترام أو باص. والمترو لا يعمل أيضا. أخذت الرياح تهب قوية وتذرو الثلوج، والبرد يقوى كما يبدو. قالت نينا بتروفنا:

- شد ما احزنني جلوس ناديا بلا صديق!
- لقد صحت سماؤها من سحائب الطلاق. وما أكثر المعجبين بها! فما الذي تنتظر؟ وماذا تريد؟ حدثتني عن دعوتين إلى السينما، ولم يتكرر اللقاء. هي التي اعتذرت. ربما لم يكن الشابان لائقين.

- فلماذا قبلت الدعوة؟
- ربما كانا (متعجلين) اكثر مما يرام.
- ربما. قريبا ستقتنع بالفتى المحظوظ.

وكنت أقول لنفسي: من الخير أن انأى عنها جادا، فتفكر بغيري. كان السكون مطبقا في شقة لوسا. فهل اختتم الحفل أم انضما إلى حفل آخر في بيت أمها أو في بيت آخر؟ لم ينفتح باب الشقة عندما دوى اغلاق المصعد في الصمت الشامل. وهذا ما كنت آمله، فلا أخرج أمام نينا بتروفنا وهي تراها نشوى أو ثملة.. تقبلني أو تعانقني معانقة انقضاء العام أو ابتداء العام.

أسكر في خروج نينا بتروفنا من غرفة النوم، في رداء نوم أحمر خفيف، ينحسر عن ذراعين ممتلئتين، ناصعتي البياض.. وعن النصف الأعلى من صدرها العريض، الممتلئ الناصع البياض، الناهد كصدر عذراء، وهو يتموج بامتلاء مفاتنها. فلم أعد اذكر ناديا أو لوسا.

- لا تقل إنك تريد الجلوس إلى المائدة.
- بل أريد ان انتهل كفايتي من ريقك العذب.
اتصلت بي ناديا متلفنة بعد يومين، صباحا في العاشرة.
- لا يطيب لي الذهاب منفردة إلى السينما.
- سأصحبك متى يحلو لك.
- في سينما بروغريس فيلم ممتع.. مع أنه قديم.
- هل تودين مشاهدته مساء اليوم؟
- لن نجد مساء تذاكر.. مثلما أظن.
- سأنطلق الآن، واقتطع تذكرتين للسادسة.
- لا أريد أن (اقتطع) وقتا من ساعات عملك.

قلت مذكّراً، مازحاً:
- دعي الترجمة الرفيعة جانبا.
فضحكت ضحكة ناعمة:
- ألم تبرح تتذكر تلك (الأمزوحة)؟
- سأنتظرك قبل السادسة هناك.
- سأمسي ممتنة لك!
- ما بك؟ اتشكرينني على ابتهاجي برؤيتك؟
- فالى اللقاء المبهج كما تزعم.
- ها انت عائدة إلى مزاحك الذي يحلو لي.

جاءت مسرعة إلي في معطفها الفرائي، الضافي، متورِّدة الوجه، فقد قطعت مسافة بين مترو الجامعة والسينما. جاءت متأخرة، فلم يبق غير ثلاث أو اربع دقائق قبل أن يبدأ الفيلم:

- لا عتاب. الطريق طويل ومزدحم. لا تأخير في المترو بالطبع. بل في الحافلة. وهي ساعة انتهاء العمل كما تعرف.

- لا ضير. لنسرع إلى القاعة.

كان الفيلم هو (عطلة في كابري).. قصة حب بين وريثة عرش حسناء وصحفي (غريغوري بيك).. شاهدته وأنا طالب في الكورس الثالث في صالة منزلنا الطلابي الجماعي. قلت آخذا ذراعها الناعمة:

- ما رايك أن نتعشى معا في الشقة.. أو المطعم؟

- سأزورك غدا بعد انصرافي من العمل. هي الساعة الثامنة الآن، وسنصل في التاسعة كما يبدو من ازدحام الشوارع. أحب أن أمكث عندك أطول وقت ممكن. أتدري؟ سأحيي جارتك اذا ما التقيتها.

- لتكن المبادرة الأحرى منكما بإلقاء التحية.

قالت مازحة أيضا:

- ما أحكمك! (وأضافت):

- ماذ سأجلب غدا معي لك من المخزن؟

- لا تتعبي نفسك. غدا سيطول ارتفاع الأشرعة ورنين الاوتار.. وستصدح القبرتان عاليا. لن ينقصنا شيء.

- لا أريد أن تقطع بالغدو إلى المخزن الخيط الرفيع المتوتر بينك وبين الترجمة النابغية. وقتك ثمين جداً كما تعلم.

- قد لا أترجم غدا شيئا كثيرا.

- أأنجزت عملك الاسبوعي في مثل هذه العجلة؟

- غدا (للابداع) الشخصي.

- ماذا تكتب؟ أنا جادة وفرحة. صدقني.
- رواية أو مايشبه الرواية.. كالمذكرات مثلا.
- ما هو موضوعها.. إن جاز لي أن أعرف؟
- عما يجري بيننا.
- بيننا نحن؟
- وأي موضوع أجدر بالكتابة عن موضوعنا؟
- فاذكرني بالخير ولا تشهر بي من فضلك.
- ما أنا ناكرا فضلك العميم علي.
- وأين توقفت بك مذكراتك؟
- إلى حيث نحن الآن.
- هي يوميات إذاً!
- تقريبا. مع أنني لا اكتبها يوميا.
- غدا أزورك. فأضف (غدا) إلى (الرواية).
- لن أنسى. وحق شفتك السفلى الممتلئة إغراء!
- ما أولاك بقبلة طويلة مني!
- بل ما أحقك أنت بفيض عرم من قبلاتي!
- أنا سباحة ماهرة فلن أغرق.
- فاذا شهقت تعبا؟
- لا ترحمني.

وقبل أن تخرج من السيارة ضاحكة، وقد دغدغت ناهديها النافرين الحارين، اقتربت بوجهها مني وقبّلتني قائلة:

- قبل لي رجاء خدي جارتك الطروب.

فضحكت أنا أيضا متذكرا نعت لوسا لها (بالصغيرة العزيزة).

لم اشأ مرافقتها إلى شقة نينا بتروفنا. كنت اتوخى ألا أجمع بين الاثنتين معي اكثر مما يمكنني، في اللقاء خارج الشقة بالطبع.

صحت بها فجأة وهي تفتح الباب هامة بالدخول:
- من الشركسية أعرف كلمتين.
التفتت الي كالضاحكة:
- ما هما؟
- ماي و ميرا.
- ما ماي؟
- تفاح.
- و ميرا؟
- قمر.
- ما الذي ذكرك بهما؟

احمرار وجنتيك وامتلاؤهما.. وبياض وجهك واستدارته.
منعتني لوسا من أن أهديها ثوبا أو حقيبة من السوق الحرة قائلة ممازحة: (لا تزدني فضائح من فضلك) فاتفقنا أن أهديها حقيبة من المخزن المركزي أو غيره. واحتفظت بالهدية (المتأخرة) حتى تسنح لها فرصة للقاء.. أو للزيارة العجلى. وطرقت هي الباب بعد أن سمعت باب المصعد وهو يدق عاليا. قبّلتني قبلة العيد (المتأخرة) أيضا قبل أن أقدم لها هديتي. وقبلتني بعد أن أخذتها:
- لن أبقى. سيعود قريبا. هو الآن في الطريق. لم (أقرضه) نقودا ليسكر بها.. تبرما وحرصا على مالي. هممت باعطائه لأطيل زيارتي لك. وتذكرت أن خفارته قريبة. وسنلهو معا طويلا.
لم تكن آخذة زينتها. إنما أي جمال! واخذت أقبّلها وهي تقول:
- لا وقت الآن. آمل أن أزورك قبل أن تتثاءب رغباتك بي.
وسمعنا المصعد .وهو يغلق. قالت هامسة:
- لن أخرج الآن. سأبقى دقيقة. أظنه هو.

- وماذا تقولين؟
- كنت عند الجيران.
وكتمت ضحكة:
- أولست جارا؟

وجعلت سمعها إلى الباب مصغية في انتباه:
- ليس بابنا. هو باب (الجارة) (الفاضلة). سأفتح الباب في هدوء واخرج. هي ايضا غيرى مني ولا ادري لماذا، وزوجها عجوز؟
- فاذا سألك عن الحقيبة؟
- أقول: أنا اشتريتها. إلى اللقاء.
قالت ناديا وأنا آخذ عنها معطفها:
- حييت جارتك الطروب.
- أين رأيتها؟
- حالما أغلقت مصعدكم الصاخب ورائي فتحت عن نظرتها المتلصصة وكأنها تترقب عودتك. وردت تحيتي (القارصة) وأغلقت بابها في هدوء.
- هي تنتظر زوجها.
- أو أي عابر سبيل.
- ماذا تحبذ اميرتي من المتوهج بردا في الثلاجة؟
- سنذهب معا إلى (الفخاخ).
- فخاخ؟
- أو ليست ثلاجتك مدخرا لاصطناع (الحبائل)؟
- حبائل وفخاخ؟
- لا اعني اصطياد الجارة الفضلى. هي الصائدة وانت الصيد.
- أهي نظرة منها، قد لا تعني شيئا، تغضبك هكذا.

- أغضبني منها ثوبها الفاضح.
- شد ما تبغضينها!
- أنا أشطبها.

وابتسمت لي ابتسامتها المسامحة:
- صبيحة الأحد، أنا ونينا بتروفنا ذاهبتان إلى التزلج في بارك غوركي. حبذا لو صحبتنا إلى هناك! ستكون جولة لطيفة.
- أنا لا اعرف أو أجيد شيئا من هذه الرياضة الشتوية.
- ستتفرج. وقد نعلمك.
- كما تريدان. سأصحبكما إلى هناك. ولن أتزلج.
- لماذا لا؟
- أخشى أن اسقط فأكسر ساقا أو ذراعا.
- سنهتم بك ونرعاك اكثر مما تنتظر.
- أفضل أن اتفرج.
- اتفقنا إذاً؟
- اتفقنا.

قالت وهي تفتح أحد أبواب خزانتي لترتدي بدلتها، التي علقتها قبل أن (نأوي) إلى الفراش الناعم، الوثير:
- نقلت نينا بتروفنا أثوابها كلها إلى هنا.

أنا لا أعرف شيئا مهما من هذه الرياضة الشتوية. التزلج على الجليد كالسباحة يتعلمها الناس منذ طفولتهم، في معظم الأحيان، بمعونة وتعليم من آبائهم. مثلما تعلمنا نحن السباحة في الأنهار بين القرى المتناثرة، تعلموا هم التزلج منذ صغرهم. أتذكر تماريني الرياضية الأولى في التزلج على الجليد في هذه الساحة نفسها، مع معلم الرياضة في المعهد. وقد استبدلنا أحذيتنا بأحذية اخرى خاصة بالتزلج، استعرناها

من مكانها في المدخل إلى ساحة التزلج. لم أتعلم شيئا بين يدي المرأة المدربة. وكدت اسقط واكسر ساقا أو ذراعا لي. لم اكسر ساقا أو يدا من حسن الحظ. وكان التمرين والاختبار حماقة من المعلم. كان يعلم أننا، أنا وزميلي الأجنبي الآخر لا نعرف (حرفا) من هذه الرياضة الغريبة العسيرة. لكنه أصر على الذهاب إلى ساحة التزلج في بارك غوركي. اخيرا اقتنع بغباء محاولته فاعفانا منها. ولم أعد إلى التزلج مرة أخرى.

أوصلتهما إلى البيت، وعدت وحيدا، مكتئبا، مترقبا طرقة تجود بها لوسا.. طرقة قد تسمع أو لا تسمع. والتجأت إلى المجلات أقرا واتصفح. ولم ينفتح المصعد، ولم ينغلق بقوة. ولم ينفتح باب شقة. ولا أدري متى ادركتني سنة من النعاس فغفوت.

أهي الريح تدق النافذة؟ أم هو الباب يطرق طرقا مثابرا؟
كنت نائما منذ ساعة أو أقل. لم اكن ثملا، فأفقت وأنا صاح تقريبا. كنت في بيجامتي. اردت أن ارتدي بنطلونا. غير أن الطرقات لم تنقطع على الباب، وكأنها تلاطفني أو تسائلني ما أنا صانع الآن؟ تثاءبت (نشطا) وخطوت إلى الباب. وتساءلت (ينبغي أن اتساءل كما قالت ناديا مرة.. من يدري؟) ظانا أنه طلب ملح من الجيران: تساءلت وأنا غير مبال أو مكترث:
- من رجاء؟
- أنا لوسا.
- وقبل أن نتفوّه بأية كلمة مفيدة كنا معا عاريين في الفراش الفارغ الموحش منذ لحظات. لم تقل هي أي شيء ولم أقل أنا. بعد ساعتين أو أقل أو اكثر كنا في المطبخ متقابلين عند مائدته الصغيرة نترشف ونتذوق. كنت (ثملا) بها، بطراوتها وامتلائها الجميل، وبتقلّبها

المتسارع بين ذراعي.. وبقبلاتها الحارة.
- لا تسأل. مذ دخلت الشقة مساء وأنا وحدي.
- لماذا لم تطرقي؟
- كنت اتوقع حضوره.
- ولم يحضر؟
- لم يحضر ولن يحضر.
- أهو في المستشفى؟ ينبغي أن تعرفي.
- نائم غريقاً في النوم سكرا عند أصحاباً.. اخبرني احدهم قبل أن اتجمّل وارتدي افضح ثوب.. واطرقك.
- إلى متى أنت متصبّرة؟
- أنا حرة في هذه الشقة.. أروح واغدو كما يحلو لي.. وأتجول كالطيور في غاباتها. وهو كالغائب المريض.. يوما معي واربعة أيام عند أمه البغيضة. هي تعرف أنني لا اشتريه، منذ اكثر من عام، بكوبيك واحد قد ييأس أخيرا من عطفي الناضب، فيلجأ إلى (حنان) الوالدة هاجرا الشقة خالية لي.
- لن تتقبل الشيخة الهزيمة.
- قد تطول (المرافعات) وأسأم قبل أن تسأم العجوز. والشقة باسمها. لم تزل غرفتي في شقة امي في انتظاري.
فجأة قالت منشرحة المزاج:
- من تحب منهما اكثر: الصغرى أم الكبرى؟
- أحب الوسطى.
- من هي الوسطى؟
- تعرفين من هي.
- لا تقل لي إنك تحبني اكثر مما تحبهما.
وابتسمت لي غير معاتبة:

- أنت تحب الكبرى من الجواري الثلاث.
- لا جواري في الاشتراكية.
- لنقل الزوجات.
- ولا تعدد للزوجات في الاشتراكية.
- لنقل العشيقات.
- أنا أحب ارتفاع الأشرعة العالية، المتثاقلة بين ذراعي إلى السقوف.. مثلما ارتفعت الليلة.. منتهلا منها الزبد الأبيض، آخذا عنفوانها وتوسلاتها، وهي تنشج ذارفة دموع آخر الليل مع الفجر المظلم المتسلل كالشحاذ على عكازه في الطرقات.
- قد لا أحب القصائد كما تحبها أنت. أنا أعشق أن أتعرى لك كما تتعرى الحقول الذهبية في انتظار حصادها.
- فاذا أمطرت السماء على الحقل العاري؟
- سيلوذ بك ثدياي كما تلوذ الارانب بأوكارها.

فجاة سألتني وكأنها قد تذكرت فجأة الآن:
- السيدة الجميلة.. صاحبتك.. قلت إنها طبيبة.
- جراحة معروفة في موسكو.
- أهي متزوجة؟ مطلقة؟
- لا أدري.
- لا تتمازح. أهي مطلقة؟
- لم تقل لي. اظن أنها لم تتزوج مرة.
- لماذا؟ إنها فائقة الجمال.
- ما ادراني أنا؟ لماذا تريدين أن تعرفي؟
- هو فضول مني لا غير. امرأة مثلها غير متزوجة إلى الآن أمر لا يصدق. لم أر جمالا مثل جمالها. وكم هي طيبة وأنيقة!

- طلبت يدها للزواج الف مرة ولم تقبل.
- لماذا؟
- هو فارق العمر كما يحلو لها أن تبرر الرفض.
- لكنها تعشقك..هذا واضح من أول نظرة.
- اسأليها أنت لماذا؟ حين ادعوك الينا، عند أقرب زيارة لها، ستجدينها مرحبة بك.. يا بياضاً ميالا إلى الشحوب فالتورد.. فإلى الحمرة والاشتعال في آن واحد.. في برهة واحدة.
- لا (تتفاصح) معي.
- يا اغرودة لم تكتمل.. يا صدى أبيض، ضائعا بعيدا في الأفق الأزرق البعيد.. كشراع ليرمنتوف.
- ما أنا الا امرأة تترضاك وتريدك.
- اتدرين لوسا؟
- قل ما تريد.. أنا مصغية.
- سآخذ من تقع عليها القرعة من الثلاث واتزوجها.
- لماذا اللجوء إلى المحاكم، وانت متزوج من الثلاث بلا عقود؟
- أريد أن اتعقل كالشاعر بايرون.
- لم يتعقل بايرون كما اعلم. بل مات بالحمى غريبا، شريدا.
- لم أدر أنك متتبِّعة، عالمة.
- آن أن نكفّ عن التساقي و(نضطجع).
- ما أنت نعسى.
- أنا (متناعسة).

في المخدع ونحن نتجرّد، قالت فجأة:
- رأيت الدكتورة اليوم في المخزن (تتبضّع)، وكانت الصغيرة العزيزة معها. وتمّ التعارف (المحمود). لم تقل لي إنها ابنتها.

- إنها ربيبتها.
- وهكذا التقت الثلاث: الطبيبة والربيبة والجارة.
فجمشت إبطيها فضحكت:
- انصحك (بالاقتران) باحدى الثلاث.. (اقتصاديا) هذا أنفع لك. فجرب، فإن لم تزدد ثراء طلقها.
- لكنك متزوجة.
- عدني وسأشتري طلاقي منه بمالي أو مالك.. لا فرق.
- ما (اطربك) اللية!
- (احتيالا) مني، واجتذابا لقارب العرس إلى شاطئي. فإن أودت النصيحة الحقّة فاسمعني وأطعني.. وتزوج الدكتورة وارحل بها الىالعالم النامي. يقال إن الأطباء القديرين. هناك يكنزون الذهب والفضة. وهي طبيبة بارعة وشهيرة كما اخبرتني مرة.
- ألن يؤذن الجرس بانتهاء الدرس؟
- ألم تأكل يوما لسان طائر؟ أنا أفطرت به.
- وداعا لراحة الكرى كما قال المغربي.
- بل قال، فيما أظن، وداعا للألوية والأشرعة.. وكما قلت أنت: اشرعتي، الليلة، مرتفعة حتى ارتفاع الضحى.
- إلن تعملي غدا؟
- ساصحبك إلى الدكتورة، وتمنحني أجازة.
- فإذا سألتك: ماذا تشكين؟
- اقول إنك ورّمتني لثماً وضمّاً.
- ستطردنا معا.
- بل تشكرني وتضربك بقائمة كرسيها المكسور.
- لماذا تشكرك؟
- لصراحتي.

- ولماذا تضربني؟
- لأنك لم تورمها اكثر مما ورمتني.
وأنشات تصدح مترنمة:
الليلة تعود الساحرات من الغابة
تعود الساحرات الشمطاوات
- سيسمعنا الجيران.
عبر السهول المغطاة بالثلوج
تتطاول ظلال الساحرات
- سيسمعوننا ويقرعون الجرس طلبا للهدوء.
- لن يسمعنا أحد.
الساحرات الشمطاوات المتنكرات
يعدن بأقنعة من الثلج والسخام
- رجاء كفّي. سيعرفون صوتك، وينسج النول فضائحه.
- لا يهمّني إنهم يعرفون أنني عشيقتك.
- وكيف عرفوا؟
- رأتني الكهلة وأنا اطرق بابك أكثر من مرة.
الليلة تعود الساحرات من الغابة
- أنا يهمّني. لم أزعج جيراني مرّة، وأنت تعلمين. غداً نركب السيارة ونجوب الشوارع، وانت تغنين حتى تنفرج الغمة.
- ما أنا مغمومة. أنا اتغنّى سروراً.
- ما رأيك بالذهاب إلى سينما أو دارنيك أو اية سينما أخرى؟ بعيدا في حي بعيد آخر. سأنتظرك قبالة المترو، هنا، في السيارة ونخف إلى هناك.. إلى أي فيلم يعجبك.
- بعد السينما تتعشى في المطعم.
- فاذا سألك زوجك عن تخلّفك الطويل.

- سأتفضّل عليه بمنحة يسكر بها. وسيغط في الرقاد العميق لحظة عودته. وازورك تحت جنح الليل البهيم.. عارية الا من قميص النوم. وسيسمع الجيران آهات حبي المدوية ويصفقون استحسانا. ها قد اتفقنا على المكان. وسأحدد الوقت في (قصاصة) أمرِّرها لك.
- ليكن اللقاء في السادسة.. بعد العودة من العمل والتهيؤ.

- إذاً نؤجل السينما إلى لقاء آخر. لن يبقى متّسع من الوقت. وندخل أول مطعم يروقنا. ونتعشى غير مستعجلين. انتظر (قصاصتي) غدا أو بعد غد. وبعد العودة أنا لك. سيكون نائما كالجثة.
- هكذا أرخينا الستار على الفصل الأخير من الأوبرا.
- كنت مطربة المعهد.. صدّقني.
- كيف لا اصدّقك، وقد ارقصتني طربا؟
- بل ذعراً من الجارة المتسربلة بمسوح الكاهنات.
ووجدت (قصاصتها) في الحادية عشرة من الليل، وأنا عائد من مكتبة الآداب الأجنبية: انتظرني غدا.
انتظرتها في السيارة قبالة محطة المترو.. في الساعة السادسة تماما كما اتفقنا. وجاءت باهرة الجمال في معطفها الفرائي الضافي الانيق، ووجهها نضر كالزهرة في أوج تفتحها. فتحت لها باب السيارة فدخلت. وقبلتني قبلتها الحارة، وأنا اتذكّر (صنائع) شفتيها الممتلئتين. وعندما انعطفت ومررنا بمحطة المترو أشارت إلى منزل سكني قريب منها:
- هو هنا مع (أترابه). وقد بدأت الرحلة مع الفودكا منذ الآن، في الطابق الخامس أو السادس.. عند أحدهم.
- وصاحب الشقة.. عزب؟
- زوجته هي مديرة (النادي) المشرفة على سير الحفل. فإذا عنَّ

لبعضهم (التصعلك) والعواء بأغنية كئيبة ما طردته المرأة شر طردة من البيت بيديها وربما بقدميها. امرأة شرسة. لم أشأ ان التقيها ثانية بعد أول وآخر زيارة لهما، هي وزوجها إلى بيتنا.

- ما النفع من اصطبارها على استقبالهم.. وهم من هم؟

- احيانا يلعبون الورق. ولها من الرابح الأول نصف ربحه، ولها أيضا النصف من آخر ربح. ماهي الا روبلات معدودة هو شرطها لا يتغير أو يخفّف. وهي حادة اللسان، سليطته.

اخترنا مطعم صوفيا على جانب من شارع غوركي. ولم أفاجأ ببراعتها وهي ترقص كأية راقصة محترفة. لم نتجرع من النبيذ الا اخفه، ولم تأكل هي الا قليلا.. مكتفية بملاعق من صلطة الخضر وبشيء من الشواء. نزلت من السيارة قبالة المترو حذرةً، قائلة:

- سأمرّ عليك.

فتحت باب الشقة، وتركته مواربا. وسريعا ما دخلت هي في رداء السهرة، واغلقت الباب وراءها. لقد سمعت إغلاق المصعد:

- سأضطجع (سويعة) على فراش الضرات الثلاث.

فضحكت متذكراً مسرحية تشيكوف (الشقيقات الثلاث).

- ما (المضحك)؟

وأخبرتها فضحكت هي الأخرى.

- وهو؟

- نائم (طينة).

وقبل أن تذهب قبّلتني قائلة:

- سأطلب الطلاق قريبا.

- قد تطول (القضية)؟

- ليكن. لم أعد أحتمل جثته.

- أين سنلتقي؟ ستتكاثر التقولات هنا.
- اختي متزوجة. وأمي وحدها في الشقة. وغرفتي مفتوحة لي.
أكتب لي تلفونك الآن. وهاك تلفون أمي. كتبته قبل أن (أتسلل).
بعد يومين وجدت (قصاصتها):
(تركت الشقة. وطلبت الطلاق. سأتلفن)

وقلت لنفسي: كان أفضل لو أنها لم تنفصل عنه. لم يكن بيننا غير خطوتين. وها قد بدأت المتاعب: الطريق والانتظارات. وقد تصر على الانفراد بي أو الزواج السريع ثأرا. لكنها تعرف أنني لا أحبذ الزواج، وناديا تنتظر. وهل هي ترتضي، وهي حرة، تشبثي باللازواج؟ لن تلبث عزباء طويلا بعد طلاقها. سريعا ما ستلقى (الزوج الأبدي) المرتقب. لن يتعذر هذا على مثلها. لا أظن أنها تتقبل مشاركة (الضرتين) طويلا. ولماذا؟ كثر هم المعجبون بها أو من تجتذبهم اليها كما تجذب النار الفراش أو السيرين بحارة المتوسط بغنائها. وكان أول موعد في السابعة. وكان الثاني في شقتها بعد اسبوع. وفي اللقاء الثالث أصرت على أن يكون الموعد ليلة الأحد. فاعتذرت أنا بقوة. وقالت: إنها ستتلفن. ولم تتلفن إلا بعد أسبوع. وألحت على (ليلة الأحد) واعتذرت ايضا. ولم نتفق على لقاء. بل اتفقنا أن تتلفن هي.
لم تكن ليلة الأحد الا لنينا بتروفنا مذ عرفتها. وتتلفن ناديا لي، وتزورني مرة كل أسبوع. أما عند السينما فنلتقي في أية عشية عدا عشية الأحد، عشية نينا بتروفنا. وأوشكت أن أنسى لوسا لولا (معابثاتها) في التلفون، وتزجيه ليلة ما في شقتها بين الأحايين المتباعدة. وكان الشتاء الطويل قد انقضى، وطفقت البراعم تنفتح في اشجار الحدائق والطرقات. وكنت أزور نينا بتروفنا في أي يوم يطيب لها من الأسبوع، قد تجيء أو أعود منفرداً. أحياناً نلتقي عند السينما

أو اطوي الشوارع بها إلى المطعم (ونادیا معنا بالطبع). لم تكن نينا بتروفنا ميالة إلى المطاعم أو المقاهي. تحبذ أن نتعشى في شقتها أو في شقتي ليلة الأحد.
فجأة سألتني ناديا، وكنا خارجين من المخزن القريب (رجتني نينا بتروفنا أن ارافقها فأخفف العبء عنها):
- ماهي انباؤها؟ لم أرها تترقب منذ زمن بعيد.
- انفصلت عن زوجها. وهي الآن عند أمها.
- سحقا لها!
وأضافت ناظرة إلي بقوة:
- لا تقل لي إنها لا تحاول إلقاء شباك الزواج عليك. إنها معاندة.
- لا أدري شيئا عنها.
- لن يعوزها العزم على اصطناع ملاقاة معك.
- لماذا معي؟ الأرصفة ملأى بالمتغزلين.
- كنت الاقرب والمفضّل.
- لم نكن الا جارين.
- ما ان دخلنا شقة نينا بتروفنا حتى أعلنت ناديا النبأ:
- انفصلت الجارة الطروب عن زوجها. ربما هي مطلّقة الآن.
سألتني نينا بتروفنا باسمة بسمتها العذبة:
- أهو انفصال.. فطلاق؟
- تقول الجارة الأخرى إنها ستطلّق قريبا.
- كانت لطيفة معي.
قالت ناديا:
- كانت أكثر (الطفا) معي. اتذكرين لقاءنا معها في المخزن؟ اتسعت عيناها شرا وبغضا لحظة عرفت أنني ابنتك.
- لا اذكر شيئا من هذا.

الربيع في موسكو، مع قصره، فصلي المضجر، الكئيب. بخضربته الهزيلة وامطاره وثلوجه الذائبه حيال المنازل في مواضعها المديدة والنزهات لا تطيب تحت المطر، والرياح لم تزل باردة. لا منجى من البلل والكآبة غير السينما أو المقهى. قد تصحو السماء أحياناً، قليلا ونادرا، عن زرقة رطبة، وسريعا ما تتكاثف السحب منذرة بانهمار امطارها الغزيرة. الأرصفة مبتلّة والأضواء تبدو مبتلة ايضا ومحزونة تحت السماء المدلهمة. غير أن الخضرة تتأهب رغم برودة الربيع.. ضئيلة أول الأمر، وسريعا ما تنشط وتقوى في كل مكان من المدينة مطمئنة إلى ريعانها وتفجرها أخيرا. ولم يبرح المطر الكئيب ينهمر أو ينقطع.. أو يتساقط رذاذا.

قالت نينا بتروفنا، وكنا في الطريق إلى شقتي، بعد سهرة ليلة الأحد عندها، وكان الربيع آخذا بالابتعاد، فالرياح لم تكن باردة تهب من نافذة السيارة المنفتحة على وجهها الناصع البياض ووجهي:

- يقلقني اكتئاب ناديا وشعورها بالتوحد احيانا إنها تتنزه معك بالطبع، وتذهبان إلى السينما والمقهى إلا أنها بحاجة إلى صديق آخر. أنت تدرك ما أعني.

- اقرب سبيل إلى هذا هو أن ابتعد عنها.

- قلت هذا مرارا لي، وابتعدت أنت. لكنها لا تريد أن تبتعد عنك. ربما هو تَعُوّدها عليك أو هو تَرَفّقك بها وتلطّفك.

لا بد من (مصاحب) آخر لها.

- سينكسر قلبي في خسارتي إياك وربما أقوى مما تتصوّر أو يبدو لك الا أنني لا أريد أن اكسر قلبها هي. فانتظر من فضلك ولا تنأ عنها الآن. إنها فتاة طيبة.

- صدقيني أنا حائر اكثر من حيرتك.

- يحلو لي أن (أتصوّرها) زوجتك المرتقبة.

- ها انت عائدة إلى المزاح القديم.
في الشقة، وهي تسرح شعرها الأشقر الثقيل امام المرآة المعلقة على الحائط، احتضنتها متأنيا:
- لنتزوّج يوم الاثنين، وستجد راحة البال.
- لا (تتفكه) رجاء.
- صدقيني أنا جاد جدا.
- أعرف.. يعجبني أن (أتدلّل) عليك أحيانا.

واضافت بعد تفكير:
- شربت ناديا اكثر مما شربنا أنا وأنت. أردت أن ازجرها وعدلت. لا أدري لماذا عدلت؟ ربما لأنني لا أريد إغضابها.
- ينبغي أن (تتعمدي) إغاظتها بين الحين والآخر.

لم أعد أرى لوسا إلا ظلا باهتاً في المصعد.. أو هي خارجة طيفا أو خيالا من بابها كلّما انغلق المصعد وأنا عائد إلى شقتي. ما أغرب طبائع القلب! أولم ازل أحبها وأريدها وهي بعيدة (معرضة) في الشارع أو المترو للنظرات الراغبة، المتوددة، (للحظ أو للعابر الجريء) كما قال أدونيس؟ لماذا افكّر بلوسا ونينا بتروفنا، الأجمل والأشهى، صاعدة معي إلى الشقة؟ أنا لم أعرف ولم أر امرأة أروع جمالا أو أقرب إلي منها. وهي أبهى حسنا وارفع قامة وابدع امتلاء من لوسا. لماذا أتذكّر لوسا وطرقاتها الحذرة أو المرحة، وأنا ونينا بتروفنا صاعدان إلي؟ وهي تتقرّب بكتفها الدافئ، الناعم منّي، وتبتسم لي ابتسامتها الشهية، الممتلئة؟ لا بد من أنني (أجنبي) عاثر الطالع.. في هذه المدينة الهائلة!
ولّى الربيع سريعا، كما قال ديكنز، وتفجّرت العاصمة اخضراراً كما قلت أنا مرة، تحت سماء الصيف الغائمة، الصافية.. أو الممطرة، المتقلبة من حال إلى حال تقلب الغانية اللعوب.

بعد يومين ستسافر نينا بتروفنا إلى الجنوب، للتمتّع باجازتها الصيفية، طيلة شهر، في احد المنتجعات القريبة من شواطئ البحر الأسود. وعند عودتها ستشد الرحال ناديا إلى هناك. ستمكث شهرا أيضا. لابد من أن تبقى احداهما لرعاية الجدة.

أوصلنا، أنا وناديا، نينا بتروفنا إلى المحطة ليلا. كانت معها طبيبة أخرى. وعدنا من هناك، وغيمة أسىً في عينيها، وفي عيني. كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة. الرذاذ يهمي ناعما، وفي الريح برودة خفيفة. اوقفتِ السيارة عند منزلها، وخرجت قائلة:

- غداً مساء أمرّ عليك.. في السابعة.

كنا نلتقي مغربية كل يوم.. انتظرها في شقتي أو عند باب سينما..

أو نسعى إلى مركز المدينة فندخل المقهى أو نتجول. في صباحات الأحد (نرتحل) إلى الضاحية حيث الغابات وبركة السباحة والداجا (المنزل الصيفي الصغير وحديقته المثمرة، المزهرة).. أو نذهب إلى بلاج النهر للسباحة أو للتجذيف. ولا تلفون من لوسا. واضح أنها تتنعم باجازتها الجنوبية. (لماذا لم تتصل؟ ربما اتصلت وأنا خارج الشقة أو التقت فلانا. ومتى منعها هذا عن الاتصال بي؟)

قالت ناديا ونحن في القارب (استأجرناه من المرسى عند شاطئ الملعب الكبير، حيث المقهى الذي أحبه.. مقهى اطلاقة البداية الرياضية، ولا ادري لم استقر في ذهني أنه مقهى صيفي..)

وكان اليوم هو الأحد، وكان صاحياً:
- هل تلفنت لك نينا بتروفنا؟
- مرتين هي ومرتين أنا. غالباً ما يكون الاتصال صعباً..

وصلتني منها ثلاث بطاقات، وتلقت بطاقات مني.
- أنا أجذف ابرع منك. تريد أن ترى؟
- لا يجوز هذا للأنثى ومعها رجل.
- ربما عندكم. أما هنا فلا فرق.

لم أر، مرة، فتاة تجذف. عندنا لا تجذف المرأة القروية حيث الأنهار والأهوار، بل هي تدفع الزورق (المشحوف) بالمردي راكزة إياه في القاع فيتقدم الزورق. مرة رايت قروية حسناء، لم افتأ اتذكر وجهها الأبيض الصبيح، وهي قادمة في القارب دافعة إياه بالمردي.. من قريتها البعيدة إلى قريتنا. والمردي هو بالطبع غير المجذاف.. هو عمود طويل، رفيع من الخشب.

- هل كنت (تدفع) أو تجذف هناك؟
- نادرا.. ربما للنزهة في ليلة مقمرة ما.
- أهناك عربات أو سيارات؟
- لا وجود لها في أريافنا الجنوبية حيث تكثر الجداول والأنهار. ربما تمر السيارة بالقرى المجاورة للمدن والبلدات. القارب هو وسيلة السفر والتنقل عندنا. السفينة للحمولة الثقيلة.
- والخيول؟
- الخيول والاغنام والحمير عند الأعراب المتنقلين طلبا للكلأ. وهم لا يبتنون الأكواخ قرى مستقرة. بل ينصبون الخيام التي تسهل إقامتها وحلها عن اوتادها، ونقلها إلى حيث يريدون.
- والجمال؟
- عند البدو.
- وماذا عندكم من المواشي؟
- البقر.. والجاموس عند سكان الأهوار.

- هل جربت الفلاحة مرة؟
- لم أجربها. لم يجربها احد من أسرتنا. اعمامي هم الفلاحون. وهم يفلحون الأرض لأنفسهم. ليسوا مدقعين كباقي الفلاحين.
- فما عمل والدك؟
- أبي رجل دين. لديه قِطَعٌ مجتزأة من بعض الحقول في هذه القرية أو تلك. يزرعها فلاحون لقاء حصة من الغلة.
- لنعد إلى المرسى. ومن هناك إلى البيت.
- الا تودين الجلوس في المقهى الصيفي؟
- هو لطيف بالطبع. غير أننا جلسنا مرارا فيه.
- لا اعرف مقهى غيره.. عبر الكورنيش.
- لا اعتراض آخر عندي. سنجلس فيه لنغتنم لك ساعة استراحة بعد الجهد (الرياضي) الطويل الذي أضنى ساعديك.
- لم اتعب الا قليلا.
- لا تكابر.
- سأجلس من أجل التمتع بنظرات الاعجاب تترامى نحوك من كل مائدة. فأحس مزهوا بأنني صاحبك المجتبى.
- لا لهو في الأدغال الليلة.
- لماذا؟
- (متوعِّكة).

طلبنا شمبانيا و (مثلجات). ورحت اتذكر فتاة جميلة الوجه، رائعة القوام. دخلت هذا المقهى متعكزة مع ابيها ذي النظارتين. لم تكن عرجاء. كانت مرضوضة الساق كما بدا واضحاً من الضمادة. ارشدتهما النادلة الطيبة إلى مائدتي، وكنت منفرداً بها. بعد التحية والنخب الأول جرى التعارف. من أين أنا؟ وماذا أدرس؟ بدت الفتاة،

مثلما لاح لي ولأبيها، ميالة إلي. وقد أعجبت بها لحظة أبصرت بها داخلة. تركنا أبوها، بعد أن اطمئن إليّ، معتذرا بموعد ما. كان ذاك الصيف أول صيف لي في موسكو. التقينا، بعدئذ، مرارا. كانت جادّة في قصتها معي، جادّة تماماً. فكان لا بدّ من الزواج أو الانفصال. كانت فكرة الاقتران بعيدة عني بعد الثريا عن الثرى. أين أنت يا تمارا؟ كما قال جيخوف في احدى قصصه. ولمست ناديا يدي برفق:

- أين أنت؟

- معك في المقهى.

- بل شارد الذهن.

واضافت رانية إلي رنوا مفتتناً:

- مع حسناء القارب الريفية.. ربما.

كان الهواء طلقا والسماء غير غائمة إلى الآن. ولم يئن أوان المغرب بعد (نهار الصيف طويل في موسكو).. فاقترحت جولة في بارك غوركي، فأبدت ناديا ارتياحا لاقتراحي:

- جدتي تعرف أنني معك. لن تقلق إذا ما تأخّرنا في البارك.

- نتعشى في مطعم شواء صغير هناك.

- ونشم الرائحة عن بعد.

- ونشرب قنينة نبيذ خفيف.

- وسنعتلي الدولاب العالي الدائر.

- ونركب قاربا في البركة.

- مرة اخرى؟

- قد تطيب لك (الملاحة) ثانية.

- ونتفرّج على البط الأبيض العائم في بركته.

- وسنشتري ما يرمى به اليه فيلتقط.

- ونجول طويلا في المماشي المفروشة بالبلاط أو الرمل الأحمر بين

الشجيرات الوارفة، وهي تبدو كالمظلات.

- أو تحت الأشجار العالية، العتيقة.. أشجار الغابة القديمة.

- ونأكل (المثلجات).

- ونحن نتمشى هنا أو هناك.

- فإذا تجمّعت السحب سريعا وأمطرت؟

- سنلوذ بمطعم الشواء.

- فاذا وجدنا الصف طويلا تحت المطر؟

- سأغطيك بمعطفي النايلوني.

- أنت مثلي لا ترتدي معطفك الخفيف.

- إنه في السيارة. وسأحمله معنا إلى البارك.

- كنت مطمئنة إلى السماء الصافية.

- لا تأمني سماء صيف موسكو.

- خدعتني زرقتها العميقة. مع أنّها (متلوّنة).

- لحظة اقتربنا من المطعم، بعد الجولة الطويلة، همى الرذاذ فنشرت عليها معطفي الخفيف، وأسرعنا الخطى إلى الصف الطويل وهي تضحك. وكنت أقول وكأنني أدرى منها:

- ألم أقل لك؟

وقفنا آخر الواقفين. ونشرت ناديا المعطف علينا معاً، وكان الصف يتقدّم ببطء. ثم خرجت جماعة كبيرة من الطاعمين. ودخلنا مع غيرنا. وضعت النادلة الأقداح للماء المعدني والنبيذ. ثم عادت وأوقفت القنينة، وطرحت وعاء السلطة المؤلفة من الخضر الطازجة. بعدئذ جاءت بالشواء. وكان المطر ينهمر (متغضبا) وكأنه نادم على انقطاعه طيلة النهار. وعندما خرجنا كان قد كفّ، ولم يعد غير قطرات كبيرة، متباعدة. وكان الناس يخرجون من البارك أفواجاً.

عادت نينا بتروفنا صباحا. وكنت أنتظرها في المحطة. لم تلوح الشمس الجنوبية وجهها الا تلويحاً خفيفاً يكاد لا يرى. أسرعت تقول وهي تقبلني قبلة حارة، وقد وضعت حقيبتها على الأرض:

- كم أنا مشتاقة إليك!

حملت عنها حقيبتها وخرجنا من المحطة في اتجاه موقف السيارة. من هناك انطلقنا إلى منزلها. قضيت النهار مع الجدة. عادت ناديا في ما بعد. مع أول الليل ركبنا إلى شقتي. ارتدت ثوبا منزليا خفيفا، مائلا إلى الحمرة، ينحسر عن أعلى صدرها وذراعيها، ابتعته من السوق الحرة قبل يومين، مع ثوب مثله لناديا. وكنت أنظر معجباً إلى بياضها الناصع وتكوّر ثدييها وكأنها عذراء. احتضنتها وقبلتها طويلاً.

ليس الآن. أرجوك أنا أكثر تشوقاً منك. أنا (متضوّرة). ليس الآن. ارجوك. طيلة شهر وأنا انتظر. أنا، الليلة، معك حتى الصباح. حتى المغرب. أنا متشوقة اليك اكثر مما تتصور.. اكثر مما خطر ببالك في ايما يوم. يا الهي. كم أحبك! وكم أريدك! كأنني قبيلة نساء!

انتقلت نينا بتروفنا وأمها إلى الداجا وكانت ناديا قد ارتحلت جنوبا. ومن هناك، من الضاحية، كانت نينا بتروفنا تبكر إلى المستشفى.

تتلفن لي ونلتقي. وكل سبت مساء أنتظرها حيال السياج الجانبي من المستشفى، فنذهب إلى الداجا لتمضية الليل هناك، وللتجوّل صباحاً في الغابة أو للسباحة في البركة. وقد ننطلق بعيدا إلى ذلك الجانب النائي من الغابة أو غيره بحثا عن الكمأة. تنظفها نينا بتروفنا، وتُعدُّ منها عشاء طيبا مع النبيذ.. آتي به معي أو ابتاعه من مخزن الضاحية قرب محطة القطار الكهربائي.

أول ليلة، بعد عودتها، لم تشأ أن افتح إحدى الزجاجتين: هديتها لي

من النبيذ الجورجي الأحمر الفاخر:
- احتفظ بهما إلى وقت آخر. سأشرب معك الويسكي.
حملت كلتا القنينتين معي إلى الداجا بعد اسبوعين، وكنت أقول لها:
- هنا في الداجا.. والنافذة مفتوحة لليل وروائح الحديقة والغابة القريبة، ولصيحة القطار الكئيبة، الطويلة، الآخذة بالابتعاد إلى المدينة.. يحلو لي أن أترشّف هذه الخمرة معك.

عادت ناديا قبل انقضاء عطلتها الجنوبية بعشرة أيام. وحين سألناها لماذا؟ لم تتفضل علينا بغير كلمتين:
- كنت ضجرة.
فوجئنا بها وهي تدق جرس الداجا حاملة كيسا.
- أين حقيبتك؟
- تركتها في الشقة.
قلت لها: لمِ لَمْ تتلفني لي فأنتظرك في المحطة؟
- كنت اعلَم انك تستروح الضاحية.. فلماذا تنفيرك من (الوكر)؟
كان الوقت نهار الأحد. بعد أقل من ساعة اقترحت عليّ التنزّه في الغابة، ومن هناك إلى البركة.
- لكنّك تركت حقيبتك في الشقة.
- ما حاجتي إليها؟
- وكسوة السباحة؟
- جئت بها معي في الكيس مع ثوبين آخرين.
وأضافت ناظرة الي بقوّة:
- ماذا تنتظر؟
- قلت إنك تريدين المرور بالبركة؟
- انا مرتدية كسوة سباحتي منذ حين.

- ذرعنا الزقاق إلى الغابة أولا.
- أتذكر لقاءً ضائعاً في لينينغراد؟
- أي لقاء؟
- لقاء الغابة. حال المطر اللعين دون إنجازه.
- بالطبع أذكره.
- كلما قدمنا الضاحية، قبل سفري، انتظرت إيماءة منك إليه. كنت تفضل السباحة.. آخذاً بذراعي بعيدا عن الغابة الآمنة.
- تعلمين أنني كنت أخشى أن يفاجئنا بعضهم.
- لا مفاجأة في الغابة. ما إسراعهم إليها، واختلاؤهم تحت العالي الكثيف من أشجارها الحارسة.. إلا لمطارحة الهوى.
كنت أعرف (مرامها) فقلت:
- غداً صباحاً نحن في شقتي.
- ما بك؟ منذ تلك الرحلة (الخضراء) الخائبة وأنا أنتظر اللقاء الصنوبري. ستصيح الغربان صيحات فرح، وتتساقط علينا أوراق الشجر اليابسة بطاقات تهنئة، ونحن في معطفينا الخفيفين فراشا وغطاء، في مكمن مستتر بين عجائزنا الأشجار. لا طائر يشي بنا، ولا ضفدعة تقترب. السماء صافية، والرياح لاهية.. بالذرى من الغصون العالية. بعدئذ تحلو السباحة في مياه البركة الطاهرة حيث (يغتسل) العشرات ممن سبقونا إلى مضاجع الغاب. وسنشعر هناك بأننا نستحم صباح ليلة الزفاف الحمراء.

أخذت بذراعها، وقد أغريت، إلى حيث يخيّم الشجر والأمن، وتعبق الغابة الموسوسة. وكأنّ الرياح أخذت تهب، فالغصون تصفق، فوقنا ومن حولنا، تصفيقة عرس والعروس جنية الغابة.

كان (بلاج) البركة مزدحما كما قالت ناديا. فرحنا نسبح ونلهو مع

السابحين اللاهين. ستحل ساعة الغداء قريبا. فعدنا إلى الداجا.

هل لمحت طيف أسى وشك في عيني نينا بتروفنا؟ أم انني توهمته توهما؟ كان الماء قد غسل جسدي ونفسي، فأزاح (كل شيء) بعيدا مثلما تزيح الرياح الغمائم الخفيفة عن السماء الصافية. وبعد الغداء كنا في حديقة الداجا نقطف التوت البري أحمره واشهبه مزة لليل. وعينا ناديا بهيجتان.

صحونا مع عصافير الحديقة المزقزقة، المتطافرة. أوصلنا نينا بتروفنا إلى المستشفى. وانثنينا، أنا وناديا، إلى شقتهم: تريد إعادة أشياء وأخذ غيرها. انتظرتها في البهو حتى استحمت وتزينت، وذهبنا إلى المطعم غير البعيد عن المنزل. وشربنا بيرة مع الوجبة.

قبل خروج نينا بتروفنا من المستشفى كنا في انتظارها عند الرصيف الجانبي من الحديقة. اوصلتهما إلى المحطة وانعطفت إلى المركز اتسكع. أوقفني شرطي المرور (المتجهم) طالبا إجازتي. وغرمني غرامة صغيرة منبها إياي ألا أعيد المخالفة. هل كنت أقود أسرع مما ينبغي؟ ربما كنت محاولا تجاوز غيري.

اوقفت السيارة، مثلما اعتدت، عند الرصيف الجانبي من فندق متروبول. سأتمشى في شارع غوركي اولا. سأختار بوفيت فندق ما، ومنه إلى مطعم الفندق. قد (تدلني) النادلة المنتظرة (منحة) سخية مني على مقعد إلى جانب أو قبالة امرأة ما.. طرداً للوحشة. ستفرح بي عالمة أنها (مدعوّة).. وتثرثر. كانت النادلة مخطئة: المرأة تنتظر صاحباً لم يحضر إلّا متأخراً. مع هذا أعطتني تلفونها، قبل حضوره، لأتصل. كانت وسيمة، لطيفة. وهي طيبة مثلما بدت لي. فاحتفظت برقم تلفونها إلى (فرصة) ثانية.

منذ عودة ناديا لم اكن أنام في غرفة نينا بتروفنا في الداجا كلما انتويت النوم هناك. كانوا يفرشون لي في غرفة الجلوس الصغيرة. ما نمت مرة في غرفة نينا بتروفنا منذ طلاق ناديا. كنا ننام في شقتي.

انتهى صيف الداجا بانحسار الصيف عن موسكو وحدائقها وغاباتها، وقد أخذت تذوي وتصفر مع طرقات الضيف الأصفر، هذه المرّة، على أبوابها. هو الخريف. في الطبيعة الروسية يأخذ الخريف لونين: فهو أحمر مرّة، وأصفر مرّة. وهجرت الداجا إلى الشقة، والخريف يسرع الخطى. اتصلت بامرأة المطعم تحيّة منّي للطفها معي. أجابتني فتاة معابثة: إنها مسافرة. أعطني رقم تلفونك أو سأتصل بك (أنا) قبل عودتها. ولماذا التأخير؟ لماذا لا نلتقي اليوم فأخبرك عن عودتها، بعد أن أتصل وأتاكد منها؟ واعتذرت قائلاً إنني سأتلفن فيما بعد. ولم اتلفن. واضعت الرقم. كان على وريقة منفردة.

وتذكرت امرأة مليحة وطيّبة أيضاً.. التقيتها مصادفة وكنا خارجين من بريد الحي، وكنت طالبا. وتجوّلنا في الطرقات القريبة. كان أول الليل رطبا، شتويا (مبكراً). قالت إنها متزوجة فاكتدر وجهي. قالت: أيّها الغيور. أعطتني تلفون دائرتها، ورجتني أن أطلب من مناوبة منزلي أن تسأل عنها هي أولاً. وبعدئذ نتحدّث نحن. حذراً منها مثلما بدا لي. ربما هي تعمل في (مكان) متحفّظ ما. واتصلت بها المناوبة. ثم تحدثت معها أنا. اتفقنا على الساعة السابعة مساء اليوم التالي عند البريد. لا أدري لماذا بدا الموعد لي عند البريد المركزي في شارع غوركي. ولم أجدها. بعد عودتي مكتئباً في الحافلة فكرت وفهمت أن الموعد لم يكن قرب البريد المركزي. إنما كان قريباً من منزلنا الطلابي، عند بريد الحي حيث التقيتها ذلك المساء الرطب.

قالت نينا بتروفنا، وكنا على فراشنا في شقتي، والساعة تقترب من الثانية عشرة من الليل والمطر ينهمر قارعا النافذة المغلقة:

- كنت مرهقة بعد أن خرجت من المستشفى. وغفوت في الحافلة إلى البيت نصف ساعة. كان الطريق مزدحما. غير أنني الآن لا أرى ظلاً من النعاس يقترب أو يبتعد عن اجفاني. صحيح أنني لم اتناول غير ثلاثة كؤوس، وهي لا (ترهقني).. إلا أنني مرهقة ويقظى أيضا.. أحس بي كالمتأرجحة الحائرة.

- أتودين أن نعود إلى المائدة؟ غداً الأحد.
- جيء بكأس واحدة إلى هنا من فضلك. لك ولي.
وعدت بالكاس الملأى. وضعتها على طاولة السرير قائلا:
- طيب. سنتحدّث.
- حدثني.
- يولد الانسان ويشقى ويموت.
- دعنا من الفلسفة التشاؤمية رجاء.
- هي حكمة هندية قديمة كما أتذكّر.
- حدثني عنك.. أي شيء عنك.
- لا شيء يسرّك مما أقول عني.
- لا تقل كل شيء. قل أي شيء عن طفولتك.. عن صباك.
- كنت أذهب صباحا مرتجفا بردا، في ثوبي الهزيل، إلى مدرسة القرية الابتدائية. كتبي ممزقة، ودفاتري ملأى بالرسوم الساذجة: محاولاتي الفنية الخائبة. ويوقفني المعلم أمام تلاميذ الصف كأول تلميذ فاشل، كسول. ويوقفني المدير أمام التلامذة كلهم، تلامذة الصفوف الستة،.. ساعة اصطفافهم في ساحة المدرسة، قبيل الدرس الأول.. مشيرا إلي، إلى التلميذ المهمل، الخائب الأول في المدرسة. لم يضربني المعلم أو

المدير. انما اكتفيا (بعرضي) أمام التلاميذ المصطفين، ساعة تحية العلم، أو ساعة ابتداء الدروس الاعتيادية.. مثلا مجسدا للكسل والغباء. لم أكن غبيا.

كنت مغرما بالرسوم التخطيطية على دفاتري بدلا من كتابة الواجب المدرسي، بعد هذا (العرض الاستهزائي).. وكنت بلا كتب أو دفاتر في الصف.. كتب معلم الحساب مسألة رياضية على السبورة طالبا حلها في الدفاتر. لا دفتر معي. حللت المسألة بقلم زميلي على المنضدة. لا قلم معي. ورفعت يدي قائلا إنني حللتها. استغرب المعلم، واستغرب التلاميذ. اقترب المعلم من المنضدة وقرا الحل الصحيح المكتوب. فدعاني إلى السبورة لاكتبه. فأعدت كتابته صحيحا. فامتدحني المعلم ناسيا العرض التوبيخي.

- قلت مرة لي إنك كنت مولعاً، في صغرك، بالحكايات الشيقة في (القراءة) الابتدائية أو في الكتب الصغيرة، المستلة من ألف ليلة أو غيرها قبل أن تجد الطريق إلى واجهات أسواق الكتب.

كانت أول تجربة لي (أعني قراءة الكتب غير المدرسية) قراءة كراسة مستلة من الف ليلة وليلة، اهدتها لي إحدى خالاتي.. هي حكاية مريم الزنارية. اختليت بها عصرا وراء كوخنا.. ولم اتركها، وقد غربت الشمس، الا بعد أن انتهيت منها. منذ تلك القراءة الأولى.. (لنقل بعد أن امتلكت كراسة اخرى أو كتابا آخر) وأنا لا أرى صاحبا أو جليسا أقرب إلي أو أعز علي من الكتاب. منذ أول أيامي في المدرسة الثانوية (الصف الأول المتوسط) اكتشفت مكتبة المدينة العامة. كانت قريبة من الثانوية.. كلتاهما تقعان على الشاطئ الشرقي من نهر دجلة. كنت في (القسم الداخلي) أي المنزل السكني المخصص للطلبة القادمين من القرى والبلدات الصغيرة إلى المدينة. كل يوم تقريبا، بعد الجرس

الأخير، كنت أسرع إلى المكتبة العامة. واقرأ واكتشف. ومع أول الليل كنت اعود، في بدلتي الهزيلة، نحيلا، جائعا، وفي رأسي تدور خيالات الروايات والقصص: ديكنز، اندرسن، توفيق الحكيم، جبران، هوغو وغيرهم. وفُصِلت من الثانوية بعد (تزعّمي) تظاهرة طلابية ثورية. كان الطلبة (السياسيون) الأكبر عمرا في (مواقف) الشرطة.. في الحبس. لم يبق من أحد يقود التظاهرة غيري وغير طالب كردي منفي من السليمانية إلى العمارة: إلى مدينتي. كان ابن اخت وزير الداخلية آنذاك. نفي إلى العمارة لأن أخته كانت زوجة موظف الري في المدينة. وهو كردي ايضا. حققوا معنا، وأوقفونا أسبوعاً في مركز الشرطة. ومنه نقلونا إلى سجن العاديين (غير السياسيين).

قد يذكِّرك هذا بشيء من القصص الروسية (رواية الأم مثلا) أو بمايكوفسكي عندما حُبس وهو فتى صغير مشتعل حماسا.. أثناء التوقيف فصلنا من الثانوية. وعدت إلى القرية ممتلئ الرأس بالأفكار الوطنية. وأخذت (أنظم) الفلاحين في قريتنا والقرى المجاورة.. انتهى (الفصل من الثانوية) وعدت اليها آخذاً حذري من عيون المخبرين، آملاً أن اجتاز اختبارات الثالث المتوسط فانتقل إلى الرابع الثانوي (الاعدادي). ونجحت. وعدت إلى القرية لأقضي العطلة الصيفية. في إحدى صبائح تموز، مع شروق الشمس، كنت اصغي إلى راديو أخي المعلم.. فإذا بي اسمع بيانات ثورة الرابع عشر من تموز.. بعدها بأشهر معدودة بدأ العنف الدموي الذي لم ينته إلى اليوم بين القوى النيرة والقوى الظلامية.

قبلتني نينا بتروفنا نائمة العينين:

- يا صديقي.. لا تعد إلى هناك.

من يصدّق أنني ارتضيت بعد يومين، أن التقي لوسا؟ بعد انفصالها عن زوجها كنت أراها، احيانا، ظلا أو خيال ظل، عند باب شقتها، كلما رددت باب المصعد عائدا إلى شقتي. ومع مرور الأيام توارى الخيال أو تلاشى. كنت، قبل الرابعة، أتصفّح ما أنجزت من ترجمة. وسمعت التلفون يرن. ربما هي ناديا. هكذا قلت لنفسي. وفوجئت بصوت لوسا المرح متذكرا قول ناديا: الجارة المرحة.

- مساء الخير. أين أنت؟ كم من شتاء مر، كم من صيف! لا تلفون لا بطاقة معايدة أو تحية. اهكذا يتخلى الأحبة عن الأحبة؟ انت تعرف رقم تلفوني، وتعرف أين أعيش فَلِمَ الجفاء؟ ولمّ الصدود؟ لم أكن أتوقّع هذا منك. حقا لم اكن أتوقّع. تلفوني عندك أَمَ أنك اضعته؟
- وتلفوني عندك.
- لا أريد إطالة المعاتبة (وضحكت) أنت معذور وأنا معذورة. ما رأيك أن نلتقي اليوم.. في السادسة أو السابعة، في شقتنا أو عند اقرب مترو؟ لا أريد مطعماً أو مقهى. غرفتي هي المطعم. ولا تتعب نفسك بالوقوف في الصفوف الطويلة إلى أمينات صناديق المخازن. سأشتري كل شيء. قل لي فقط متى أنت طارق باب الشقة.
- لا تبتاعي أي شيء. سآتي معي، من الثلاجة، بما يعجبك ويرضيك. وسأقرع الجرس قرعاً هادئاً بالطبع.. في السابعة.
مع أوّل نخب رفعته في صحتي أرتني خاتم الخطبة:
- أنا مخطوبة.
- وأنا أهنئك.. وأتمنى لك زواجاً موفّقاً.
- هو طبيب.. كصاحبتنا الدكتورة المتفوِّقة.
- أهنئك مرّة أخرى.
- لا تقل لي إنك لم تبرح حائراً بين الكبرى والصغرى.

- أنا حائر بنفسي الحائرة.
- لتقر عيناك.. الليل طويل، وأنا في أجازة غدا.
- أفي خفارة هو؟
- من هو؟
- النطاسي الوردي الطالع.
- لن يطرق بابي إلا بعد تلفون وتلفون. نحن لم نتزوّج بعد. وقد لا نتزوّج. كلّ شيء مؤجّل إلى ساعة اقتناعي به، ويقيني من أنه المرتجى.
- وما الخطبة الا مرحلة اختبار.
- لا أريد أن اتورط مرة أخرى.
- طالما تراءى طيفك لي عند بابكم كلّما فتحت المصعد عائداً.
- لا عتاب لي عليك. كنت أعز وأكرم صاحب لي.
- لن تجدي لديّ، في أيما يوم، إلا ما كنت تجدين من المودة والاعزاز.
- اعرف. لن تتخلى عنّي يوماً. انما قل لي قبل أن أنسى.
- ماذا تريدين أن تقولي؟
- ألم تتزوج، بعد، صغيرتنا العزيزة؟
- لم (تخطب) بعد.
- ومتى تتزوّج انت الدكتورة؟
- لم تزل تعتذر وتعتذر.
- لن يطول اعتذارها.
وسمعنا صوت امرأة تطرق الباب وتقول لها (بعد أن دق التلفون)
- تلفون لك.
وعادت لوسا قائلة كالجادة المازحة:
- إنه خطيبي.
وكنت أقول لنفسي: ماذا تريد لوسا مني؟ أهي جادة في الزواج؟ أهو (الزوج الأبدي) كما يقول دوستويفسكي؟ أكان الكاتب يتحدث عن

تجربته في زواجه الأول الخائب؟ لم تقل لي ماذا أراد في التلفون وما قالت له. أأقول لها فجاة: ليلة هادئة. وانصرف؟ إنها لطيفة وطيبة معي. ولا تكن لي إلا المودة المحض. فاذا بها تقول فجأة:

- خذني إلى شقتك.

- أتخشين زيارة ثقيلة؟

- من يجرؤ على زيارتي بلا إذن منّي غيرك؟ مع أنك لم تركب إلى هذا المركب مرة. لا أريد الا أن أرى شقتك، وأفتح ثلاجتيك، وأتقلّب على فراشك.. وأرتدي بيجامتك صباحا.

- لنذهب. ولتقل الجارة ما تريد أن تقول.

- فاذا التقينا (الجثة) مصادفة.. فدعه لي.

- لا أريد أن تضربيه.. مثلا.

وضحكنا معا.

- كلا. لن أضربه أو أركله. (سأتصدّق) عليه بعشرة روبلات. كلا. بخمسة روبلات فقط. وسينحني لي كما ينحني الشحاذون. ونضحك طويلا.

خرجنا إلى الشارع فاحسست بالتخفف. كان باب الغرفة المغلق ضائقا بي وكأنني ضيف ثقيل. وابتهجت لوسا بالركوب معي، ودخول الشقة وتنقّلها الضاحك من المخدع إلى المطبخ فالى البهو، وبإعداد المائدة معي وهي تختار من الثلاجتين ما تختار. وانتزعت فستانها غير مبقية على جسدها الفائق الفتنة الا القميص الخفيف وحده.. بلا أي ستر آخر على صدرها أو على أي موضع آخر منها، وهي تتهادى ذاهبة إلى المطبخ آتية منه، متغنية خفيضة الصوت مالئة الكأسين:

الليلة تعود الساحرات من الغابة

تعود الساحرات الشمطاوات

عبر السهول المغطاة بالثلوج
يعدن من الغابة، يعدن من الغابة
بأقنعة من الثلج والسخام
الساحرات الشمطاوات، الفضليات
- أأنت في أجازة غدا؟
ضحكت قائلة:
- ولماذا اكذب عليك؟
- في أي مطعم تريدين أن نتغدى غداً؟
- لن أخرج من هنا الا عصرا.
- فاين نتعشى؟
- في أي مطعم نراه من نافذة السيارة.
- مارأيك أن نعرج، قبل المطعم، على السوق الحرة؟
- ماذا نفعل هناك؟
- سأهديك أجمل بدلة تعجبك هناك.
- لم يخطر ببالي، لحظة، شيء من هذا.
- أعرف.
- ما أعزك صديقا!
- لم تقولي إلى أين عادت الساحرات؟
- لم تقل الأغنية إلى أين.
- فالى أين.. مثلما تتخيلين؟
- إلى قصرهن المشتعل بالأضواء على البحيرة المتجلّدة.
قبل أن افتح الباب مساء لنخرج رن التلفون رنيناً مفاجئا. أسرعت لوسا إلى المطبخ. لا تريد أن تسمع شيئا. وبعد أن أعدت السماعة عادت قائلة لي، وفي صوتها (بحة) الصدق والمودة:
- اذا كانت هي الدكتورة تريد رؤيتك فاذهب إليها من فضلك. وأنا

سأعود إلى بيتي. ليس المترو بعيداً.
- هي ناديا تتحدث عن فيلم تريد مشاهدته غداً.
- الصبية الماكرة.
- آن أن نسرع إلى البريوزكا.
- الربيبة!

أحب التمشي بين أشجار البولفار الخريفية، وقد أصباني أن نينا بتروفنا آتية إلي. لم تلح طلعتها البهية بعد. كنتت انتظرها. إنه نهار الأحد. هنا أو هناك، على المصاطب، تجلس العاشقات الصغيرات مع عشاقهن من فتية العمارات القريبة. اوراق الشجر الصفر، في مهب من الرياح الخفيفة، تترامى على الأرض أو على الاكتاف متباطئة مثلما تبدو لي. تحييني هذه العابرة أو تلك من معارفي. لا أريد أن اتخذ من إحدى المصاطب الخالية متكأ لانتظاري. انها تفضل السير معي في ممشى البولفار المتسع. انتهيت من الممشى فلم اقطعه ثانية. أبصرت بها آتية، حاملة مظلّتها، وهي تتأوّد تأوّداً يجتذب الأبصار، في معطفها الخريفي، ناصعة الوجه باسمة لي. وفي ناظريها الجميلين ابتهاج بي:

- مرحبا. أجل. جئت متأخرة.
- تعرفين أنني سأبقى منتظراً طيلة النهار.
- كلا. ما أوحش التنزّه والمرء منفرد بنفسه!
- لم أكن منفرداً. كنت أفكّر بك.
- سنذرع الممر اكثر من اربع مرات. ليس طويلا.
- وبعدئذ؟
- إلى أي مكان تريد.
- بل إلى أي مكان تريدين أنت.
- أنت أدرى مني بالأمكنة.

- ماهذا؟ إنها مدينتك.
- ومدينتك أيضا.. بعد هذه السنين كلها.
- أعرف مقهى هادئا، في مركز المدينة، قريبا من سينما متروبول، مجاورا لها تقريبا. هو أول مقهى لي في موسكو.
- ألم تر ما آل اليه؟
- هل هدموه مثلا؟
- كلا. حولوه إلى (معرض) للخضر والفاكهة.
- لم ادخله منذ زمن بعيد.
- أنا لم ادخله مرة.
- كيف عرفت بمنقلبه؟
- مرة، كنت مارة هناك.
- خاب مسعاي (منقبا) عن آثاري!
- في شارع غوركي اكثر من مكتبة (لبيع الكتب) ثرية بالآلاف من المجلدات. احداها خاصة ببيع الكتب المستعملة وشرائها. قد نجد هناك كتابا يهمنا، لم نزل نبحث عنه. أو قد (نكتشف) فجاة كتابا نادرا.

ابتعت هناك كتابين ضخمين: مجلدا طبيا وأعمال بايرون الأدبية في مجلد واحد، تتصدره صورة اللورد الفتى (معمَّماً) وفي الزي التركي (مترجما إلى الروسية).. انحدرنا مع الناس متمهلين. اجتزنا رصيف تريفسكوي قبالة تمثال بوشكين وساحته، ورصيف ساحة مايكوفسكي. كنا نقترب من مقهى الشباب. لم أقترح دخوله فهو مزدحم ضاج في هذه الساعة الغروبية. وانثنينا عائدين.

- ما تقولين باختيار احد المطاعم؟
- افضلها ليلة الأحد.
- لن نتأخر. نحن في أول الليل.

- لماذا ليس في شقتك؟ صحيح أننا كنا البارحة هناك.. إنما هي أهدأ وأحب إلى نفسي. في طريقنا إلى السيارة سنمرّ بمخزن المأكولات الكبير تحت فندق موسكو، ونختار بغيتنا. ولن نشتري من فضلك الا الخفيف من النبيذ (الابيض). غدا أصحو مبكرة كالطير إلى عملي.

- وسأقود من غير إسراع.. طائعا أوامرك.
- بل طبقا لتعلميات المرور.
كان الجو بادرا، والنوافذ مضاءة كلّها تقريباً، ونحن نتطلع إلى نوافذي الثلاث المظلمة، لقد أطفأتها قبل أن أخرج. نينا بتروفنا في المطبخ، وهي دائبة في إعداد ما يرجى إعداده غير عابئة بالنبأ:
- مساء أمس، قبل أن أزورك، قالت ناديا إنها رأت لوسا متّجهة إلى منزلكم. ولم تبادر أية منهما بتحية الأخرى مثلما أخبرتني.
- مذ رأتها، مرة، معك وهي لا تحبها.
- أجل. لا تحبها.
- بل تبغضها زاعمة أنّها (متصيّدة).
- لا تستأهل لوسا هذا النعت.
- إن لها، بالطبع، صواحب في المنزل.

أوشكت أن أقول إنّها مخطوبة، وسريعاً ما تذكرت أن من المفترض أنني لا أعرف الآن أي شيء عنها. لقد رأت ناديا مساء أمس نينا بتروفنا وهي تتأهّب لزيارتي، فليس من المتوقّع أن تجيء لوسا. زائرة في الوقت نفسه. وليس من المنتظر أن تزورني لوسا قبل أي اتفاق بيننا. كانت الشقة مزدانة بقوام نينا بتروفنا ووجهها. والمائدة ترحب بها ترحيبا. القنينة منفتحة، والكاسان مترعتان.
- ألم تعد إلى زوجها؟
قالت نينا بتروفنا هذا في غير ما اهتمام.

- اخبرتني جارتي الأخرى أن زوج لوسا أنبأها بطلاقهما.
- سريعاً ما تحظى بزوجٍ آخر.

لم أرَ ناديا منذ ثلاثة أيام. ولم أخرج من بيتي الا إلى المطعم والمخزن غير البعيدين. كان النهار كئيبا، مثقلا بالغيوم، ممطرا بين الحين والآخر. الأشجار تتعرى عبر زجاج النافذة. والمارة يتسارعون ملتفين بمعاطفهم اتقاء المطر والبرد. وكان المساء ممطرا أيضا، ينطبق رماديا بكآبته على المدينة الهائلة. الأضواء تتلامع، والأرصفة والطرقات مبتلة.. وتبدو كالمقفرة. كنت انتظر ناديا، ولاصوت يسمع للمصعد. وقد هبط الليل، والساعة الصفراء تتك متسارعة على الحائط. كنت يائسا تقريبا من مجيء ناديا. ربما منعتها الأمطار. لكن لم لم تتلفن؟ كان المطر ينهمر قارعا النافذة. لم لا اتلفن لها فانتظرها قرب مدخلهم؟ سمعت المصعد وهو يغلق. ربما هي ناديا. ربما هي ناديا. فتحت الباب قبل أن تطرقه وأخذتها بين ذراعي ضاما، مقبلا. قالت ضاحكة الوجه:
- ها قد ابتللت بابتلال معطفي.
علقت معطفها وهو يقطر. وقبل أن تجلس قالت:
- لا تقل لي إنك لا تعلم شيئا عن المطلقة المرحة.
- جارتي هي التي انبأتني بطلاقها.
- ومتى تزف العروس المبجلة؟
- هل بعثت هي لك بدعوة؟
- أنا اتوقع لا غير.
- لم تقل الجارة أي شيء غير أنها مطلقة.
- رايتها مساء أمس قاصدة منزلكم فاعرضت عنها.
- إن لها صواحب هنا.
- ألم تطرق الباب (مقترضة) مالا؟

- كانت نينا بتروفنا هنا، ولم نسمع طرقة أو دقة جرس. لماذا لم تتلفني فانتظرك عند المدخل؟ إنه مطر غزير.

- كان الطريق مزدحما، فلم اذهب إلى المنزل فأتاخر اكثر عنك.

- قبل أن اسمع المصعد بثوان كنت أفكر بالاتصال بك وانتظارك قرب مدخلكم. فاذا المصعد بغلق مبشراً برؤيتك مبتلّة، مقرورة، مختلطة الزينة، منتهكة الأصباغ، مبعثرة الخصلات.

اوقفتني عن مزاحي قائلة:

- لا شيء من هذا. أنا لا آخذ الا أخفها. ولا أطلي وجهي، كما تعلم بالأصباغ الفاقعة. فلا (تسخر) من فضلك.

- واضح أن المطر قد غسلها تماماً.

- مثلما غسل آثار شفاهها القانية عن وجهك.

- إن وجهي نقي من حمرة القبل المشبوهة نقاء وجه الناسك. العابد، المنعزل في البرية، تحت ظل نخلة، مكتفياً من الزاد بجذور الفجل البري، ومن الماء بما ينثه السعف من قطرات الندى.

- إن انكسار ظهرك انحناء على الكتب المقدّسة، واصفرار جلدك ظمأ من طول صيامك وقنوتك يثيران شفقتي.

- أهذا كله جراء لمحة شك باطلة؟

- وسخاؤك الطيب الذكر عليها؟

- ما لنا نتعارك من أجل ظل جارة؟

- لا أريد أن اسمع عنها كلمة بعد اليوم.

- لن تسمعي. أي شراب يلذ لك؟

- أنا ذاهبة إلى المطبخ، ودع عنك كل شيء.

- لم تقولي أي شراب يروقك؟

- سأرى وأقول.

وقرع الجرس. قالت ناديا.

- ترى من؟
- لا أدري.
- لا تفتح قبل أن تسأل.
هي الجارة الأخرى.
- ارجو المعذرة. انتهى ثقابي، والمطر ينصب انصبابا.
- سآتيك بعلبة.
تركت الباب منفتحا، فقد تود ناديا اختلاس نظرة.
- تريد جارتنا ثقابا.

أخذت علبة عائدا إلى الباب المفتوح. لا ادري هل نظرت ناديا إلى الباب أم لم تنظر. أغلقت الباب ورائي وعدت إلى المطبخ معابثا ناديا بقبلة هنا أو قرصة صغيرة هناك. لم تسأل ناديا عن الطارقة، ولم تقل شيئا غير أن تضحك وأنا ألاعبها وأمازحها.
وصفا (الجو) وراق ونحن نترشف الخمرة الجنوبية ترشفا. ولم ينقطع المطر لحظة. أزحت الستائر عن النافذة المنغلقة، وقد رغبت ناديا أن تطل على الحديقة المبتلة، المضاءة بمصابيحها الصفر، وهي تلوح كالمبتلة ايضا. لا أحد في الحديقة. لا أحد في الدرب.

كل شيء وراء النافذة موحش وكئيب، ولا شيء يسمع غير المطر.
قالت ناديا وأنا أعينها في ارتداء معطفها:
- تدثر بهذا المعطف فهو أدفأ.
ومسحت وجهها باعتناء امام المرآة. وقلت (ممازحاً) ناهديها وأنا خلفها، ضاما إياها إليّ بلطف، مقبلاً شعرها:
- ها هما قبرتا الشاعر طرفة. تذكرين قصتي عنه؟
- أهو الفتى القتيل؟ حدثتني مرة عنه.
- هناك رواية أخرى عن مقتله.

- ما هي؟

كان يوماً جالسا في أحد محافل الملك النعمان. وكانت ابنة الملك حاضرة.. ابنته الحسناء كما يقول الرواة. كانت تنظر إلى الشاعر الفتى (يبدو أنه كان جذابا) نظرات عاشقة. فقال عنها متغزلا في مجلس من مجالس الفتيان:

ألا يا ثاني الظبي الذي يبرق شدقاه
ولولا الملك الجالس قد ألقمني فاه

ووصل البيتان إلى الملك فحقد عليه. وبعث به إلى الوالي مع الرسالة القاتلة.

- يبدو لي أنها الرواية الأصح. يا للفتى العاثر الطالع!

أوصلتها حتى اعتاب منزلها وعدت. ستقول لهما، بالطبع، إننا كنا في المطعم. ولم تعد لوسا في تصورها إلا ظل جارة كما قلت لها. وجدت الشقة كالمهجورة بعدها. علّقت معطفي ونزعت أثوابي عني. ارتديت بيجامة دافئة واخترت رواية (الصخب والعنف) وأويت إلى فراشي. كان ضوء الطاولة الصغيرة عند السرير قويا فأبعدته قليلا عن عيني. كنت أقرأ الصفحة تلو الصفحة غافلا عن المطر، صحوت في الثامنة. حلقت واستحممت. أفطرت ببيضتين غير مسلوقتين تماما وقدح شاي. و(طفقت) اترجم. هي رواية من (القصصي الروتيني) تصطنع من الانجازات الصناعية ملهما لها. وما علي؟ أنا أترجم وأنا أعمل كأي (مستأجر) آخر في العالم المستفرغ. قد أدخن وأطيل النظر إلى النافذة العارية إلى أين؟ لم أركب السيارة كما كانت تتضاحك ناديا (أو لوسا؟) بل اردت أن اتخذ المترو منطلقا لي. وعدلت عنه. السماء متجهِّمة. أنا أحب عبوسها هذا. وهي توشك أن تمطر والريح باردة. فإلى أين؟ وأنا وحيد وحدة النجمة الباردة المقفرة الآخذة

بالغيوب في آخر الأفق. ولماذا التعكر؟ انت لا تحب إلاها.. إلا نينا بتروفتا أيها الدون الجواني الشقي. لماذا اللقاء بناديا أو غير ناديا؟ أهو مرض؟ مرض فينوسي؟ أهي الرغبة بتعدد الزوجات؟ فاذا انعطفنا إلى الجانب الآخر من (القضية) فهي عندهن الرغبة بتعدد الأزواج. مدرسة الأزواج؟ مدرسة الزوجات؟ موليير؟ اندريه جيد؟ تقول ناديا عند السينما القريبة، ناظرة الي، مدققة كمن يضع خيطا في الابرة، والناس ينتظرون أو يدخلون:

ـ لماذا ألا تراني وأنا أتكلم معك؟

ـ تريدين ان تقولي: لماذا لا تنظر إليّ؟

ـ قلت: لا تراني.

ـ انا أراك بعيني قلبي

ـ ايها المتحذلق! أنا هنا مبتلاة بك.

ـ الا تريدين مشاهدة الفيلم؟ لماذا لا تريدين الدخول؟

ـ أتعرف معنى أن تحب امرأة رجلا؟

ـ أعرف.

ـ لا تعرف. مثل من تريد أن تضربه بحجرٍ كبيرٍ.

ـ ها قد أخذت تمطر. لماذا لا ندخل؟

ـ أحب أن أعد لك الشاي ونشرب. حبذا الشاي الحار والمطر يطرق النافذة كما يطرق الضيف الباب.. أو الضيفة كما تريد أن تقول أنت.. كما تطرق الجارة الباب. الا تريد؟ لماذا تقف متحيرا تحيُّر من تفرقت به السبل؟ لنذهب اليك. لنذهب. لحظة دخلنا الشقة قالت ناديا:

ـ ما أدفأ العودة إلى هنا!

وفي المطبخ وهي تصب الشاي، قالت كالمازحة:

ـ تقول جدتي: أنا حائرة بينكما وبينه! لماذا لا يتزوج إحدى المرأتين فتستقر الرياح؟ يخيل لي أنه حائر بينكما حيرتي أنا. وتقول نينا

بتروفنا: إنه في مثل عمر ابني. حرضي ناديا لتتزوجه. وأفر انا من المطبخ ضاحكة، قائلة: ليأخذه الشيطان.

ـ روسيا انتم لا تقولون: شيطان يأخذك. كما يترجم عنكم العالم أجمع بل تقولون حرفيا: شيطان خذ أنت. أو شيطان خذك.

ـ فترجمها أنت كما تقولها.

ـ سأتّهم بالخراقة اللغوية.

بعدئذ كانت مرتدية بلوزا خفيفا لي لا ترتدي غيره، بلوزا أزرق ضائقا بامتلاء صدرها وذراعيها. قلت معجباً:

ـ ما أجملك فيه! وما أجمله عليك!

ـ لم يبق إلا أن أتجوّل معك في الشوارع والحدائق، تحت أنظار النساء والرجال، ولدا من ولدان الجنة.

ـ أين قرأت أو سمعت هذا؟

ـ ألم تنادني أنت هكذا، وقد رأيتني، مرة، في بيجامة لك لم أجد ثوبا لي غير ما في البهو؟

قلت متذكراً:

ـ كانت كارولين، إحدى صواحب الشاعر بايرون وفي حفلات أثرياء لندن ترتدي (متنكّرة) زي فتى تركي معمَّم.

كنت أنظر أسفاً إلى تعرّي الشجر من صفرته. أحب السماء الغائمة ولا أضيق ذرعا برذاذها بل أحبه أحياناً في الطرقات سائراً إلى وكر حب. أنسُ إلى أطراف المدينة القريبة من الضاحية والغابة.. إلى هدوئها وانفساحها وكثرة الشجر هنا وهناك. لا أبغض مركز المدينة المزدحم، بل يشوقني أحياناً فأتمشى فيه. لا أحب المقاهي والمطاعم إلا مصطحبا صديقة اليها ولا يسرّني اكتظاظ المخازن، بل أنفر منه ومن تماس أكتافه وأتحاشاه في محطات المترو الدافئة شتاء يطيب لي انتظار الفتاة

الجميلة على مصطبة ما، وهي تقترب فرحة بي. أهوى الترام ودندنته أكثر مما اهوى الحافلة أو الباص.. ربما لعتاقته أو تذكيره اياي باوائل القرن. مع ناديا في مركز المدينة، أتجول أكثر مما اتجول مع نينا بتروفنا. وفي البولفار الهادئ المديد، ظهائر الآحاد الخريفية، الغائمة، أتنزه مع نينا بتروفنا اكثر من تنزهي مع ناديا. وثلوج الشتاء أحب الي من أمطار الربيع أو الخريف. أمطار الصيف. بهيجة لي عبر زجاج النافذة. أحب صفرة اوراق الشجر اكثر مما أحب خضرتها. والليل أقرب إلى نفسي، واكثر من النهار. الخريف فصلي الأثير (كأنني بوشكين) أحمر كان أو أصفر.. أو ذهبيا كما يقول باسترناك.. وحبذا الطرقات والبولفارات الخالية ليلا. ولا اتذكر ليلة مقمرة لي في موسكو.. فما أنا في قريتي أو في قرية روسية البحيرات الفسيحة الساكنة أعز علي من البحار والخلجان. أحب الطبيعة الروسية. بتحولها السريع (أو المفاجئ) من الخضرة إلى الصفرة فالى البياض الطويل. أحب الاشجار كلها، النخيل والبتولا أولا. قالت نينا بتروفنا، وقد أدركنا أول ثلج متهافتا خفيفا، ونحن في الممشى بين الأشجار العتيقة، العالية، والليل لم يقدم بعد:

ـ هو ذا الشتاء يهبط. تقول أمي لناديا ملاطفة: فررت من زوجك، وتريدين أن تخطفي زوج أخرى!. فكنت أرد عليها لائمة كالضاحكة:
- دعي الصبية تمرح. فتلوذ ناديا بالتلفزيون أو بمجلة مصورة كأنها لم تسمع ولا تنظر ناحيتي.
ـ تعودت ناديا مني المصاحبة والترفق.
ـ أحيانا نقول لها أمي غير مؤنبة: تزوجيه فتضحك ناديا وتقول لها مؤمئة ألي: إنه متزوج. وانت تعرفين ممن.
ـ لا حل إلا زواجنا.

وتقول نينا بتروفتا كالجادة المازحة:

ـ تزوج ناديا مادمت تائقا إلى الزواج. وسأزفها بيدي من المكتب المأمول إلى المضجع المزدان المتوهج.

ـ لا مزاح في هذا.

وقبل أن نعدو آخر مصطبة قلت:

ـ ما رأيك بالعشاء معي.. في المطعم أو الشقة؟

ـ ليست هي ليلة أحدٍ.

- سمحوا لي بمغادرة المستشفى قبل انقضاء العمل بساعتين. كنت متعبة ومسرورة بعد عملية صعبة وموفقة.

ـ أهنّئك وأهنّئ المريض. ليست ليلة الأحد هي الوحيدة المرتقبة

- سأصحو مبكرة فأضايقك.

ـ سأوصلك حتى باب المستشفى.

ـ لا حيلة لي معك

ـ بل أنت حصيفة وعالمة.

أمسكت بذراعي مبتهجة:

ـ قل (متعالمة.

وفي الشقة، وأنا أعينها في انتزاع معطفها الشتوي الجميل، قالت:

ـ لن أشرب غير قدحين صغيرين من أية خمرة خفيفة. فتذكر من فضلك.

ـ وأنا أيضاً.

ـ لا (أصدّق). ستشرب الزجاجة كلّها رغم اعتراضاتي وتوسّلي. فأنا الطبيبة الصديقة.. مثلما (تتذكر) أحياناً.

ـ سأختار أخفّ نبيذ عندي. ثقي بي.

ـ لم أثق بأحد أكثر من ثقتي بك.

ـ فاجلسي يا جراحة منهكة. سآتي بكل شيء.

ـ بل دعني أعد كل شيء رجاء.. أنا أدرى منك.
ـ التدفئة في المنازل جيدة منذ الآن.
ـ تهيؤاً للصقيع المبكر.
ـ ليتك تعلمين كم أنا متشوّق إلى التنزه معك ليلا أو نهارا حيال الثلوج المتراكمة في امكنتها قرب المنازل أو تحت الأشجار المثقلة بها. يا الهي، كما تقولون انتم، ما أبدع الشتاء الروسي وأحبه!
ـ هو شتاؤك ايضا منذ أول عام لك هنا كما قلت مرة لي.
ـ أذكر هذه (المرة) جيدا.
ـ فأين كنا؟ وفي أي وقت؟
ـ كنا عائدين إلى هذه الشقة سيراً على اقدامنا ليلا.. بعد جولة لنا في البولفار المجاور.. تحت أول ثلج أيضا.
وأضفت معابثا:
ـ وربما تحت آخر ثلج.
ـ سواء لدي.
ـ تلفني للأم. إنها لا تعلم أنك بائتة هنا فقد تقلق.
ـ لا ضرورة. إنها تدري أنني معك.
وأضافت كالمستغربة:
ـ انت لا تتفرج على التلفزيون.
ـ لا أريد الا التطلع إلى جمال وجهك الصبيح، والتفاف قوامك الرائع. ان لك قواما يذكرني بتمثال افروديت الباريسية في قاعة الفن المعاصر في متحف بوشكين. انت تتذكرين، في ما أظن، ما قلته لك عندما كنا معا هناك أول مرة.
ـ وهل ينسى ما قلته لي؟
ـ قلت بغتة: إنك أجمل منها وجها وجسدا!
ـ ما رأيك في الذهاب إلى مسرح البولشوي ليلة الأحد؟ هناك يمثلون

(غادة الكاميليا) والمغنية الأولى هي سابينا.. أشهر مغنية أوبرا كما تعلم.

ـ أو الغادة المرحة.. كما تقول ناديا.

فضحكت نينا بتروفنا. فقلت:

ـ أتدرين؟ التقيت مرة، ابنة سابينا في المترو.. وأنا طالب. واتفقنا على لقاء. لم أزرها إلا مرتين. كانت بدينة وطيبة.

ـ كنت ستحضر معها افتتاح أي عرض في البولشوي. لا تنس، من فضلك، أن تقتطع ثلاث تذاكر. أنت تعرف لمن الثالثة.

نهضت من النوم مبكرا لحظة نهوضها، وأصرّت هي أن أعاود الرقاد. فلم أرضخ أو ألِن، أوصلتها في السيارة حتى باب المستشفى. كانت السماء مدلهمة والرياح تهب في وجهي، وعلى أشجار الحديقة العارية. أما الصنوبر والشربين فهما ملتفان بخضرتهما الداكنة.

مساء الأثنين كنت انتظر ناديا جوار السينما المركزية. هناك يعرض فيلم سوفيتي للمرة الثانية: الحياة اللاهبة، أبرز الممثلين في الفيلم ممثلة شهيرة لا تظهر إلا بأدوارٍ قصيرة. مرة، أنا وناديا، قبل شهورٍ كنا جالسين على مصطبة في بولفار تريفسكوي، وقد مرّت الممثلةً المعروفة وحيدة تتنزّه حاملة مظلّة. بعد الفيلم اقترحت المطعم. قَبِلت ناديا شرط ألا نتأخّر بعد الحادية عشرة. غداً تعمل. ولم نشرب الا نبيذا. لم تكن ترحب بالكونياك أو الويسكي في أغلب الأحيان، إلا في ليالي الأعياد.. مع نينا بتروفنا بالطبع.

ـ لماذا تفضل مطعم موسكو على غيره؟

ـ هو أقرب إلى حيث نوقف السيارة.

ـ أرمينيا والمتروبول قريبان أيضاً.

ـ هنا يعرفونني.

ـ وهناك يعرفونك.
ـ قد يكون أهدأ. فهو أوسع
ـ ليست الرحابة بمانعة من الضجيج.
ـ ربما هي (سماؤه) الرمادية العالية.
ـ أحيانا أحبذ الضجيج.
ـ في المرة القادمة سأتوخى الصخب أولا.
ـ من أين التكهّن بما سيدور في المطعم بعد العاشرة؟
ـ في المطاعم الأصغر والأضيق شد ما تعلو الجلبة!
ـ فاحرص على أن تأخذني إلى أضيق المطاعم.
ـ لا ضير. ساضع قطنا في أذني.
ـ وكيف ستسمع حديثي الشائق؟
ـ أخرج القطن منها كلما تفضلت بحديث.
ـ ولن تتذكر إعادته
ـ عندئذ تذكرينني أنت.
ـ قد أتعمد الا اذكرك.
ـ لن يطاوعك طبعك الطيب.
ـ ألم تلاحظ، بعد، تقلبات بحاري؟
ـ لا أعرف منك ومعك الا رقة الفؤاد.
ـ كم قد (تملقتني) الليلة.

ويدق التلفون، وأنا في (تألق) الترجمة (الرفيعة) كما تقول ناديا، وفي أوج زحامها. هي لوسا وصوتها الضروب:

ـ أيتوفر لديك، مساء اليوم، وقت لي؟
ـ أوقاتي كلها لك.
ـ والدكتورة الدؤوب على (زيارتك)؟
ـ إنها في المستشفى أو الشقة.

ـ ما رأيك بالسابعة مساء؟ أنا (متبطلة) غدا.
ـ سأنتظرك.
- اتفقنا إذاً؟
ـ اتفقنا.

قالت لوسا ونحن في المطبخ:
ـ منذ زمن طويل لم أتسكّع في شقتك.. مطرحة عني أثوابي المتحفظة.
غض الطرف رجاء. سأتجرد متمايلة، مسترخية.
والتفتت فجأة إليّ (مغيظة):
ـ لماذا لم تتلفن؟
ـ اتفقنا، في آخر لقاءٍ أن تتلفني أنت.
ـ لا أتذكّر.
ـ فلماذا أتذكّر أنا؟
وأضفت (مصالحاً) متودّداً:

ـ هنئيني باستقبالي الشتاء الأبيض.. بعد وداعي الخريف العاري وداع (الصب) الوامق في الحدائق المقفرة.
وكنت أقول لنفسي:
أفقت، فأرخت لي جناحا يمامة
من الغانيات (الروس) في غرة الفجر
فقلت، ولم ألق ابتهاجا كما ارتضت
معي خل عنك (الترجمات) إلى العصر

ثم اخذنا نصغي إلى الاغنية السويدية (الفائز يأخذ كل شيء) الشائعة تلك الأيام. لم اسالها عن الخطبة: أهي قائمة أم ملغاة؟ ولم تشأ هي أن تتلفظ بشيء عنها. وكأن الخطبة لم تكن حتى خيال خطبة. هي التي

سألتني فجأة ونحن عائدان من المطبخ:
ـ لماذا لم يثر اهتمامك فقداني الخاتم الثاني؟
ـ أحرجني أن أسأل.
ـ أضعته وأنا أسبح في البحر الأسود.
ـ ولم تفكرا بشراء غيره؟
ـ بعده تخليت عن خاتمين.
وأضافت ضاحكة:
ـ و سأقتلع الثالث والرابع عن اصبعي.
ـ أنت امرأة تتطاير إليها الخواتم كالفراشات إلى النار.
ـ وانت امرؤ يتشبث بعكاز عزوبته.
ـ بل أنا تائه في قارب حظي الخائب.
ـ آن أن تكتفي بالربيبة هاجراً المربية.
ـ لم تذكرك الدكتورة، مرّة، إلا مستلطفة.
ـ أنا أبغضها اكثر مما أبغض (اللصة) الصغيرة.
تلك البرهة انكسرت بيني وبينها الآنية البلورية. وسريعاً ما أدركت أنها امرأة غيرى، فأشحت عن المعاتبة وقلت لنفسي: إنها لا تزورني إلا رغبا أو بين فصل وفصل فتجمل يا صاح! واهدأ! ولكن من ذا الذي يتلفن لي الآن في العاشرة من الليل؟ التلفون يدق مريباً، عالياً. إنها ناديا تتلفن لي كالمتهدجة كالمتضرعة:

ـ لم تعد نينا بتروفنا. إنها مريضة قالت إنها راقدة في المستشفى تتلقى العلاج. قالت: لا تقلقوا لكنني خائفة، خائفة جداً.
ـ انا مسرع اليها الآن.
ـ كلا. تعال الي. وخذني معك.
ـ أنا قادم اليك الآن.

قالت لوسا مضطربة، هالها اصفرار وجهي:
ـ ماذا يجري؟
ـ نينا بتروفنا مريضة في المستشفى.
ـ اذهب اليها الآن. لا تتأخر.
ـ سأذهب اليها مع ناديا.
ـ أنا راجعة إلى البيت. اتصل بي رجاء لأطمئن.
كانت ناديا تنتظرني عند المدخل ، تبتسم لي مسرعة إلي:
ـ إنها بخير. قالت: لا تأتوا. لكن يجب أن نذهب.
ـ إننا مسرعان اليها الآن. كيف هي الجدة؟
ـ انها بخير أيضا.
ضحكت نينا بتروفنا ناهضة نصف نهوض من الفراش:
ـ ألم أقل لا تأتوا؟ أنا ذاهبة معكما الآن.
قلت آخذا بيدها:
ـ ابقي في فراشك رجاء قد تحتاجين إلى علاج في الليل.
ـ لا أحتاج إلى أي علاج آخر. هيا بنا إلى البيت.
ـ أأنت متيقنة؟
ـ اسأل الدكتورة. إنها تنظر اليكما ضاحكة.
ـ مع هذا.
ـ أنا ذاهبة معكما. انتظراني في الممر. سأرتدي ثيابي.
لم تبرح ناديا شاحبة، ممسكة بيدي.
ـ لا تخافي. إنها في صحة جيدة.
وأقبلت نينا بتروفنا تتعمّد إظهار التعافي التام.
ـ انتهت الوعكة. أنا في افضل حال. سأتلفن لأمي.
كنت قلقاً. ولم تزل ناديا كالخائفة.
ـ ألم تصدقا الطبيبة أو تصدقاني؟ لم يكن الأمر الا إرهاقا عابرا بعد

عمليتين جراحيتين معقدتين. انتهى كل شيء. الثلوج تتساقط خفيفة متسارعة وحديقة المستشفى مقفرة. الريح تهب باردة ولا أحد غيرنا في الطريق إلى الارب الجانبي حيث تقف السيارة. بل ها هو من يأتي ويروح.. ونداء الإسعاف يعلو ويبتعد، ونينا بتروفنا، في معطفها الأنيق آخذه بذراعي. لم يتبدد قلقي عليها. لكنني لم أرد إظهار تخوفي. كانت الطبيبة المداوية ضاحكة الوجه، موقنة من زوال الحاجة إلى أي علاج أو دواء. كانت أضواء الشارع تتتابع والزحمة أخف. فتحت الجدة الباب لحظة أغلقنا المصعد. كانت تنتظر. قبلت ابنتها، وقبلتنا، أنا ونادیا. والشاي الحار في ابريقه الابيض المنقط بالزرقة الشذرية. جاءت باقداحه ناديا إلى البهو. نينا بتروفنا في أجازة سبعة أيام. بعد الشاي ذهبت إلى المطبخ فتبعتها ناديا وعادتا بقنينة نبيذ وكؤوس ومزة. هي لم تشرب متحذرة، ورجتنا أن (نلهو) قائلة إنها قد تحسو (قطرة) من قدحي مشاركة منها. كنت أريد لها أن تستريح وأن تنام، فأسرعت بالعودة إلى شقتي بعد اعتراض منها.

ـ سأعد غداء طيبا فلا تتأخّر.

ـ لا تُتعبي نفسك رجاء.

ـ ألا تحب رؤيتي صباحا؟ سأنتظرك حتى الثانية، فإن لم تأت سأذهب أنا اليك وأجي بك وقد فرغت من الترجمة.

قلت مازحاً، ناظراً إلى ناديا:

ـ الترجمة الرفيعة.

وأضفت مقبّلاً يدها:

ـ سأتلفن في الثانية عشرة بعد أن تنامي جيدا. وسأزوركم قبل الثانية.. آملا أن آراك في أتم العافية والنشاط.

ـ أتدري؟ كم أود أن تنام الليلة هنا.

ـ ينبغي أن تنامي في هدوء.

وعدت إلى شقتي وأنا افكّر قلقاً بالاجهاد الذي يعاودها أحيانا، آملاً ألا يكون إلا تعباً عابراً. لم يعطوها أجازة أكثر من أسبوع. أهم مدركون تماما أنها لا تحتاج إلى أجازة طويلة؟ أو إلى شهر في أحد المنتجعات؟ هم ادرى مني بالطبع. إنها ترهق نفسها أكثر مما يتطلب العمل. وتتأخر. أيتها العزيزة!

قالت ناديا، وقد خرجنا من ازدحام المخزن المركزي:

ـ أعطني احد الكيسين.

ـ ليسا ثقيلين.

ـ لا تعاند. أعطني أحدهما.

الريح باردة، وسماء أول الليل مظلمة، متجهمة.

ـ سأضع الكيسين في السيارة. وندخل أحد المقاهي.

ـ لن نجلس الا ساعة أو أقل. إنها ليلة الأحد، ونينا بتروفنا تنتظر. بعد المقهى سنشتري من مخزن المأكولات ما ينبغي للسهرة. انتهت أجازتها اليوم. وهي مسرورة بانتهائها. لا أعرف أحدا يحب عمله أكثر منها.

ـ تقول الجدّة: إنها كانت طالبة متفوقة جدا.

ـ وهي الآن أبرع طبيبة جراحة في موسكو.

ـ أنا فخور بها.

ـ أنا اكثر فخرا منك، لن نذهب إلى مقاهي شارع غوركي.. سنجد الصفوف طويلة عندها. اختر أي مقهى هنا في الجوار.. أو مقهى البونش الممتع في الجانب الآخر من فندق موسكو.. قبالة السلم المرمري الأشهب الصاعد إلى المطعم الكبير.

ـ لن نجد المقهى مزدحما كما أظن.. وحق لؤلؤة الغواص.

ـ أية لؤلؤة؟

ـ سرتك المستديرة استدارة الأبد.

ـ أهي مستديرة؟
ـ كل شيء مدور فيك حتى..
ـ حتى متى؟
ـ حتى أقع إعياء وتعبا.
ـ فإلى هناك إذاً.
ـ إلى اللؤلؤة؟
ـ أيها السكع!

اقتعدت ناديا أحد الكرسيين الخاليين الوحيدين.. محتجزة الكرسي الآخر لي. وجئت أنا بفنجاني القهوة السوداء (المر منها لي) أولا. بعدهما عدت اليها بقدحي البونش الطويلين. أنا أعرف كم يحلو لها البونش في هذا المقهى كانت النادلة (أو المشرفة) الواقفة عند الكاونتر، وظهرها إلى القناني المصطفة، تعرفني وتودني. يبدو لي أنني الزبون الفريد الذي لا ينسى إهداءها (منحة) تستأهلها. رأيتها، هنا، أول مرة قبل أربع أو خمس سنوات. أحيانا انقطع عن المقهى شهرين وأعود اليه. فتسألني مازحة فيم الجفوة و البعد؟ مرحبا بك في مقهى يترقب طلوعك عليه! قالت ناديا:

ـ واضح أنها (مغرمة).. أو لنقل أنها معجبة بك.
ـ بل أنا كوكتيلي قديم. وهي ساقية مرحبة.
ـ لم ادخل هذا المقهى مرة قبل أن اعرفك.
ـ أنا اهتديت اليه، أول الصيف، مع شابة امريكية (هي التي هدتني اليه). جاءت موسكو مشاركة في مؤتمر للسلام العالمي. التقيتها مصادفة في مصعد الفندق. هي إلى غرفتها وأنا إلى بوفيت الطابق الرابع فدعتني هي إلى هذا المقهى.
ـ إن لك ذكريات (عالمية) عزيزة في هذا الفندق.

ـ بعد المقهى دعتني إلى غرفتها. ومنعتني مناوبة الطابق من الدخول. فذهبنا إلى غرفتي، في التكسي، في المنزل الجماعي الطلابي. أخبرتني أنها تقطن في مدينة، لم اعد اذكرها، قرب البحيرات. كانت عذبة: مليحة، مرتفعة القامة، شعرها ينطرح مشدودا. اذكر أنها كانت ترتدي معطفا مطريا، خفيفا، مائلا إلى الرمادية الفاتحة. لم أرها إلا باسمة، مبتهجة بالرحلة. بعد أن دخلنا الغرفة أخذت الامطار تتهاطل حنقا وغضبا. قالت: سأنام الليلة هنا. المناوبة عندكم أكرم من مناوبة الفندق. كنا نلتقي كل مساء طيلة بقائها في موسكو تقريبا. أرسلت الي من هناك، بطاقات وأجبتها. ثم انقطعت بيننا السبل.

ـ يسرني أنك لم تفتأ تذكرها ذكراً جميلاً.

ـ لو عرف الكومندان الغليظ أنها امريكية لاختلق لي مشكلة

ـ أهو سيئ الخلق؟

- يقول الطلبة انه كان مشرفاً على معسكر اعتقال.

ـ يا للسجان الوقح!

ـ عندما انتقلت من المنزل إلى الشقة كان واقفاً قرب منضدة المناوبة. وكنت أصافح المناوبات مودعا. وقد بكت احداهن. فلم التفت إليه. يسرني أن اتذكر أنني لم اصافحه، ولم أقل كلمة له.

ـ لا استغرب أنه كان يتعمّد الإساءة الخشنة إلى المعتقلين

ـ هل لك ببونش آخر؟ إنه ممتع.

- انه يستهويك.

ـ وماذا سنشرب عندنا؟

ـ سنعرج على المقهى في الجولة (المركزية) القابلة.

ـ سيشرب كل منا قدحين مترعين.

فتحت نينا بتروفنا الباب قائلة:

ـ لماذا لم تدخلا مطعماً؟ إنها ليلة الأحد.

قالت ناديا، وأنا أعينها في انتزاع معطفها:
ـ قد ندخل السينما أو المقهى. أما المطعم فلا ندخله الا معك
ـ لماذا من فضلك؟
ـ لن يحلو الرقص لي معه إلا بعد احاطته قوامك الساحر بذراعيه.
ـ لا قوام أروع من قوامك. ولا محيا أجمل من محياك!
والتفتت الي:
ـ ألست محقة في ما قلت؟
لم أجبها. أزحت الستارة قليلا عن النافذة ناظراً إلى الليل:
ـ غدا تنزل الثلوج غزيرة.
ـ ما أحوجهم اليك عالما في شؤون الطقس!
قالت ناديا لي، وأضافت كالجادة:
ـ أعد الستارة على النافذة من فضلك. قد تمر جارة جديدة لك فتراك وتعرفك فتظن بي الظنون. وأنا طاهرة الذيل. قالت نينا بتروفنا:
ـ بعد اتهامك اياه بمغازلة النوادل.. ها انت ترفعين الستار عن اتهام آخر: مراقبة كل جارة أو كل عابرة طريق آتية من المخزن أو المخبز مثقلة بالحوائج، مسرعة الخطى إلى أطفالها.
ـ الله يعلم أنني لا أزعم ولا (أنسج).
ـ ما أسرع ما تطرد سحائب غضبك عليه!
ـ أتنكرين علي (مرافعتي) دفاعا عنك؟
ضحكت نينا بتروفنا قائلة:
ـ من وكلك محامية عني؟
ـ جدتي.. اسأليها.
قالت الجدة وقد أضحكها ما يقال:
ـ هل فرغت محاكم موسكو من المحامين فألجأ إلى ناديا؟
قالت ناديا (متهرِّبة):

ـ نبَّهتني (جارة) ما ثأرا منه.
قالت نينا بتروفنا:
ـ أو نادلة ما.
ضحكت ناديا هي الأخرى قائلة:
ـ الماء يجري تحت أرضية قناعتك، وانت تهدينه أنخابا.
قلت متعجلا الذهاب ناظرا إلى تموج نينا بتروفنا العائدة من المطبخ، في رداء السهرة الضيق، ضاحكة الوجه لي:
ـ الآن ترفع نينا بتروفنا نخبها، الأخير في صحة ناديا.
قالت نينا بتروفنا (كالمتدلّلة):
ـ ليس الآن؟.
قالت ناديا (غامزة):
ـ نخبها الأخير في الشقة الأخرى.
قالت نينا بتروفنا (متمنعة):
ـ من قال لك إنني ذاهبة إلى هناك؟
ـ ولمن ارتجاج الكتفين الباذج؟
قالت الجدة كالمازحة الجادة:
ـ وتغارين أيضا؟ تزوّجيه وقري عيناً.
قالت ناديا (كالمترفًعة):
- لن أسعى بقدميّ إلى (خيبة) ثانية.
ـ ما ادراك أنه سيرضى؟
ـ خطبني قبل أن يرى أمي فاعتذرت.
ـ كنت متزوجه.
ـ أي فرق! كم من خطبة جرت قبل الطلاق!
قالت نينا تروفنا:
ـ أمي. لا تتعبي نفسك. ستطول ملاحاة ناديا حتى مطلع الفجر.

قالت ناديا ضاحكة:
ـ بل حتى العاشرة.. ساعة انصرافكما.
قالت نينا بتروفنا، وأنا افتح لها باب السيارة:
ـ ماذا جرى لها اليوم؟ هل أغضبتها بكلمة في المقهى؟
ـ لم أتفوه بكلمة أو بنصف كلمة مغضبة.
وفي الطريق قالت مازحة:
ـ أم انك تغزلت بنادلتك؟
ـ كنا في مقهى آخر. هي ناديا ونزوعها المفاجئ، بين الحين والآخر، إلى المماحكة. أنت أعْرَف بها مني.

في الشقة، وأنا في البهو جالس إلى المائدة، وهي في غرفة النوم ترتدي ثوبا منزليا، كنت أقول لنفسي متسائلا: ما لي اتناءى عنها احيانا وأتأبط ذراع هذه الأنثى أو تلك؟ لو ذرعت الأرصفة كلها، وحدائق المدينة كلها، ولو دخلت المطاعم الساهرة مطعما بعد مطعم. أو تفرّجت على المسرحيات والأفلام في هذه السينما أو غيرها، أو في هذا المسرح أو سواه.. لن أجد امرأة أجمل منها، أو أرق وألطف من نينا بتروفنا أو أعمق وأحر حباً منها لي. فلماذا التعلق مني بناديا؟ وانتظار تلفون من لوسا بعد فصل أو عام؟ أهو (الفضول) أو البحث عن (التغيير)؟ فيا لي من أجنبي فاتر الحظ!

وجاءت نينا بتروفنا في ردائها المنزلي إلى البهو.. فذهلت! لم تقل كلمة وهي ترى ذهولي. نقرت كأسها بكأسي نقراً خفيفا قائلة:

ـ غدا نصحب الجدة وناديا إلى مطعم (روسي) قرب الغابات. هو مبنى خشبي يذكرك بالقرى الروسية.. أو بموسكو الخشبية.
ـ ومن أين لي أن اعرف شيئا مهما عن موسكو في نشأتها الأولى الا

من صفحات التاريخ أو صورها الايضاحية؟
ـ لم يبق من موسكو (القديمة إلى حد ما) الا قليل من العمارات الخشبية أو المنازل الخشبية الصغيرة. لا بد من أنك رأيت بعضها وهو لم يزل قائما هناك في انتظار زواله. وقد يبقون على بعضها (تذكارا) أو معلما سياحيا يجتذب الأنظار.
ـ اتذكر بعض هذه المباني الحمراء الداكنة.

كانت ترتشف أقل ما يمكن ان ترتشف من القدح. وتتحدث أي حديث عابر أو هي تتذكر خبرا طريفا فترويه غالبا ما يؤنسها أن اتكلم أنا عن الحياة القروية أو الأيام الطلابية في موسكو. وكنت أتجنب (القصص) الغرامية، وأخفي أكثر مما أظهر. وقد أمر (بالمصادفة) القديمة مرورا طائرا ولا أعود اليها. فتضحك أو تقول عارفة:

ـ لن يكدر صفوي معك ظل (حبٍ) ذوى واختفى.
تلفنت نينا بتروفنا، قبل العاشرة من الليل مصفرة الصوت:
ـ هل رأيت ناديا اليوم؟
ـ لم أرها. أين هي؟
ـ لم تعد بعد
ـ ستعود قريبا.
ـ أنا قلقة.
ـ أنا قادم اليكم الآن.
وكنت أقول لنفسي، وأنا وحيد في المصعد الهابط، كأي فتى من سلالة الشعراء المصدورين ، شعراء القرن التاسع عشر:
قلبي التريب
جبانة مهجورة تحت المغيب
لليل والمطر الكئيب

فتحت نينا بتروفنا الباب قائلة:
ـ لو كانت ناوية التاخر لتلفنت.
ـ لا تخشي عليها. أعطيني تلفونات صاحباتها.
ـ لا أدري أين هي.
ـ لا أريد أن أخيفك.

ابحثي عن التلفونات. انها في (مفكرة) تحتفظ بها كأية فتاة أخرى.. في أي درج من أدراج خزانتها الصغرى.
كانت نينا بتروفنا شاحبة ، متحيرة قلت:
ـ انها العاشرة والنصف. ستعود عما قريب.
ـ لم تتأخر هكذا مرة إلا وهي معك. وكنا مطمئنين. لم أجد في مفكرتها غير تلفونات قليلة. أجابني احدهم:
ـ لا أعرف شيئا عنها.
وأجابتني فتاة ما:
- لم ألتقِ بها منذ زمن طويل. أين هي؟ ماذا جرى لها؟ أرجوك أنبئني حالما تعرف أي شيء عنها. انها صديقة طيبة. هل هي في مشكلة مع زوجها السابق؟
قالت نينا بتروفنا:
ـ سأتصل بالمستشفيات كلّها.
ـ ثقي بها.. إنها في الطريق إليها.
ـ لماذا لم تتلفن؟
ـ ربما السبب هو توقف الحافلة جراء خلل ما.
ـ لا ادري.
ـ اطمئني.
وسمعنا الباب يفتح (انها ناديا) فأسرعنا اليها.

ـ اعذراني رجاء. لم استطع الاتصال.
قبلت هي نينا بتروفنا، وقبلتني.
ـ كان تلفون صاحبتي عاطلا. وشغلنا بزيارة مفاجئة: صديقة لم نرها منذ بعيد. كلما أردت الخروج أخّرتني بحجّة ما.
سألتها نينا بتروفنا معاتبة:
ـ وتلفون الكشك؟
ـ هل تصدقانني؟ كان عاطلا.
حين أوصلتني ناديا إلى المصعد همست لي:
ـ أنا قادمة اليك غداً مساء. لا تخرج.

لماذا هذا مني؟ لماذا المراوحة (الجميلة السفيهة) بين الكفّتين؟ ما أغرب هذا! بل ما أغربني أنا! احتضن نينا بتروفنا، وهي واقفة إلى المغسلة في المطبخ، وكأنّني أحتضن أول امرأةٍ في عمري، وانتظر ناديا عند السينما وكأنني لم انتظر فتاة من قبل. اتجول مع نينا بتروفنا في ممشى البولفار، بين أشجار العارية، العتيقة.. أو بين الصفين الأخضرين القاتمين من الصنوبر العالي تحت الثلوج المتهافتة، الصغيرة، في مهب من الرياح الباردة، وكأنني أتجول، لأول مرةٍ، تحت أشجار الطريق مع امرأة جميلة. لم نقتعد مصطبة خالية أو نصف خاليةٍ.. ولم نسرع الخطى إلى السينما القريبة، فقد رأينا الفيلم، ولم يخطر ببالنا مركز المدينة بمقاهيه ومطاعمه في الطوابق الأولى من الفنادق. كنت مكتفيا بتأبطها ذراعي تأبطا هينا لينا، بوجهها الناصح العاشق. بأنفاسها العذبة، بحنوها المرتقب علي قبل أن نتمدد، بتذكري انفتاح مظلتها علينا معا، ونحن خارجان من مخزن الحي، تحت المطر، صبيحة صيف، بنعومة فرائها الأشهب، بأوراق الشجر الخريفية المتساقطة صفرا وحمرا، بالزوبعة الثلجية تدركنا، ونحن في الطريق من السينما إلى

البيت، بنهوضها في المنتصف من الليل طلباً لقدح ماء، فأسرع به اليها قبل أن تصل المطبخ، بالقائها تذكرتي السينما في سلة الرصيف، بالخبز الطازج، الحار عائدة به من المخبز، بامتلاء شفتيها، باتقاد زرقة عينيها المستعتين فرحا وهي تحييني أو وهي تصافحني، بالجلوس معها إلى طاولة البوفيت، بتصفحها مجلة ما في صالة انتظار سينما، بالصيف في الداجا، بارتدائها الأحمر الداكن أو الأزرق الخفيف قبل ساعة الرقاد، بالقبلات الطويلة الحارة، بلعبة شطرنج ورهاننا عشرة كوبيكات، بالخروج رجاء التنزه في العاشرة من الليل تحت الثلوج أو تحت أوراق الخريف، بدفء صدرها وطراوته وهي ترد علي الغطاء بقولها: لا تدخل من فضلك أنا ارتدي ثيابي، بالصحو مبكرا معها والمنبّه يدق، بالتأخر في النوم صبيحة الأحد أو العيد، بآثار خطواتنا (الذائبة) على الثلوج باشتعال وجنتيها بردا.

قالت ناديا ناظرة إلي نظرة متفحّصة:

ـ انفتح المصعد عنها وأنا انتظره.

إنها تعني (المطلّقة المرحة). قلت ونحن جالسان إلى المائدة وبين أيدينا كأسا ويسكي ، وقد أعجبها أن تعصر عليه نصف ليمونة:

ـ قلت لك إن لها صواحب هنا.

ـ لم أنظر إليها، ولم تقل مساء الخير.

وأضافت جادة:

ـ اردت العدول عن الصعود. لكنني كنت أعرف أنها ستبقى واقفة خلف المدخل منتظرة نكوصي عن الزيارة.. فتفرح.

ـ نعم ما فعلت.

ـ قلت لنفسي:ربما أتت لاقتراض مبلغ ما.

ـ لا تلفون بيننا.. ولا لقاء.

ـ من يعلم؟

ـ أنا أعلم.
ـ ألم تتزوج بعد؟
ـ سأتزوجها.
ـ لا تمزح. ألم تعلمك الجارة بنتفة من انبائها الحافلة؟
ـ لم أسألها. ولم تقل هي شيئا.
ـ لم تكن (متزوقة) بالكثيف من أصباغها.
ـ ربما ذهبت بطلائها المدامع السخية.
ـ حزنا على طلاق ثالث أو رابع؟
ـ أو بكاء على عصفور ابصرت به ملقى على الطريق.
ـ أهي من رابطة الرفق بالطيور؟
ـ أو من جمعية الرأفة بالأزواج المطلّقين.
ـ لا تقل لي إنها جاءت زائرة إياه.
ـ أو زائرة إياي.
ـ لا تهزأ مني رجاء.
ـ بل من اعتراكنا حول ظل امرأة كما قلت من قبل.
ـ أنا لم أر (ظلا) بل امرأة.
ـ وأي فرق؟ مادامت لم تعد غيره صدى طرقة عابرةٍ على باب.
ـ ما رأيك بجولةٍ في مركز المدينة.
ـ أحب النزهة معك في غرفة النوم.
- يخيّل لي أنك (تنزهت) معها طيلة النهار.
ـ لماذا وأنا انتظرك؟ وانت أدفأ يدا وأرق؟
ـ تغييرا منك وتنقلا.
ـ لقد نفدت قوة تحمّلي. إنك تفتلين خيط النزاع دونما توقف.
ما بك؟ ماجرى لك؟ وأنا ألطف حرصا عليك من حرصي على ورقة ورد! لماذا الغيرة من امرأةٍ لم تصافحني أو تزرني مرة؟ أكلما لمحتها

خارجة من هنا أو مجتازة الشارع إلى هنا ظننت أنها كانت في زياتي أو هي قادمة إلى زيارتي؟ ما لنا ولدخولها المنزل أو لخروجها منه؟ لتأت المنزل ما شاء لها هواها أن تأتي، ولتخرج كلما عن لها أن تخرج. إن لها قصصها وفصولها. بعيدا عنا، وفي مشارب غير مشاربنا. لم تعد جارة لي أو طيف جارة.

ـ شكرا على لطف استقبالك وكرم ضيافتك. لا تنهض رجاء عن مقعدك الوثير. ولا تتعب قدميك بتوصيلي إلى الباب. أنا أعرف الطريق.

أسرعت إلى الباب، وأخذت المفتاح منه:

ـ افتحي الباب من فضلك، ما دمت مصرّة على الخروج.

ـ وكيف افتحه وهو مقفل؟

ـ لا قفل عليه.

ابتسمت ابتسامة ضئيلة قائلة:

ـ اعني أنه مغلق.

ـ لن افتحه إلا ساعة فراغنا من المائدة وتقبيلي إياك.

ـ سأجلس. ولا خطوة مني إلى مضجع المطلّقة الفاضلة.

وتذكرت مسرحية سارتر (البغي الفاضلة) فضحكت

- ما المضحك؟

ـ ذكّرتني بعنوان مسرحية لسارتر قرأتها مترجمة إلى العربية، وشاهدتها هنا. مثلت في أحد مسارح موسكو قبل أربع سنوات أو أقل.

ـ ما عنوانها؟

ـ البغي الفاضلة. عن (العنف) العنصري في أمريكا. وهي مسرحية قصيرة.

ـ قد تمثل ثانية فأدعوك إلى مشاهدتها.

ـ لن يعاود تمثيلها. قلت لي مرة إنه من (منتقدي) نظامنا.

ـ كان هذا قبل التمثيل.
ـ هل تتفضل عليّ بإعارتي نص (التمثيلية) المترجم فأقرأه؟
ـ لا أعرف هل نشر أم لا. لدي نص مترجم آخر له إلى الروسية هو (كلمات).. وبتوقيع سارتر.
ـ وأين وقّعه لك؟
ـ بعد محاضرة له في معهدنا. سأعيرك إياه اليوم. بعد السهرة. وبعد إكرامك إياي بزيارة المهجع انتظار دفئك الأبيض.
ـ أهو طريف.. اعني النص.
ـ ستدركين بنفسك جودته وقوته.
ـ أنت تشرب (مقتصدا).
ـ أسكرتني خمرة عينيك.. قبل أنخابي التي رفعتها استرضاء لك. عسى أنني وفقت. أتعلمين؟ كان الاغريق القدامى يدوسون العناقيد بأقدامهم في اول مرحلة من مراحل استخلاص الخمرةِ من العنب.. فترى أرجلهم العارية مصطبغة بالأحمر أو الأسود. أما العنب الأبيض فلا يترك على أرجلهم المرهقة لونا فاقعا.. كما أظن.
ـ أين رأيتهم؟
ـ في احد الأفلام. ربما في فيلم مأخوذ من هومير.
ـ ما ذكرك بهم.
ـ لا أدري.

أخذنا نتبع لقطات من فيلم ما.. في التلفزيون.. من فيلم (يصور) الحياة في كولخوز ما.. أو في مرعى ما. وقد مرضت الخيول. ولم تفتأ الطبيبة البيطرية دائبة في استئصال المرض. ونجحت أخيرا. وكنت اتذكر بيطرية نالت شهادة الدكتوراه منذ عام. التقينا مصادفة وأنا طالب. كانت مليحة، جميلة القوام، وتبدو كالساذجة طيبة ولطفا. لم تشأ لقاء

معي الا في المستشفى البيطري حيث تعمل. وزرتها هناك. لم يرحب (الرؤساء) بزيارة أجنبي. فصحبتني إلى الباب وهي تتذمّر وتعتذر: ويزعمون أننا أصدقاء لكم! وقد نقلت إلى عمل أكثر أهمية وأجرا في إحدى الضواحي القريبة. ورجتني أن أزورها هناك. لم أشأ إعادة (التجربة الشاحبة). آخر ما اتذكر منها مرافقتي إلى باب المستشفى العريض كباب البارك، وهي بلا معطف، متحدثة الي عن طفلتها وفرحتها بقراءة اسم مدينتي على خارطة العالم الكبيرة، المعلقة على الحائط في بهوهم. قالت ناديا:

ـ ها انت شارد الذهن في ما لا ادري من المطاعم.
ـ لم أكن في مطعم. كنت في مستشفى بيطري.
ـ بيطري؟ قص علي رجاء ما تذكرت. وقصصت عليها (القصة). قالت معاتبة:
ـ لماذا تركتها؟
ـ لم اتركها. كانت تفضل المستشفى البيطري على السينما والمطعم. كانت تلح علي بزيارتها حيث تعمل. وكان هذا محرجا لي ولها. وأين انا من المرض من الأرانب أو البط والخيول؟ كانت ذكية. إنما بدت كالبلهاء.
وقفت قائلة:
ـ لا توصلني من فضلك
ـ تعرفين جيدا أنني لن اتركك وحيدة في الشارع.
ـ أعرف.
ـ سأوصلك حتى أعتاب المدخل إلى بيتكم.
ـ وبعدئذ؟
ـ إلى حيث تتجه بي الجهات الأربع أو الخمس

ـ لا (تتفكه).

ـ والى أين تريدينني أن أعود؟ إلى شقةٍ فارغة؟

ـ بل إلى الرفوف المثقلة بالكتب.

ـ لا رغبة بالقراءة في هذه الساعة من الليل.

ـ بل هي الساعة المفضلة للقراءة عند الكتاب.

ـ أو (الكتبة).

ـ وأي فرق؟

ـ كالفرق بين الربى والأدغال.

وأحطّها بذراعي.

ـ دعني من فضلك.

ـ أمجنون أنا فأدع هذه الطراوة كلّها تتسرب من بين يدي؟ أتذكرين صبيحة الغابةٍ؟ صبيحة الضاحية؟ لم ازل أتذكّر رائحة الفتاة ممتزجة برائحة العشب والصنوبر، وربما رائحة البلوط والسنديان. ما يهمّني هو انهما رائحتان روسيتان: رائحة الغابة وعروسها الجنية. لم يزل بعض اوراق الشجر عالقا بشعرك عندما وصلنا البركة. هذا يعني أننا لم نلجأ إلى وكر من الصنوبر. بل إلى وكر من أشجار أخرى غير أبرية. وكانت آثار وخزات العشب ظاهرة على كتفيك.. حينما تخلّيت عن الثوب تهيؤاً للسباحة. يعني أنك أبعدت كتفيك، من غير أن تدري، عن معطفي النايلوني المنبسط فراشاً لك. ونبهتك إلى حمرة الآثار الخفيفة. فقلت: لا يهم.

ـ أقسم لي أنك لم تنم معها اليوم.

ـ أأنا عصفور؟

ـ قد أصدق.. أو لا.

ـ كنت انتظرك.

ـ اتذكر آثار قبلاتك على كتفي؟
ـ أتذكرها حمراء خابية.
ـ وأين أظهرتها لك؟
ـ في غرفة الفندق.
قالت نينا بتروفنا حالما دخلت الشقة:
ـ يا لها من عاصفةٍ ثلجية!
ـ طيلة النهار وهي تتجمّع على نفسها.
ـ خيل إلي أنها ستطوح بي عند كل خطوة.
ـ أبسببها لم تتأخري؟
ـ لم أتأخر عنك إلا نادراً. قلت ممازحاً:
ـ كم من عملية طالت فلم تحضري الا بعد ساعة.
ـ لا حيلة لي حيال هذا.
وقبّلتها طويلاً، وقلت وأنا أصب:
ـ أعرف.
ـ أدري أنك تدري. لكنّك تحب (معابثتي) أحيانا. أتسمعها وكأنها الخيول تصهل وتحمحم أو العجوز المخبولة؟ وإن لها صفير قطاع الطرق أحيانا كما قلت لي، مرة، نقلاً عن الشاعر الرمزي بلوك.
ـ حبذا ملاقاتها في السهوب.. أو في الحقول العارية.
ـ ستتجمّد برداً مستريحاً إلى النوم المخادع المميت ظانا أنه الراحة الكبرى. أتدري؟ لقيتها، مرة، وأنا عائدة من الريف كنت طالبة في مهمة طبية هناك. لم أكن وحيدة بالطبع. كنت مع مجموعة من الطلبة المتدربين. ولم نكن وجها لوجه معها في العراء. كنا في الحافلة الصغرى المتزعزعة. وأحب بعضهم إيقاف المركبة والخروج إلى السهول المغطاة بالثلوج، والتمتّع بلقاء الزوبعة الثلجية. وخرجنا. فأي اصطراع لها وأي عواء. وسريعا ما انهزمنا إلى الحافلة. قال بعضهم: لو مكثنا اكثر

لطارت بنا إلى حيث لا يجدنا أحد.. الا بعد ذوبان الثلوج المتراكمة على جثثنا المتجلدة. أما السائق فلم يحفل بصياحنا ولم يخرج.

ـ كان أعقل. والأستاذة المرافقة؟

ـ لم تخرج الا بعد إلحاح منا. وكانت تضحك.

ـ أنا ذاهب إلى المخزن. سأعود سريعا.

ـ كلا. لا تخرج.

ـ لن يصلح الويسكي أنيسا في هذه الليلة.

ـ لا حاجة بنا إلى الفودكا.

ـ أنا ذاهب. فاذا طارت الزوبعة الثلجية بي.. ستنيخ ركابها بعد دقائق فقط فوق الداجا أو في حديقتها العارية المولولة.

ـ انتظر. سأذهب معك.

ـ لا خوف عليّ.

ـ اود آن التقيها معك.

كانت نينا بتروفنا أثبت مني قدماً، ونحن مسرعان إلى المخزن، في مهب من الرياح والثلوج المتسارعة المتشابكة.. فهي عذراء الثلوج الروسية وزوابعها. ولم تترك ذراعي لحظة خوفاً عليّ من أن أقع أو ازلق. كان المخزن مزدحماً فنحن في أول العشية. ووجدنا الصف طويلاً عند أمينة الصندوق، وعند بائعة القناني المصفوفة وراء ظهرها ورجعنا بالقنينة المبتغاة. وكنا نضحك مع كل خطوةٍ متعجلة، مضطربة منا. والرياح الهائجة، المائجة تتخافق من حولنا وفي وجهينا، وتكاد تطير بأذيال معطفينا. والناس يسرعون الخطى إلى بيوتهم.. وبعضهم إلى السينما؟ والمصابيح تلوح كالمرضى.

أعادت نينا بتروفنا قنينة الويسكي إلى الثلاجة، وأعادت أيضا زجاجة الماء المعدني فلا حاجة بنا اليها. وسمعنا التلفون يرن.

ـ أتسمعانها كالذئب المستوحد في سهوله العارية؟

ـ انتظري رجاء. إنها ناديا.

أومأت نينا بتروفنا إليّ أن أدنو منها:

ـ إنها مستوحشة. أتود أن نذهب إليهما.. وبعدئذ نعود؟

ـ سأقول لها إننا قادمان.

أعدت سماعة التلفون قائلاً:

ـ لن نحمل زجاجة الفودكا معنا. لا يمكن إغلاقها بغطائها الورقي التالف. إنها من المخزن وليست من السوق الحرَّة.

ـ لدينا هناك قنينة نبيذ كما أذكر.

ـ سنأخذ معنا زجاجة.. تحوّطاً.

ـ لن تجد القيادة صعبة؟

ـ جربتها في هذا الطقس العاصف من قبل.

ـ كن حذراً رجاءً.

قالت ناديا حالما فتحت الباب:

ـ قلت لا تبرحا الشقة. لماذا هذه المعاندة؟

قالت نينا بتروفنا وهي تلثمها:

ـ جئنا تغييراً للمكان.

قالت الجدّة:

ـ أنا طلبت منها أن تتلفن. رأيتها مكتئبة وهي تصغي إلى صفير الرياح. ولم تتصل بكما إلا بعد إلحاح مني.

قالت نينا بتروفنا:

ـ حسناً فعلت.

ـ لماذا هذه القنينة الحمراء؟ عندنا فودكا.

ـ من جاء بالفودكا؟

ـ ناديا أتت بها من المخزن، وهي عائدة من عملها.

ـ وربَحة أيضاً
ـ حملتها ناديا معها وكأنها تعلم بانضمامكما إلينا.

وكنت أقول لنفسي مصغياً إلى التطام الزوبعة الثلجية ونواحها في الطرقات وعلى السطوح: وكأن الجدة ونينا بتروفنا لا تعلمان شيئا عن (مزاح) ناديا معي، وكأنني، أنا الآخر، لا أذكر شيئاً من (اصطراع) ناديا معي ومعانقاتها الحارة. وكانت الفودكا ملاذاً طيباً ومهرباً آمناً مما اتذكر أو أتساءل عنه. كانت ناديا في رداء منزلي أحمر (هل تتعمّد هذا؟) غير ضيق إنما ينحدر على تكور نهديها وردفيها انحدارا فاتناً. وكان فمها طازج الحمرة. ماذا تقول نينا بتروفنا مع نفسها الآن؟ أنا ضيف، وإن أكن ضيفاً مقرباً، فلا ضير في أن تأخذ ناديا زينتها في حضوري أو تكتسي الجميل من أثوابها.. فهي فتاة. ناديا هي التي عرّفتني بنينا بتروفنا أو هي التي (زفّتها) لي.. فما أعجب تشعّب الطرق والمنعرجات! لم تكن الفودكا بالملجأ الآمن إذاً، وأنا أرى انطراح الثوب المنزلي الأحمر على تكورات ناديا. لكن نينا بتروفنا اروع تكورا منها وأحرّ جمالا واغراء، فلماذا اشتهاء ناديا مني؟ الأنها، الليلة، ليست لي؟ ولأن نينا بتروفنا بين ذراعي حالما نعود إلى الشقة، وطيلة الليل؟ ربما. انما من يدري بدخائل النفس المظلمة، المتلوية؟ ألا لعن الله (التغير) ومزالقه، لماذا لا تعترف وتقول لنفسك انك تريدهما، الليلة، معا في فراشٍ واحدٍ أو في فراشين منفصلين؟ اتذكر المرأتين القادمتين من سيبيرياً إلى موسكو ذلك الصيف. كانتا قد انتهتا من غدائهما السريع في مقهى الصداقة، الشقراء منهما و(السمراء).. وكلتاهما ممتلئتان. وكنت مع صديقين إلى المائدة المقابلة. وقد أخذت الشقراء، شيئا بعد شيء، تكشف عن فخذيها. اقترحت ان يصحبها أحد الصديقين اليه فاعتذر بموعدٍ مع زوجته فنهضت إلى مائدة المرأتين. وقلت، أول الأمر، كالمعتذر: إنكما

اثنتان وأنا واحد. قالت (السمراء) الطويلة منهما: بل على العكس، ستجد الأمر ممتعاً جداً. وتجولنا هنا وهناك. وانحدر التاكسي ليلا بنا، مع الخمرة والزاد، إلى المنزل الجماعي.. إلى غرفة الطابق الخامس المنفتحة النافذة لهواء الليل.

لماذا تتلامع عينا ناديا الجميلتان، المتسعتان سروراً ورغبة؟ أقارئة هي ما يدور في ذهني متطبعا في عيني أو على جبيني؟ ولماذا هذه الطمأنينة الغريبة من نينا بتروفنا إلي؟ اتبدو لها رغبتي الآن بناديا طيفاً عابراً في عيني، وهي تعلم أي ثراءٍ جمالي بانغ تمتلك هي؟ وأي ليل طويل ينتظرنا؟ قبل العاشرة انصرفت الجدة النعسى إلى فراشها، وتركتني بين الكبرى والصغرى. وتذكرت الوسطى (المرحة) فكدت أضحك.. من نفسي وليس منها بالطبع، وأنا اتذكر تموجها في قميص النوم بين البهو والمطبخ. غير أنني مائل إلى تموج نينا بتروفنا (افضح) من ميلي إلى تموج الصغرى أو الوسطى، أو هما معا. أين هي لوسا الآن؟ ومع من؟ ذهبت نينا بتروفنا إلى المطبخ لتعود بفنجان قهوة لي. القهوة، كما يزعمون، خير منبه ومنعش قبل قيادة المركبة. كانت ناديا تتأمل قاع كأسها الفارغة كأنها قارئة فنجان نزار قباني.

الطرقات مهبط للثلوج المتسارعة، ومصطرع للرياح القوية. وكانت الشقة مضاءة كما تركناها. وجدت قنينة الفودكا مغلقة بلفة صغيرةٍ من الورق الأبيض النظيف. رفعتها مستغربا. قالت نينا بتروفنا:

ـ أنا سددتها.

ـ متى؟

ـ قبل أن تخرج.

وأضافت ناظرة إلي نظرتها الضاحكة:

ـ لا أريد مزيدا بعد الفودكا من فضلك.

ـ وأنا أيضاً.. بعد القهوة.

ـ أعدّت أمي لنا غداء روسياً جيداً.

ـ كنت أود أن آخذك إلى مطعم الضاحية الخشبي.

ـ في وقت آخر. لن نخيب ظن أمي.

ـ اسمعي نينا.

ـ أنا مصغية.

ـ اسمعي رجائي منك.. وتزوجيني.

ـ انا زوجتك

ـ هذا بيني وبينك. أريدك زوجة لي أمام العالم كله.

ـ يكفيني أنني مقتنعة بزواجي هذا منك.

ـ ينبغي أن (نوقّع) في مكتب الزواج الرسمي.

ـ لماذا تكدّر عليّ صفو قناعتي وهنائي؟ انا أعلم أنك تحبّني أكثر مما تحب نفسك. فلماذا (التوقيع) الباهت؟ أنا ممتلئة حباً لك وسروراً بك. أنت أعز صديق وأحب زوج. لا أريد (إمضاء) على الجوازين. أنا مكتفية هكذا. لماذا إضاعة الوقت في مجادلة لا جدوى من ورائها؟ لماذا إقلاق راحة البال؟ أنا زوجتك وأنت زوجي منذ أول ليلة لنا معاً على فراشك.

- أي ثوب منزلي سترتدين الليلة؟ هي كلها جميلة ولائقة بقوامك إن لك في الخزانة عدداً منها. فاختاري.

ـ لماذا لا تختار أنت؟

ـ كلها لائقة بك.. وجميلة عليك.

ـ فاختر، إذاً، انت.

ـ لم أزل حائراً. اختاري واريحيني رجاء.

لا أدري متى انقطع الثلج عن السقوط. أفقت مبكرا، فأزحت الستارة عن النافذة واعدتها. كفت الثلوج عن تساقطها. الا أن الأشجار مثقلة بها، والأرصفة مغمورة. وقد كنس الطريق مثلما بدا لي. كنسته النسوة المنظفات بالمجادف مع طلوع الفجر. غير انني لم اسمع اصوات المجارف وهي تزيح الثلوج. كنت نائما. لم تبرح نينا بتروفنا نائمة وصدرها يرتفع وينخفض في هدوءٍ تحت الغطاء. خطوت إلى المطبخ محاذراً ألا أوقظها. إنه نهار الأحد.. صبيحتها الفريدة في الأسبوع، صبيحة نهوضها غير المبكر، أعددت شايا لي ولها. أحب الشاي صباحا مثلها اكثر مما أحب القهوة. لحظة تصحو نينا بتروفنا سأوقد نارا خفيفة تحت الابريق وأسكب لها قدحاً تتمتّع به. سأسلق البيض قبل إفاقتها، وأضع علبة مربى الكرز الذي تحبه على مائدة المطبخ. ليس هنا غير كرسيين. وهما كافيان لها ولي. الكراسي الأخرى حول مائدة البهو. الشقة دافئة، الستائر منزاحة عن نافذة المطبخ. الثلوج متكوّمة في الحديقة وعلى الأرصفة، وفي مواضعها حيال المنازل. لا أرى عبر نافذة المطبخ الا عدداً قليلاً من العابرين إلى المخبز والمخزن. لن أفتح باب المهجع. سأتركها نائمة، قريرة العين. أنا باقٍ في المطبخ: لا أريد ازعاجها بخطواتي في الممر إلى البهو. لا عمل لي هناك. إنه صباح الأحد. ما أطيب الشاي الحار. الغداء الروسي الشهي كما قالت، ينتظرنا في شقتها. لن نذهب إلى هناك الا ساعة الغداء. ستستحم هي أولاً. وأستحم بعدها. في الخزانة كل ما تحتاج إليه بعد استحمامها، وهي خارجة، ملتفة بالمنشفة البيضاء الكبيرة. كل شيءٍ نظيف ومرتب، ليس عليها إلا أن تختار في الخزانة أكثر من أربع بدلات، وعدد وافٍ من اردية النوم والقمصان والثياب المنزلية. إنها نائمة الآن، مستغرقة في نومها كأجمل ملكة على الارض. لن أصحيها حتى بعد انقضاء ثلاث أو أربع ساعات. بل حتى حلول ساعة الغداء. ولماذا أصحّيها؟

الغداء معد هناك في انتظارها. سأملأ لي قدحا آخر من الشاي الحار. لم تزل الحركة في الطريق متباعدة. هنا امرأة وهناك امراة ورجل. الثلوج مكومة. كم يبهجني التطلع إلى أشجار الحديقة المجللة بالثلوج. كم هي ناصعة وكأنها العرائس في اردية الزفاف! وقفت نينا بتروفنا في باب المطبخ قائلة:

ـ صباح الخير.. ام أقول طاب نهارك.

ـ مازلنا في اوائل الصباح.

ـ أو في اوائل النهار. ما بكرك؟

ـ رغبة برؤية وجهك الجميل قبل نهوضك من النوم.

ـ قبل أن نذهب إلى الغداء.. سنتجول ساعة في البولفار حيث الثلوج لم تزل متراكمة على جانبيه. والأشجار مكتسية لها.

ـ ما أبدعها نزهة معك! وكأننا في خرافة روسية. أو في أقصوصةٍ من أقاصيص الجدات.. أقاصيص مربية بوشكين مثلا.

ـ متى صحوت.

ـ لا اذكر. لم انظر إلى الساعة كنت انظر إلى وجهك وكأنك أول امرأةٍ على الأرض.. أو آخر امرأة على الارض. وكأنك حواء قبل التقائها آدم. قبل الخطيئة الأولى أو الزفاف الأول.. على رمال الشاطئ الحارة، محلولة الشعر الطويل، نائمة على ظهرها، وذراعاها إلى جانبيها، وعيناها الزرقاوان، المتسعتان تحدقان في الفراغ.. في الزرقة العالية، المعتكرة قليلا بهبوب الغبار الأولى الخفيف، بانفتال أول عاصفةٍ نائيةٍ على الأرض. وآدم منهمك باصطياد سمكة إفطارا أو غداء لهما. مثلما كانوا يفعلون في قرى الانسان القديم.

ـ وهل كانت حواء زرقاء العينين؟

ـ اذا كانت سمراء فهي زرقاء العينين. وان كانت شقراء فهي سوداء

العينين. ولعلها كانت مرة سمراء، ومرة شقراء.
ـ وهل سيأكلان السمكة نيئة؟
ـ قبل أن يتجه آدم إلى الصيد كان قد لم الحطب وأوقد النار تهيئة لإعداد الطعام والشاي الأحمر.. وربما الأخضر.
ـ وهل عرفا الشاي؟
ـ كان بريا.. نابتا في اطراف البادية.
ـ مادام بريا فهو اخضر.
ـ ربما. كل شيءٍ كان معدا قبل أن تتمطى حواء من رقادها.. مادة يديها إلى جانبيها طويلا على الرمال العارية.. ناظرة إلى الأفق، وقد شاب زرقته العميقة اغبرار ما، منتظرة أو غير منتظرةٍ، متذكرة أو ناسية كل شيء، متعبة قليلا، متثائبة، رانية في فتور إلى حيث لا تدري أو يدري آحد.. تتلهى اصابعها بقبضةٍ من الرمال والريح:
ـ وبعد ان عاد آدم.
ـ كانت تتوهم.. طالبة الغريب من الثمار والأسماك.
ـ وقبل ان تلد حواء.. سأهيئ لنا إفطارا.
ـ أنا اعددته.
ـ اهو البيض المسلوق؟
ـ والمربى.. والخبز الأسود.
ـ سأمر بافطار آدم مرورا طائرا.
ـ لماذا؟ انه طيب.
ـ أنا انتظر غداء أمي.
ـ لن نمر بالثلوج مرورا عابرا.. كما آمل.
ـ دع المركبة هنا.. وسنتريض إلى بيتنا.
ـ ما هي الا نزهة.
ـ نزهة طويلة من فضلك.

قالت نينا بتروفنا بعد ان اجتزنا موقفي باص:
ـ ليس الطريق كما كنا نتصور. لنعد إلى السيارة.
ـ إنه زلق وعنيد.

ما جاء بناديا إلى مكتبة الآداب الأجنبية؟
من قال لنفسي: أعيتنا المواعيد
انا الغريب، وأوكاري المناطيد
يا ساهر الكتب إن الدرب منعرج
الى المقاهي التي في طرفها عيد

إنها السابعة مساء، وأنا أعيد قراءة (الثلاثية).. ثلاثية نجيب محفوظ. قرأتها أول مرةٍ عندما كنت طالبا (هناك) في العمارة. في القرية.. ما جاء بناديا. أخذت كتابا، وجلست إلى جانبي.. و(انهمكت) في القراءة. لا أرى أو لم أرد أن ارى أي كتاب كانت تقرأ. وبدت لي (مشدودة) إلى الكتاب.. وكأنه موضوع امتحانها غدا. لم اسالها. لم اقل اي شيء غير انني كنت ابتسم احيانا وأنا ارى (استغراقها) في المطالعة بعد حوالي نصف ساعة سالتني هامسة:
ـ أباق هنا إلى منتصف الليل؟
ضحكت ضحكة خافتة وقلت:
ـ سنخرج معا لحظة تشائين.
ـ انا لم أقل (سنخرج معا).. قلت: أأنت باقٍ طويلا؟
ـ لن نخرج الا معا كما تعرفين.
ـ فمتى.. مادمت (مصرّاً)؟
ـ الآن. أو بعد انتهائي من الفصل.
ـ بعد فصل؟
ـ بعد صفحةٍ.

ـ كما تريد.

أثار جلوسها إلى جانبي، وتماسها معي تلفّت القارئات الأخريات. وكن يعرفن انني قارئ جاد، متناءٍ عن أي (فضولٍ). اتممت قراءة الصفحة وقلت:

ـ أنا في انتظار فراغك من المطالعة.
ـ بعد دقائق من فضلك.

وكدت أضحك. لم تكن تقرأ. كدت أضحك متذكرا اقوالها إنها وزوجها كانا (يمثلان) فيوهما الآخرين بجريان الماء هادئاً، صافياً. بينما كان هو معتكر ومزبد، يفور في القعر فوراناً مكتتماً. لم أرَ أو لم أرد أن اعرف أي مجلّد كانت تقرأ. وخرجنا من المكتبة كالصامتين.

لم تكن مكتبة الآداب الأجنبية بعيدة عن فندق موسكو. ليس بينها وبينه غير ربع ساعة أو أقل. خلال الطرقات الموسكوفية القديمة، الضيقة التي تذكرني أو تتركني اتصور، كلما ذرعتها، طرقات يسينين. كانت ناديا كاللامبالية.. كالعابرة إلى اتجاه آخر.

ـ أتودين ان نمرّ على مقهى البونشي؟ إنه قريب.
ـ لا ادري.
ـ من ذا الذي يدري بما تريدين؟
ـ حبذا هذه الأزقة الساكنة العتيقة!
ـ هل نعوج على المقهى؟
ـ لن اتجرّع إلا القهوة.
ـ والبونش؟ إنه كأسك المفضلة!
ـ سأكتفي بامتصاص قطراتٍ من قدحك.
ـ خلال قشتي أنا؟

ـ لماذا لا؟ ألم امتص ريقك مرارا؟ ألم (اعتللك اعتلالا)؟
ـ رائع. لن يثير هذا استغراب أحد.
وأضفت مذكرا:
ـ اتفقنا، آخر مرةٍ، في المقهى، أن يتناول كل منا قدحين مترعين من البونش. ولتكن القهوة بعدهما. أو قبلهما.. كما. يحلو لك. والمركبة في موقفها عند الرصيف الجانبي الآمن من مطعم متروبول الموعود.
ـ ما أنا ميّالة إلى صخب المطاعم.
ـ إنه من المطاعم الهادئة تقريباً.
ـ مطعم موسكو أهدأ منه.. مثلما تزعم.
ـ بعد البونش سنرتقي السلم المرمري الأشهب إلى المطعم.. لم نزل في (الغسق).. أو أول الليل وهو الأصح.سنجد مأوى في أطراف المطعم.
ـ أنا (أروم) الموائد المكتظة
ـ طيب. أينما (ترومي) نجلس.
فجأة قالت لي:
ـ اسمع.. (العربة) تهرول كما ينبغي؟
ـ أرجو ذلك
ـ لن (ننتجع) مقهى أو مطعماً.
ـ فالى أين (ترتئين)؟
ـ (إلى حيث ألقت)..
ـ اتحبذين (الركون) إلى شقتي الهادئة؟
ـ قلت (الى حيث ألقت رحلها).
لحظة دخلت الشقة قالت متوعدة بإصبعها على فمها الأحمر:
ـ لا تتوهم (الظفر).. إنني (متعفّفة) اليوم.
ـ سأكتفي بتقبيل وجنتيك المتوقدتين.
ـ مجبراً غير راض. لن أمكث طويلاً. إنها زيارة خفيفة. زيارة (مختزلة).

ـ إن معطفك الفرو أباق بالشذى منك.
ـ هي بقايا قنينة منك.
ـ سآتيك بغيرها. تفضّلي إلى المائدة.
ـ أحمد لك ترحابك بالضيوف.. بالجارات.

ضحكت مقبّلاً وجهها. ولم تضحك هي، ولم تقبّلني.. كالمتحذرة، كالمتحفظة، ناظرة إلى ثلاث صورٍ علقتها، قبل يومين، على الحائط: صورة نينا بتروفنا وصورتها هي.. وصورة تجمع بينها وبين نينا بتروفنا. قالت كالجادة:

ـ أين الثالثة؟ لست عادلا.
لم أجبها. كأنني لم أسمع. كنت أعرف عمن تسأل. وأدرت أسطوانة موسيقى من ليليات شوبان.. اعلم أنها تحبها.
ـ أيّ (مشروب) تحبذ (الضيفة)؟
ـ أخفّ نبيذٍ.. أو أعتقه.
ـ لا أظن أن في الثلاجة عتيقا أو معتّقا. انما نبيذ السوق الحرة (الحديث).. أو نبيذ المخزنِ المعهود.. البلغاري أو غيره.
ـ ليكن جورجيا إن وجد. ذكرى ضيفةٍ جوجيةٍ حدثتنا عنها مرة. وجدتها أيام كنت طالبا.. خارجة من حمام المنزل.. عند المصعد.
ـ متى ذكرتها؟
ـ في أول لقاءٍ.. في شقة أحد الصحفيين.
ـ لماذا ذكّرتها؟
ـ ذكرتك بها احدى المدعوات. قلت إنها شبيهة بها.
ـ لا اذكر.
ـ ربّما كنت ثملا بعينيها السوداوين، اللماعتين. يا صاح.
ـ إن لك ذاكرة لا تحمد.

ـ لماذا لا تحمد؟
ـ إنها كالأرض الرطبة الصالحة للنبش.
ـ إن كنت أنا الدجاجة. فأنت الديك.
ـ قولي من فضلك: أأنت هكذا؟ كلّ ساعةٍ؟ كلّ يومٍ؟
ـ اخترْ احداهن. هي خير نصيحةٍ مني لك.
ـ من (هنّ)؟
ـ (الشقيقات) الثلاث.
ـ أيّ مجلدٍ (ضخم) كنت (تتهجين) في المكتبة؟
ـ (دون جوان) بايرون.
ـ في صحة جورج ساند.
ـ قد اكتب رواية عن شوبان الشاعر يوماً ما.
ـ ما أرقّك وألطفك ضيفة!
وأضفت مقبّلاً يدها:
ـ كسقط الندى على الورود الجافة.
ضحكتْ ناديا مقبلة يدي ووجهي:
ـ شاءت المصادفات ان (أبتلى) بك.
ـ أية مصادفة منهن؟
ـ احتفال الزميل الصحفي بعيد ميلاد زوجته.
ـ التقيتها مرة في المخزن المركزي.. فسألتني عنك وكأنني لم أتركك في (بيتنا) إلا قبل نصف ساعة.. كأننا متزوجان. كم قد سألتْ عنك متشوّقة واستزادتني تفاصيل عن (حياتنا الجديدة). لم أشأ ايضاح ما توهمته زواجاً. بل كنت أجيب عن اسئلتها وكأنني عائد إلى (بيتنا) وإليك لحظة استودعها الله. لا ادري من أدخل هذه (الحكاية) رأسها. أهو زوجها؟ صحفية أو صحفيّ آخر؟ رغم أن أية يدٍ من يديّ خالية من أيّ خاتم.

ـ وتسكعتما في الساحة الحمراء (والأحمر هو الجميل أيضاً. وهو النعت الذي أطلق عليها: أي الساحة الجميلة) غير مسرعين، وغير(متقصدين) في اتجاه فندق موسكو، وانعطفتما إلى مقهى البونش.

ـ بل افترقنا عند الخروج من المخزن.

فجأة قالت ناديا:

ـ صدقا أنا آسفة.

ـ لماذا؟

ـ أنت تدري لماذا؟

ـ لا راد (للمدّ) الأحمر.

ـ للتسلق وقت.. وللهبوط وقت.

ـ أيّ هبوط؟

ـ هبوط المصعد بنا. أنا عائدة إلى البيت. ها أنا أخرج (تقية، نقية) كالماء المعدني في زجاجته المغلقة.. كشفتي طفل أو طفلة.

ـ متى انصباب (القنينة) شلالا ناصع البياض؟

ـ بعد يومين أو ثلاثة.

وعندما أعطتني ظهرها لأعينها في ارتداء معطفها قالت:

ـ اذا انهمر الثلج.

ـ لماذا رجاء؟

ـ يحلو لي أن نتجوّل معاً تحت الثلوج.. بعد نزهة (الغابة) الحارة.

ـ بعد التسلل من الأدغال.

ـ ما أفطنك.. قابضاً على القطار الجاثم!

ـ ملء يدي هاتين!

وكنت أقول لنفسي: وكم قد ادهشني وهزّني عجباً تكوّر نهدي نينا بتروفنا كنهدي عذراءّ وكان الشيطان يوسوس: اتصلْ بلوسا. اتصلْ

بلوسا. انها في بيتها الآن. ما ابرد الشقة خالية من امرأةّ
ـ ما أدراك أنها في بيتها؟
ـ ومن هو أكثر خبرة من الشيطان في مثل هذه الدسائس؟
ـ إن لها (طقوسها) الأخرى.
ـ أتريد (التغيير) لك وحدك؟
ـ لم نلتقِ منذ فصولٍ وفصول.
ـ اتصلْ وتسرع طائرة إليك.
ـ ما أظنها قابعة في بيتها الآن.
ـ إنها تنتظر تلفوناً منك.
أوصلت ناديا وأسرعت عائداً. أوقفت السيارة جانباً، قريباً من كشك تلفون. أدرت رقم لوسا. كان تلفونها مشغولا: وأدرت الرقم مرة أخرى.
ـ من؟
ـ أنا.
ـ أتدري؟ اتصلت بك قبل لحظةٍ ولم يجبْ أحد.
ـ أنا قادم إليك الآن.
ـ انتظرني عندك. أنا آتية.
ـ اسمعي. أنا في السيارة. اعني أنني اتصل بك من تلفون الطريق. لا تخرجي الآن. انتظريني بعد ثلث أو نصف ساعةٍ عند مدخلكم.
ـ أنا متهيئة للخروج منذ عشر دقائق. سأنتظرك.
كانت ترتدي معطفاً شتوياً داكناً وأنيقاً، وبقعة فروٍ شهباء. أسرعت إليّ بخطواتها الخفيفة الراقصة. قبلتني قائلة:
ـ لا تسرع من فضلك.
وأطالت نظرتها المشتعلة إلينا امرأة شابة جميلة، قبل أن تتجه إلى مدخل المنزل.

ـ من ذي؟
ـ جارتي. اتريدها؟ سأدعوها الآن.
ـ ما بك؟ انت مناي وبغيتي.
ـ صدقني.. ستبتهج هي بالثلث من السرير.

وأخذت أقود ضاحكا.

ـ لماذا لم تصدقني؟ ستسر بدعوتنا سروراً جماً. وكأنك لم تجرب، من قبل، النوم بين امرأتين.. إنها ثلاثية تغرى بها النساء. عد وسألحق بها وادعوها. ستكون شاكرة. إنها غير متزوجة. وسيطيب لها الجلوس معنا. أطعني وعد من فضلك. إنها عائدة من موعدٍ خائب كما يبدو. لن تندم. اما اذا انت غير راغبٍ فلن ننام الليلة معك. سنجلس لا غير. وكان الشيطان يهتف بي: عد.. عد يا أجنبيا بين الروس! انعطفت عائدا. وعادت بها لوسا كمن تزف عروسا.

لم تكن الضيفة أقل جمالا من لوسا. انما هو جمال آخر. كان شعرها الثقيل داكنا، وعيناها الساطعتان زرقاوين، والتفافها كالتفاف لوسا. اسمها ايرينا. لم تعد ضيفة. كانت تتحرّك بين المطبخ والبهو خفيفة الخطى كصاحبة قديمة. كانت قنينة ناديا ممتلئة إلى النصف. فجئت بأخرى. وجاءتا هما بأقداح نظيفةٍ وكافيار. قالت لوسا:
ـ لن نبقى بعد الحادية عشرة. غدا لدينا عمل. خذ لك (أجازة) ليلة الأحد.. وسنسهر معك حتى مشرق الضحى. اتصل قبل يوم وسنخف إليك راكضتين. فإن لم تسمع الدكتورة باجازة اتصلْ وسنتفق على يوم آخر. وسنسرع اليك قبل السادسة، وسنلهو خمس ساعات قبل أن توصلنا في الحادية عشرة إلى البيت. لن يتعبك توصيل طويل.. ولن يتطلب منك التوغل في اتجاهين. أنا وايرينا في منزل واحد. لا

وقت الآن كما تعرف. قالت إيرينا زاعمة (الجهل):
ـ من هي الدكتورة؟
ـ إنها طبيبته الشخصية.
ـ هكذ إذن.
ذهبت لوسا إلى المطبخ فتبعتها:
ـ من فضلك كم تحتاجين؟
ـ لا احتاج نقودا.
ـ رجاء.
ـ سأتصل بك عندما أحتاج.
ـ قلت رجاء.
ـ ليس اليوم. لم أحاول التلفنة لك من أجل نقود أحببت أن أمرح معك. عُدْ إليها. انها ظريفة. سأعد لنا صحناً.
ـ طالما حدثتني لوسا عنك وقبل طلاقها أيضاً. انها معجبة بك وتودك. اتصل بها قريبا. لا بد من أن نلتقي لقاء أطول.
ـ ها هي (المضيفة) آتية اليكما بطبق مليء. لا اذكر أنني وجدت هذه الثلاجة، مرة، غير مثقلة.. وكأنك تنتظر أضيافا كل يوم. وسألتني ناظرة إلى الصور الثلاث المعلّقة على الحائط (صورة نينا بتروفنا وصورة ناديا والصورة التي تجمع بينهما):
ـ متى تتزوّجها؟
ـ قلت لك إنها تعتذر جادة.
ـ أنا اعني (الصغرى).
ـ قد تقتنع الدكتورة فتتزوّج.
نهضت إيرينا ونظرت مليا إلى الصور وعادت قائلة:
ـ إنما فاتنتان. من منهما الدكتورة؟
قالت لوسا:

ـ الكبرى.
ـ إنها فائقة الجمال حقاً!
ـ ماهي أجمل منك أو مني.. أو من الربيبة. لكنه مفتون بها. أو هو (مسحور) ربما. من يعلم؟ هي طبيبة وخبيرة بالعقاقير.
ـ لا تنكري ان لها جمالا فذا خالصا. لكن من هي الربيبة؟
ـ إنها الصغرى منهما. هي ربيبة الدكتورة.
ـ هكذا.
وابتسمت ايرينا لي:
ـ لا استغرب اصرارك على الزواج منها.

أيّ جمال! قالت لوسا متسعة النظرة، عاضة على شفتها السفلى:
ـ كم أكرهها، وأكره طيبتها معي!
ـ واضح أنها الشريكة المتوّجة!

أوصلتهما وعدت متمهلا، معرضاً عن ثلاث نساء من (المتخضبات) أشرن اليّ أن اتوقف. الثلج يهمي خفيفا، ناعما، وجانبا الشارع منقطان بأضواء المصابيح المتتابعة، والأشجار تتلاحق عارية أو خضراء قاتمة. وجدت المائدة خالية، نظيفة. حملت الضيفتان، قبل خروجنا، كلّ شيءٍ إلى المطبخ، ونظفتا الآنية والكؤوس. ارتديت بيجامة، وتناولت رواية (وداعا للسلاح) المترجمة إلى الروسية. وذهبت إلى غرفة النوم لأقرأ. وسمعت التلفون يرن. من الأحمق الذي يتلفن الآن؟ لم أشأ ان ارفع السماعة. غير أن التلفون ظل يرن مثابرا ملحا: إنها ناديا.

ـ لا تقل إنني ايقظتك من النوم.
ـ كنت أقرأ.
ـ أعرف. ولذا (انتزعتك) عن الكتاب بأجراسي.

ـ ألم تنامي بعد؟ إنها الثانية عشرة تقريبا.

وكنت أقول لنفسي، وهي (تثرثر): أهو الشيطان، مرة أخرى، مبتكر النظرية الخالصة في (الفن التغييري) يقول لي:
بخ بخ حنظلا، قم واطوها كللا
مبرقشاتٍ بعوضا، باض وانفتلا
إن الصبايا الشوادي ابتعن منك صدى
واصطدت، ملء الشباك، الراح والمللا
طارت بوالين طاسي في مغاربها
أو في مشارقها، والبدر قد أفلا

ـ بعد أن تركت المركبة، ودخلت انفتح المصعد الوقور عن زائرة لم تجدني. فصعدنا معا. ولم تفتأ تحكي طيلة الوقت. نامت جدتي بالطبع، ونامت نينا بتروفنا، بعد أن يئست من نزوح الزائرة. ولم يخطر ببالي الخروج الا الآن. اوصلتها إلى الطريق لأتنفّس الهواء الطلق، الطابق. ولاح لي كشك التلفون. وها أنا اتحدث معك.
ـ يسرني أنك تذكرتني فاتصلت.
ـ أأنت منطو الآن على مكتبك؟
ـ أنا أقرأ همنغواي في فراشنا. اتذكرين جدالنا حوله، واتهامك الصادح إياي بالنقور منه. لم تكوني جادة، تلك الليلة بالطبع. كل ما كان يهمك ويحلو لك هو الاختلاف!
ـ والمخطوطة التي حدثتني بشيء عنها، وقلت إنك (تطرّزها) بنتائف من أنبائنا، وأوصافٍ عنا؟ الا تروم إنهاء ها؟ أم لم تبرحْ في أول الطريق؟ قلت لي إنها كاليوميات أو المذكرات. أليس من المفترض أو المأمول أن تعود اليها يوميا؟
ـ إنني (أتريض) معها بين الحين والآخر.

ـ لن اؤخرك عن مصارع الثيران.
ـ لم يكن مصارعا. كان(صحفيا) خبيرا بهذه الرياضة الرشيقة.
ـ طيب. اتمنى لك ليلة (غير هادئة).
وضحكت وهي مغلقة التلفون قبل أن أرد. وتصورتها كالراكضة إلى البيت، والريح الباردة والثلج الناعم في وجهها الجميل المتورد.
ـ ما جاء بها؟

تساءلت مع نفسي، وأنا احتسي البونش من خلال انبوبته النايلونية الزرقاء الرفيعة. لم اكن منفردا بالمائدة. معي تجلس اليها فتاتان لا اعرفهما، تتحدثان فيما بينهما وتحتسيان القهوة. حيّتني ناديا وحطت على الكرسي الرابع الفارغ. لم تبتسم، لم تقل كلمة.

ـ سآتي لك ببونش وقهوة.
ـ ليس الآن.
ـ في ما بعد؟
ـ تعال معي إلى مكتبة الآداب الأجنبية.
ـ عدت من هناك منذ دقائق. قضيت أربع ساعاتٍ محمودة!
ـ والرزق، أكل العيش؟ أعني الترجمة.
ـ منذ الصباح وحتى الثانية وأنا اترجم.
ـ طيب. سأذهب غير (متوكئةٍ) على أحد.
ـ اشربي شيئا.. وسأصطحبك.
ـ هات قهوة من فضلك.
وعدت اليها بفنجان قهوة:
ـ ماذا ستقرأ الآنسة هناك؟
ـ أريد ان احوز بطاقة اشتراك.
ـ أمعك صورتان ووثيقة؟

ـ لماذا صورتان؟

ـ احداهما للسجل.. والثانية لهوية الاشتراك.

ـ أظن أن معي.

ـ تيقني قبل أن ننحدر إلى هناك عبثا.

فتحت حقيبتها وأخذت تبحث.

ـ سأتحرّى.. ها هما الصورتان. وها هي الوثيقة.

ـ رائع.

خرجنا إلى الشارع.. إلى الليل المبكر والثلوج الهامية. الريح قارة والثلج يتهافت خفيفا، وسرعان ما يذوب. والناس يسرعون الخطى إلى مدخل المترو القريب أزواجا وفراداً فرحين أو هم غير مكترثين في المعاطف واغطية الرأس. من الفتيات الذاهبات إلى المحطة أو الخارجات منها، منهنّمن تغطي رأسها بقبعة ومنهن من تلفّه بمنديل، في معاطف الفرو أو القماش.. نادرا في معاطف جلدية.

ـ ألن نركب (العربة)؟

ـ المكتبة قريبة كما تعلمين.

ـ أخشى عليك من الصقيع.

ـ أنا من (هواته).

ـ كما (ارتأى) السيد.

ـ كم أود أن أنبه (القطاتين) الآن.

ـ سينكشفان ويقشعران بردا.

كنت أعرف المشرفة على قاعة القراءة الكبيرة. اخذت الصورتين والهوية ناظرة إلى بدلة ناديا الأجنبية باعجابٍ، مبتسمة لي ابتسامتها المرحبة:

ـ لن يطول الأمر. اجلسا من فضلكما.

كنت اعرف إحدى القارئات المواظبات. حييتها، واسترحنا غير بعيدين عنها. واخذنا مجلتين نتلهى بهما. ولم يطل الأمر كما قالت المشرفة. وعدنا إلى الطرقات الليلية القديمة. ليس بعيدا من هنا يقع سور الصين الموسكوفي الأصفر. قالت ناديا آخذة ذراعي (موهمة) إياي أنها جادة، ناظرة إلى وجهي نظرتها الساجية:

ـ لم تبرح لهفا على تنبيه (القطا)؟
ـ (لنمتط) المركبة إلى البيت. ضحكت ناديا:
ـ لا تحاكني. (الهودج) بعد الحانة.

لم نجد غير كرسي خالٍ هنا، وآخر هناك. نقلت احدهما إلى جانب الآخر راجيا السماح من الجالسين. وأتيت بالقهوة والبونش. تهلل وجه ناديا وهي ترى البونش هائلة كالهامسة، ولا أدري لماذا:

ـ يا للفتى المضياف!

مذ دخلت ناديا ببدلتها الاجنبية الأنيقة، وفتيات المقهى ينظرن اليها والي بين الحين والآخر. وهي ترى. قربت وجهها من أذني هامسة:

ـ إنهن يتشوقن إليّ. فقربت فمي من أذنها هامسا أيضا:
ـ لأنك الأبهى والأجمل.
وبعد أن انتهى البونش قلت:
ـ هل (نتساقي) ايضا؟ ضحكت ناديا قائلة:
ـ لا تحاكني قلت. لنخرج. أريد أن اتمشى.
قالت ونحن سائران ناحية المتروبول:
ـ لا أعلم.. هل بدأت أغار من نينا بتروفنا؟
ـ أنت من عرفني بها.

ـ عرفتك. ولم أرم بك إلى أحضانها. هي التي استولت عليك. لا أريد أن أغار منها الآن. بعد زواجنا ستطرق الغيرة الباب. أي بعد ثلاث سنين. لا تقل لي: اربع أو خمس. (سأمنحها) طفلتها السمراء الجميلة. ستفرح بها فرحا غامرا. وستعتني بها اكثر مما نعتني نحن الأثنين. هي الطبيبة والأم المجربة. صحيح أنها لم تلدني. إلا أنها احتضنتني منذ الثانية من عمري. لا اذكر أنها عنفتني، مرة، تعنيفا قويا.. أو قصرت في إبهاجي. وها أنا ذي ارد اليها (الجميل). لكنني أنا.. أنا من أهداها أياك، فسرت بك سرورا لاحد له!

ـ أنت فتاة عادلة.

ـ لكن من يدري؟ قد تتزوجان أخيرا.

ضحكت ناديا ناظرة الي نظرتها الزرقاء المشتعلة:

ـ تزوجنا نحن الاثنتين. وتزوج الثالثة.. المطلقة الأخرى، المرحة. الا يحلل لكم دينكم الزواج من أربع؟

ـ إن ديننا يشترط ويقول: اذا عدلتم.

ـ ما أنت إلا من العادلين.. كما يخيل لي.

ـ ألا يخيل لك أن الرحيل إلى شقتي قد حان؟

ـ إلى شقتنا.

ـ واليمام النائم.. ألا يريد إيقاظا؟

ـ في يوم آخر من فضلك.

ـ لماذا ليس اليوم؟

ـ لست طوع يدك.

ـ أزائرة أنت غدا؟

ـ قبل صياح ديك السادسة.

ـ فجرا؟

ـ ما بك؟ مساء.

ـ عسى البارقة لا تخلف.
ـ من يعلم؟ قد يذبح الديك أو يأكله الثعلب فلا يصفق ولا يصيح.
ـ أقادمة انت غدا؟
ـ سأتلفن لك.
ـ سأتلفن أنا.

كانت تعرف أنني لن أتصل. فعبست وصمتت. لا أكره شيئا مثلما اكره انتظار تلفون قد يدق أو لايدق، أو انتظار ضيفٍ قد يجيء أو لا يجيء. لم تتكلم طيلة الطريق. فتعمدت الصمت مثلها. اوقفت السيارة فسبقتني إلى المدخل. فتبعتها وصعدنا معا. قالت نينا بتروفنا:

ـ أنا في أجازة غدا.
ـ ما رأيك أن نتعشى في مطعم؟
ـ ستأتي ناديا معنا.
ـ لست مجازة غدا. وأنا مرهقة.
قالت نينا بتروفنا ونحن ننتظر المصعد:
ـ هل أغضبتها؟
ـ إنها (مدللة) اكثر من ولية عهد صغيرة.
ـ إنها فريدتي.
ـ وانت فريدتي.
امسكت يدي بيدها الناعمة الحارة راجية:
ـ كن ليّنا معها.
ـ إنني اتجول معها اكثر مما يجوز.
ـ ما هي بالصاحبة المملة. في السيارة قالت فجأة .
ـ لماذا المطعم؟ عندك اهدأ وامتع!
ـ الطعام هناك اكثر تنوعا واطيب. سنتخير العشاء تخيرا متانيا. بل

سأدع الخيار كله لك. مكتفيا بالتطلع إلى وجهك الرائع الجمال.. إلى عينيك المتألقتين زرقة ونجوما.. إلى شفتيك التواقتين إلى فمي.
ـ انتبه إلى حركة الطريق، واكفف عن التغزل.
ـ أيّ مطعم تفضلين؟
ـ سواء لديّ. صدقني. اختر انت.
اخترت باكو. فلاح في خاطري وجه النادلة الشهية زهرة، فأردت أن اعدل عنه. وتذكرت تقربها (الزائد) من أحد الضباط. فأصررت على دخوله مع غادة زيزفون المستشفى. بعد اول نخبٍ رائق قالت:
ـ ما أحوج ناديا إلى صديق!
ـ آن أن أتنحى عنها. ما اكثر (طلابها)!
ـ اتصل بها اندريه. هل اخبرتك؟
ـ كلا. لم تقل شيئا.
ـ أمي هي التي رفعت السماعة. قالت لها إنه اندريه. وإنه يريد محادثتها. فرفضت ناديا رفضا قاطعا. فرجا إحدى صواحبها أن (تتوسط) في أمر عودته اليها زوجا محبا، أمينا.. ورفضت ايضا. بل قالت لصاحبتها إنها ستمتنع عن تحيتها اذا ما هي أعادت المحاولة.. وكنت أنا أول من انحاز إلى جانبها في موقفها هذا. ارجو اتخاذك موقفي اذا ما اخبرتك. لا شيء يجمع بينهما الآن. لا شيء. لن تجد معه الا الخيبة والملل. ليس هذا منه إلا رغبة عابرة.

ومعي انا؟ ليس لها مني الا النصف، بل أقل من النصف كما قالت ناديا نفسها مرة.. وإلا شبح زواج قد يتجسد، في ظنها، بعد ثلاث أو أربع سنوات. أما في ظني أنا فكل شيء (مؤجل). والى متى؟ لا ادري. هي فتاة طيبة. وهي تحبني الآن اكثر مما كنت آمل أو اريد. ونينا بتروفنا مصرة على (اللازواج)، على العيش معي هكذا.

ـ تلك النادلة. انت تعرفها.
ـ زهرة؟ إنها اذربيجانية.
ـ نصفها منا. ونصفها الآخر منهم.
ـ أو من غيركم.. ومن غيرهم.
ـ أحدثتك هي عن أصلها و(فصلها)؟
ـ كلا. لم تقل شيئا.
ـ فلماذا (تتشكك)؟
ـ قلت ما بدا لي.
ـ إنها تحدجني بعين كالغيرى.
ـ ما اكثر المتغزلين بها! انظري تري.
ـ لكنها تخصك بلفتات حرى.
ـ كانت متيمة بأحد الضباط الروس.

ماذا أقول لناديا غدا؟ لن اتكلم معها قبل ان تتكلم هي معي. إنها غنجة. وأية حسناء لا تتدلل؟ فلماذا لا تتغنج نينا بتروفنا؟ وما أدراك ما هي في المستشفى؟ أو في المعهد الطبي؟ لعن الله الكولونيل. بل قل لعن الله ياجو. ما لزهرة ترمي نينا بتروفنا بالنظر المماقت؟ هل اذكرها بضابطها؟ ومن قال لك إنها تتذكره؟ هل تتلفن ناديا، الليلة، اغاظة لنينا بتروفنا؟ لا اعرف امرأة أصبح وجها أو أجمل قواماً من نينا بتروفنا أو أحر معانقة منها معي فلماذا ناديا ولوسا. ولماذا تتمايل علي، في البال، الأخرى.. ايرينا؟

ـ ما لي اراك، الليلة، شارد الخيال؟
ـ ما أجملك بياضا وتورد وجنتين!
ـ هذه الرقصة هادئة.. اتود مراقصتي؟
ـ ما أحب الرقص معك إلى نفسي!

أحطّها بذراعي مفتتنا بطراوتها وتموجها، متذكرا قبلاتها الحارة، وعناقها، شاما أنفاسها العذبة وشعرها العبق، الأشقر الثقيل. وجدنا الشقة مظلمة، فأضأت مصباح الممر أولا. وعلقت معطفينا وغطائي الرأس. واخذت أوقد المصابيح الأخرى، وهي تسرح شعرها امام مرآة المشجب. الستائر مسدلة في البهو والمطبخ. والمائدة خالية. جئت بقنينة نبيذ لم يبق الا نصفها وكأسين. قالت نينا بتروفنا:

ـ لا تسكب لي من فضلك. سأكتفي بالقليل من كوبك.

ـ كما تريدين.

ـ لا أظن ناديا نائمة الآن.

ـ أمك نائمة فلا تتلفني.

ـ كلا. لن اتلفن.

ـ تركنا المطعم وهو في أوج سهرته.

ـ هكذا أفضل. اتصل بناديا غدا مساء. إنها غضبى عليك. يكفي ان تقول لها: مساء الخير.. فتنحسر الغيمة. لن تتلفن هي. أنت تعرفها. أعجبني منها رفضها أيّ حديث مع اندريه. شخص مثله موزع الصبابة بين العابرات لا يستأهل فتاة مثلها. طيلة زواجهما لم تصاحب رجلا غيره. أنا اعرفها. غير متقلبة الأهواء.

ـ انت لم ترتدي ثوبك المنزلي بعد.

ـ تعال إلى المخدع، واختر أيا منها يروقك.

ـ كلها لائقة بك.

ـ يبهجني أن تختار أنت.

لم اتلفن لناديا. بل انتظرتها في شقتهم. كانت نينا بتروفنا في المطبخ (جادة) في الحوار مع أمها. كنت اتفرج على التلفزيون. فتحت ناديا الباب وحيّتني، فأعنتها في انتزاع معطفها الأنيق. قالت كالمعتذرة:

ـ اتصلت بك من كشك التلفون ولم اجدك.
ـ جئت انتظرك هنا. اتودين التجول أو التوجه إلى مركز المدينة؟ سنمكث ساعة في مقهى البونش قبل الصعود إلى المطعم.
ـ دعني أغير ثيابي أولاً.
ـ أنت رائعة الثياب. هكذا.
ـ شكرا لك. أنت خير من يحكم على مظاهر النسوة.
ـ سنطلب الاذن من الجدة ونينا بتروفنا.
ـ أحب ان ارتدي بدلة أخرى.

هل لاح طيف شكٍ فاتر؟ طيف غيرة أو أسى في عيني نينا بتروفنا؟ لاح طيف ما.. انما ما هو؟ لست موقنا مما هو. لاح وخبا فيها بدا لي. لم نكن وحدنا في المصعد. فلم أقبلها. وكانت ترى انني أريد تقبيلها. ما أعجب تقلبات طبائع القلب! بعد اعتناق الليلة الفائتة وارتجاجها؟ لحظة تركنا المصعد وابتعد الناس أخذت وجهها بين يدي، وقبلته قائلاً:
ـ تعالي معي إلى الشقة رجاء.
ـ ليس اليوم. غدا أزورك.. أفضل.
وقبل أن نركب قالت كالمعتذرة:
ـ لن نصعد إلى المطعم. سنبقى في مقهى البونش ساعة، وتعيدني إلى البيت. أنا متعبة. سنبقى ساعتين إن أردت.
قلت مقبّلاً وجهها مرّة أخرى:
ـ أنا الليلة، عبد خارج إليك من القمقم.. انتظر أية اشارة منك، أي سؤالٍ أو طلب من صاحبة القمقم.
ـ لا تتملّقني.
ـ أنا أحبك اكثر مما أتصفح نفسي.
ـ لا تتفاصح من فضلك.

ـ أنا فلك في الصحراء الطافية.

ـ أنا صحارى في الفلك الطامي.

ـ متعادلان.

ـ قلت لا تتنمَّقْ.

لم نجد كرسياً واحدا خاليا في المقهى. قلت:

ـ في الناحية الأخرى مقهى أرحب.

ـ لا بونش هناك.

ـ قد يطول انتظارنا.

ـ لنشرب واقفين.

ـ قد لا تسمح (البارمانة).

ـ من أين تستنبط مفرداتك؟

ـ من مائدة ستخلو.

ـ لا أحد ينهض.

ـ ها هن يتناولن حقائبهن. لنسرع قبل غيرنا.

ـ لا أحد غيرنا.

ـ قد يستنبت الزبائن.

ـ كم تعجبني ذرابة لسانك اليوم!

ـ بونش وقهوة أم قهوة وبونش؟

ـ هات أيّ شيء وأرحني. سأساعدك.

ـ ابقي هنا من فضلك. قد يستلب المقعدان.

ـ حقيبتي هنا. لا أحد يجرؤ.

وعدت قائلا:

ـ هو ذا البونش الحلو. وسآتي بالقهوة المرة.

ـ ما ألطفك مضيفا!

ـ ينتظرك المزيد من البونشات.

ـ شكرا. قدح واحد لا غير.
ـ هل قرأتم في الابتدائية حكاية المضيف البخيل.
ـ لم نقرأها. ما هي حكايته؟
ـ حل أعرابي ضيفا عند أحدهم. كان الضيف جائعا. وقد تأخر إعداد الطعام. تأخر طويلا والضيف يتضور جوعا. أخيرا حضر الطعام. وكان ضئيلا، زهيدا. وقبل أن يأكل الضيف سأله صاحب الدار. كان قد ترك أهله في بلدٍ آخر، والأعرابي قادم من هناك:
ـ كيف حالُ كلبنا زريق؟
ـ مات كلبكم زريق.
ـ وكيف مات كلبنا زريق؟
ـ غص بعظم من عظام جملكم منيف.
ـ وهل مات جملنا منيف؟ كيف مات؟
ـ كثرة ما حمل من الماء إلى قبر زوجتك ام عصام.
ـ وهل ماتت زوجتي أم عصام؟ ما أماتها؟
ـ من كثرة بكائها على ابنك عصام.
ـ وهل مات ابني عصام؟ كيف مات؟
ـ انهدم بيتكم على رأسه.
فرفع المضيف هراوته يريد ضرب الضيف بها. ففرّ هذا جائعاً، ناجياً بنفسه ناسياً عصاه وصرّة ثيابه في بيت مضيفه الثائر، الغضوب. ضحكت ناديا ضحكا صافيا استلفت نظرات استطلاع عامة: من الساقية والجلاس. كانت قهوتي باردة، فذهبت لأجيء بفنجانين آخرين. قالت لي الساقية:

ـ كنت تقصّ على صاحبتك حكاية طريفة.. كما يبدو. هلا تفضّلت وقصصتها عليّ؟ وقهوتك على حسابي هذه المرة.

ـ أخشى أن تبرد قهوتي مرة أخرى. أعدك أن أروي لك الحكاية في وقتٍ آخر. في أقرب وقتٍ تتكرّم به عليّ الترجمة.
ـ وهل أوقاتك كلها للترجمة السعيدة الحظ؟
ـ نصفه للترجمة والنصف الآخر للنوم. اي إنني أعمل مترجماً نهاري كله. وأنام ليلي كله مستغرقاً في النوم.
قالت ناديا:
ـ ماذا كنت تقول للساقية؟ أهي حكاية اخرى؟ فاعدت عليها ما دار بيني وبينها. وهنا هتفت بي ناديا:
ـ لا قالت ولا قلت. لم تسألك المرأة الا سؤالا صغيرا واجبتها بجوابٍ صغير مثله. فلا تضف من فضلك ولا تؤلفْ.
ـ الا يحق للراوي أن يفسر وينقح؟
ـ بل يحق لي بونش آخر.
ـ ما أخف ظلك ضيفة!
ـ ألم ننته، بعد، من الضيافة والاضافة؟
ـ غدا تجدين الشقة مزدانة بأكاليل الترحيب.
ـ هات البونش وأرح واسترح.
ـ يقال إن للفنلنديين جذورا منغولية.
ـ سآتي أنا بقدحي قبل ان تجهز المجموعة القادمة على البونش.
ـ ها انا (معرج) على المضيفة.

نظرت ناديا صامتة اليّ وكأنها تقول: اعرف أنك تتعمد إغاظتي. اسرعت قائما وأنا أضحك. وجئت بقدحي بونش! حل مائدتنا فتى وفتاته. الفتاة جميلة إلا انها مهذارة. فحدقت إلى ناديا (شامتاً). ابتسمت هي عارفة (مقاصدي). التفتت الفتاة الي راجية أن أعطيها احدى سجائري الأجنبية. فتذكرت نادلة المقهى الآخر. ففكرت أن

ادعو ناديا اليه في المرة الآتية (شيطنة) مني. قدمت لهما لفافتين موقدا للفتاة أولا. شكرتني الفتاة، شكرني الفتى قائلاً إنه لا يدخن. تركت اللفافة قرب منفضة الفتاة قائلا:

ـ قد ترغبين بها.

شكرتني الفتاة ثانية مبتسمة لي ابتسامة (تودّدٍ) غضّت ناديا طرفها عنها. أما أنا فأخذت حذري وناديا تنظر إلي (متشكّكةً).

ـ ما رأيك بالصعود إلى المطعم؟ ليس بيننا وبينه غير السلم المرمري الابيض أو الأشهب. لم أعد أدري. ليس بيننا وبينه غير ثلاث خطوات.. فإذا أردنا الدقة: ليس غير خمس خطوات.. مثلما أظن.

ـ أمّي وجدّتي تتوقعان ان نشاركهما العشاء.

ـ لم تقل نينا بتروفنا كلمة عن المأدبة المنزلية.

ـ انا قلت: تتوقعان.

ـ وأنا أجزم أنهما قد فرغتا من العشاء.

ـ لا أميل إلى المطاعم الصاخبة.

ـ لم أجده، مرّة، ضاجاً.

ـ كان صاخبا كلما صعدنا اليه.

ـ أخيّرك بين مائدتين: فوق أو هناك.

ـ ليس في بيتك غير المعلّبات.

ـ أعدّت الطاهية عشاء طيّباً.

ـ لم أرَ طاهية في شقتك.

ـ إنها تطرق الباب صباحاً.. بين الحين والآخر.

ـ كنت اظن أنك من هيأ تلك الأطعمة الحميدة.

ـ أحيانا أنا.. أحيانا هي.

ـ اتفقنا ان ازورك غدا. فاحتفظ بنصيبي في الثلاجة.
ـ لنصعد. اعدك ألا نتأخر. غدا لديك عمل.
ـ ما ابرعك في إقناعي.. أنا الطيعة، المطيعة!
ـ وأنا السائق الساقي.
ـ قبل أن يستيقظ (المغاربة).
ـ لا تعكسي الحقائق. انت (المغربية) البليغة.
ـ أحيانا. لنقل سبع مراتٍ في الاسبوع.

ضحكنا كلنا. الفتى وصاحبته وأنا ونادبا. وارتقينا السلم المرمري المائل إلى البياض الشهبة. أومأت النادلة أن نتبعها إلى الركن القصي المطل على الساحة. كانت الستائر الطويلة البيضاء مسدلة على نوافذها. وكان الماء المعدني اول ما جاء، بعده النبيذ وسلطة العاصمة. الموسيقى تصدح، والقوم آخذون بالرقص. لم ادع ناديا الى(الحلبة). لا يطيب لها الرقص إلا بعد انتصاف القنينةٍ. كان يريحها الإصغاء إلي وأنا أحكي لها العديد من النوادر العربية القديمة، المتناثرة في المجلدات.. من المحفوظات أو مما قرأته حديثا في مكتبتي أو في مكتبة الآداب الأجنبية. وناديا تجيد الانكليزية، فقد علمتها نينا بتروفنا هذه اللغة منذ صغرها. وهي تجيدها إجادة تامة. قالت وهي تهيئ شطيرة كافيار أحمر، وتقدمها لي:

ـ هل أجد بعض هذه الحكايات اللطيفة مترجما إلى الانكليزية في مكتبة الآداب الأجنبية؟ لا بد من أن بعضها مترجم.
ـ علينا أن نسأل ونبحث. من المؤكد ان بعضها مترجم إلى الروسية. لدي كتاب (البخلاء) للجاحظ مترجما إلى الروسية. وقد نشر حديثا.
ـ ما معنى الجاحظ؟
ـ كانت له عينان كعيني الضفدعة فَلُقِّب بالجاحظ.

ـ هل يلقَّبون عندكم بالمحاسن أو العيوب الغالبة؟
ـ غالبا ينسبون إلى القبائل والبلدان. أحيانا يشتهرون بالصفة البارزة، كما ذكرت لك، كالجاحظ مثلاً أو البحتري وهو القصير أو الفرزدق وهو ذو الوجه الشبيه بالرغيف المحترق.
ـ أهو كاتب؟
ـ هو شاعر هجاء مقذع.
ـ لقد استحق لقبه.
ـ وقد ينسبون إلى الحرفة.. حرفته هو أو حرفة أبيه أو أجداده كالحدادة أو العطار نسبة إلى الحدادة والعطارة. وقد يكتفى باسم الأب أو الجد أو الاثنين معاً.. شأن بعض المؤلّفين في أيامنا هذه. فإذا رأوك وعرفوك في احدى مدننا فسيلقبونك بالروسية مثلاً أو بالشقراء أو بالشقراء الفاتنة الراقصة الخطى.
ـ ما أطوله لقباً. لا أريده.
ـ سنكتفي، إذاً، بالراقصة الخطى.
ـ هذا أبدع. فما اكثر الشقراوات!
ـ ما أوحش الشقة الليلة!
ـ تسل باضافة عددٍ من الصفحات إلى المخطوطة. وغدا أنا الزائرة (المنتظرة) أو (المنشودة) أو الراقصة الخطى. واختر انت ما يحلو لك منها، الليلة، للكتابة. والليل الآتي أو نصفه لي. لم أبرح مكتفية منك بالانصاف أو الأرباع. لا أحد يدري غير المصعد.
ـ ما ألطفك طيف شراع في بحيرةٍ ساكنة.
ـ زدني توسلاً.
ـ ما أرقك صدىً ابيض، تائها في الشطآن!
ـ لماذا لم تقل (خافتاً) مثلاً؟
ـ التيه حظي في زرقة اللجج الهادرة في عينيك.

ـ لو كنت في أجازة!
انحدرت بنا المركبة انحدارا هينا، تقول كالنشوى:
ـ لا أدري ما أسكرني: خمرتك أم أقوالك؟
أوصلتها حتى المصعد، وهناك أخذتها بين ذراعي مقبّلاً وجنتيها المتورِّدتين.
ـ قد يدخل أحد الجيران.
ـ الا يقتل الفتى فتاته؟
ـ انهم يعرفون أنك فتى نينا بتروفنا.
ـ متى يعرف العالم؟
ـ إني (جاريتكِ) الثالثة؟
وضحكت متذكِّرة:
ـ ترى أين هي لوسا الآن؟ في أي مرفإٍ من مرافئها؟
ـ لا أعرف شيئاً عنها.
ـ لا تقل إن الجارة (الفضولية) لم تزوِّدك بشيء من أنبائها المتفايضة.. بعد أن قرّ بها القرار في شقة أمها.
ـ لم تعد إلا ظلاً كما قلت مراراً.
ـ في المصعد أم في مرآة خزانتك؟
ـ لا تتمادي ممازحة رجاء.
ـ لا تغضب. أنا صاعدة و(هاجرة) إياك إلى كآبة الطريق المقفر إلا من ظلال الأشجار على الثلوج.. أو من أطياف بعضهن عارية في الأركان من الشقق الباردة، الخالية.. مثلما يزعم بعضهم.
ـ آن أن أعود إلى مسرح خيالات الدمى.
ـ لا (تتعال).. كنت أمزح.
قالت نينا بتروفنا:
ـ متى نتغدى في مطعم اتحاد الكتّاب؟ قلت مرة لي: إنه معروف. بجودته

في أرجاء العالم الثقافي كلّه.. هنا أو في الخارج.
قالت ناديا مسرعة:
ـ لماذا لا نتعشّى هناك؟
قالت نينا بتروفنا مبتسمة لي:
ـ سنراه مزدحماً في الليل. في النهار هو أقل ازدحاماً.
قالت ناديا غير ناظرة إليّ.
ـ كما تريدون. سواء لديّ.
قالت الجدة.
ـ لن أتخلّف عنكم هذه المرّة. قد أرى هناك بعض الأوجه من الشخصيات التي قرأت لها.. أو أقرأ لها الآن. انني اعرف صورهم.
قالت نينا بتروفنا:
ـ إن له منهم اصدقاء هناك. قالت ناديا كالمتبرّمة:
ـ لا أظنني ذاهبة معكم. قد يحلو التفرّج، هنا، إلى برنامجٍ تلفزيوني ما.. على سباقٍ من سباقات كرة القدم المنتظرة أو المعادة.
قالت نينا بتروفنا جادة:
ـ لن نذهب إلى هناك إن لم تذعني وتذهبي معنا.

وتذكرت فجأة أن الدخول إلى الاتحاد من المدخل الأمامي يتطلّب هوية العضوية أو تذكرة دعوة إلى حفل ما في القاعة. الا أن هناك المدخل الأرحب.. المدخل الثاني حيث لا تطلب الوثائق.. إلى الجناح الأصفر من المبنى حيث كان يعيش تولستوي (يقال إن المنزل كله كان أحد قصور الكاتب الإقطاعي).. لن يسمح بالدخول إلى المطعم من هناك. غير أن أي صديق من العاملين في القسم العربي سيدخلك من الباب الخلفي إلى المطعم. ولا أحد هناك تقريبا في الطريق إلى المطعم. واتفقنا أن نتغدى نهار الأحد.. قبل الساعة الثانية. قد لا أجد أحدا

في القسم العربي يوم الأحد. اتصلت بصديقٍ من أعضاء الاتحاد (كان طالبا معي).. قال إنه سينتظرني قبيل الثانية عند المدخل إلى الساحة الخلفية حيث تترك السيارات.

كانت نينا بتروفنا معي ليلة الأحد. نهضنا من النوم متأخرين. ومررنا بشقتها في الثانية عشرة.. حيث تنتظرنا الجدة وناديا. ومن هناك أخذنا طريقنا إلى اتحاد الكتاب.. بعد جولة في شوارع الأحد. لم أرَ أحداً، في المطعم، من الكتاب المعروفين غير جنكيز آيتماتوف. حيانا تحية لطيفة، وهو المعروف بطيبته. واكتفت الجدة بهذه التحية المرحّبة. (كنا قد التقينا بعد محاضرة له في معهدنا.. قدمني له طالب قرغيزي من اصدقائي في المعهد.)

وكنت أقول لنفسي ولا أدري لماذا؟
طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فالتفت الشيطان إليّ من صورة تولستوي قائلا:
فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
ـ هل كنت معه؟ مع المتنبي؟
قال الشيطان هازئاً، ماطا شفته:
ـ كنت معكما، أنت وناديا.
ـ صدق من صرح: الأنثى والذكر والشيطان ثالثهما.
ـ فتذكّر هذا، إن أمكنك، كلما انفردت بامرأة.

كان الغداء طيبا كما توقّعت نينا بتروفنا. وكانت الجدّة راضية عن الدعوة في مطعم غير اعتيادي. أما ناديا فلم تكن آبهة. ولربما كانت (تتقصد) اللارتياح. أنا اعرف مثلما (الصورة الملتحية) تعرف أنها لم تكن ترتجي الدعوة الا معها وحدها. لم يكن إلا غداءً جيداً في مطعم

غير فسيح، فآثرنا الخروج إلى الساحة الخلفية الرحبة حيث أوقفنا المركبة. قالت ناديا ونحن في الساحة المبقعة بالثلوج الرطبة:

ـ لا موسيقى.. لا رقص.

قالت نينا بتروفنا غير ملتفتة اليها:

ـ هو مطعم ضيق، والوقت نهار.

قلت مذكرا:

ـ والرقص لا يروقك في المطاعم الا بعد انتصاف ليل السهرة، ولا ترقصين الا مرة أو مرتين.. كما أعرف واذكر.

ـ ما أسرع ما تنسى يا صاح!

ـ قالت نينا بتروفنا آخذة بذراعي:

ـ دعها تتذمّر. لا تريد إلا المناكدة.

ـ أنتم من ألح عليّ (بزيارة) هذا الوجر الخانق.

قالت الجدة:

ـ أخطأنا فلم نتركك لحساء البارحة.

ـ ومن قال إن (مرقهم) لم (يدخر) منذ يومين؟

قالت نينا بتروفنا:

ـ قلت لا خير يرجى من مجادلتها.

ـ أنا لم أشأ الا معاتبة نفسي على إطاعتكم.

قلت كمن يخاطب نفسه:

ـ غضبت القبرة، مرة، فنأت عن بيدر القمح.

ـ ما أثراها حكمة.. أمثالك القروية!

فكنت أول الضاحكين. وطيلة الطريق كانت ناديا تتكلم وحدها. وكأن الجدة ونينا بتروفنا قد اتفقتا الا تنطقا بحرف. وقد لزمت الصمت انا الآخر. إلا أنني كنت أضحك مرغما، بين الحين والآخر، فتضحك الجدة

ونينا بتروفنا. وحين أوقفت السيارة عند المدخل إلى منزلهن كنت انتظر ان تتخلف ناديا مقترحة عليّ الذهاب إلى السينما مثلا. إلا أنها أسرعت ذاهبة معها قائلة، ملتفتة اليّ:

ـ قد نلتقي يوما ما.. فأبتسم لك ابتسامة ما.. كما قالت أو التصت مرة كاتبة خرقاء ما.. اسمها فرانسواز ساغان.

الا أنني لم اتقبل (الهزيمة) غنيمة كما يقال، فخرجت من السيارة داعيا نينا بتروفنا.. قائلا لها:

ـ رجاء نينا بتروفنا.. هل يمكنك قبول دعوتي إلى السينما أو إلى النزهة؟ لم يزل الوقت مبكرا للذهاب إلى البيت.

اشتعلت عينا ناديا غضبا ازرق، وسريعا ما أخفته، الا أن نينا بتروفنا قالت لي (وكأنني لم ادعها الا نكاية في ناديا):

ـ لماذا السينما؟ تعال معنا إلى البيت. وبعدئذٍ نفكر.

ـ هل يمكننا الجلوس على تلك المصطبة؟

قالت الجدة لها مبتسمة لي:

ـ ابقي معه. نحن صاعدتان.

ـ حقا أنا متعبة قليلا. قد ترغب ناديا بالنزهة أو مشاهدة فيلمٍ معك. الليل في اوله، والسينما قريبة.

قالت ناديا كالجادة:

ـ الدعوة لك.. لا لي.

ـ لا فرق. تجولي معه مادمت راغبة.

ـ بعد أن تصلني بطاقة دعوة مِلونة منه.

واضافت مازحة:

ـ ما أنا المرأة التي ذهبت بنفسها.. أضحية متطوعة إلى مخيم الهنود الحمر، وقد تعالت ألسنة النيران الصفراء ساعة انحدار الأصيل الغائم أو الصاحي (لم أعد أذكر) في قصة لورنس.

ـ تفضلي.. البطاقة في صندوق بريدكم.
ـ طيب. ما دامت الدعوة قد كتبت.
في الطريق قالت (معترضة):
ـ لست متجها إلى السينما.
ـ لا نقود معي. سندخل الشقة اولا.
ـ معي نقود.
ـ أنا صاحب الدعوة. فأنا من يدفع.
ـ لن أصعد. لم يبرح فراشك معطرا بأنفاس البارحة.
ـ سنكتفي (بالقعود) إلى المائدة.
ـ كلا. لست (ضرّة)
ـ الفيلم ممل. تفضلي وتعالي معي.
ـ لن أصعد. وسترى.
ـ وعدتك، مرة، بكتاب (البخلاء) المترجم إلى الروسية.
ـ غلبتني. إنما بشرطٍ.
ـ اشترطي.
ـ الليلة للشيخ ضفدع. وغدا لك.
ـ لو سمع الجاحظ لانتفض من قبره صائحا: لبيك يا ناديا لبيك.. أنا عبد بين يديك! ولزفه الموتى من البصرة إلى موسكو مطبلين، مزمّرين: هنيئا لك يا شيخ. عرس جليل وليل طويل. أضأنا الشقة، ونزعنا المعطفين وغطائي الرأس. قالت ناديا:
ـ أين هي الخيول والطبول؟
ـ من المعتوه الذي يتخلّى عن غادة البتولا (الوراقِ) هرم.. انهدمت على ظهره رفوفه المثقلة بالمجلدات، فقتلته؟
ـ يا للشيخ المسكين! ضع كتابة على الأريكة قرب حقيبتي قبل أن ننسى. أهي ترجمة أمينة؟ إن لدينا مستعربين جيّدين.

ـ ماذا تودين أن (نستقي)؟
ـ ليس الآن.
فأحطّها بذراعي مقبّلاً فاها، متذكرا:
بربك هل ضممت اليك ليلى
قبيل الصبح أو قبلت فاها؟
وهل رفت عليك قرون ليلى
رغيف الاقحوانة في نداها؟
قلت مقترحا:
ـ هل افتح القنينة الحمراء الآن؟
ـ هناك نصف قنينة في الثلاجة.
ـ وهذه؟
ـ اعدها إلى ثلاجتها الصغرى.
ـ تعالي إذن.
ـ بعد أن أستحمّ.
ـ غطاء الرأس النايلوني الأزرق في الحمام.
ـ رأيته مرارا معلقا.

خرجت ناديا من الحمام طازجة، مرتدية بيجامة شتوية لي. قبّلتها شاماً شعرها المسرّح، الفائح شذى مثيرا، فضممتها راغباً بالانعطاف بها إلى (هناك). فانفلتت مني ضاحكة، فارّة إلى المطبخ. وفتحتُ الثلاجة آخذة منها ما تريده مزة وعشاء. الرياح تهب قوية، مرقصة أشجار الحديقة العارية أو الخضراء الداكنة، والثلوج تتابع (جافة).. فأعدت الستائر على النافذة. ثم استرحنا إلى مائدة البهو غير مكترثين بالتلفزيون ورصانته.

ـ دع التلفون يدقّ اذا أخذ يدقّ.

ـ ربما هو خبر مهم.
ـ كلا. ستظن نينا بتروفنا أنني نائمة معك.
ـ خيّل لي، مرة، أنها(تعلم).
ـ لا تعلم. لو عرفت لحظة لتركتك لي. امرأة بقوامها وجمالها لن ترتضي شريكة اخرى. ولماذا تتقبل؟ إن لها ألف معجبٍ ومعجب. تقول جدتي: كان التلفون لا يهدأ ساعة عندما كانت طالبةً في المعهدِ الطبي الأول. إلا أن المحاضرات والكتب الطبية كانت أعزّ عليها من أيّ موعد أو لقاء. ولم تتزوجْ. ولا أدري لماذا؟ تقول جدتي: لقد خطبها العشرات. وكانت تعتذر. لماذا؟ لا أحد يدري، ولا الجدة نفسها. في أول مرة عرفتك بها (وكنت متخابثة) كنت أظن أن حظك معها حظ الآخرين الخائبين. لكنني لم استغربْ أنك فزت بها. فمنذ أول نظرة ألقتها عليك تبين لي ظفرك. أمّا اختيارك، إلى جانبها، هذه المرأة أو تلك فهو أمر لا يستبعد من فتى متقلب الطباع مثلك. ولن ألوم الا نفسي مادمت قد قنعت بالربع أو النصف من الفراش.
وضحكت متسائلة:
ـ هل عاد الثلث فأصبح نصفاً حقاً؟
ـ لا تمزحي. ولكن الجدة.. ألا تتساءل؟
ـ إنها تشك بي.. لا بك.
ـ كيف؟
ـ لم تزل تقول (متوعِّدة) أنني أخطِّط لاختطافك من نينا بتروفنا. أو تقول (مازحة): لم تحتفظ بزواجها وتريد اصطياد زوج امرأة أخرى. وكأنها ستفوز آخر الأمر.
ـ أتظنينها جادة؟
ـ لا ادري. أحياناً تتغلّب غيرتي على حذري.
ـ لا تبدو هذه النظرة غريبة أو مريبة. أنت فتاة في مقتبل العمر وفائقة

الجمال. وأية حسناء لا يشوب صفاء نظرتها ظل من الغيرة وهي ترى امرأة أخرى ترتدي وتتهيّأ في انتظار فتاها أو هي ساعية إلى شقته أو إلى لقائه عند السينما مثلاً؟

ـ إيضاح معقول.

وحين طفقتْ تتصفّح كتاب (البخلاء) تذكّرت فقلت:

ـ هل في نيتك الذهاب قريباً إلى المكتبة؟

ـ أية مكتبة؟

ـ عجباً! ألم (تمتلكي) بطاقة اشتراك؟

ـ أخبرني متى تذهب، وسألحق بك هناك.

ـ أنا هناك غداً عند الرابعة أو الخامسة.

ـ وهل يبقى لدينا وقت لقدح بونش؟

ـ لكنني لا أعرف كم ستمكثين هناك.

ـ كما تشاء.

ـ كما أشاء أو كما تتطلب قراءتك من الوقت؟

ـ يتوقّف هذا على مزاجي الشخصي غداً.

ـ تعالي إلى المكتبة، وسنعوج على المقهى لحظة ترغبين.

ـ ما ألطفك قارئاً ومنادماً!

ـ فإن لم تجدي وقتاً للمكتبة.. سأنتظرك في مقهى البونش.

ـ في السادسة من فضلك.

ـ لا فائدة من ساعة في مكتبة الآداب الأجنبية. أنا اعتدت البقاء هناك كلّما وجدت وقتاً أكثر من أربع ساعات. سأؤجل زيارة المكتبة إلى يوم آخر. سأنتظرك في مقهى البونش عند الخامسة وتعالي متى شئت. أوصلتها وعدت وأنا افكر بنينا بتروفنا: لماذا هذا اللقاء اليومي تقريبا مع ناديا؟ ماذا يتبقى من (ساعات فراغ) بايرون لنينا بتروفنا مادامت ناديا مصرّة على ملاقاتي كلّ أمسية؟ وكأنني خطيبها أو زوجها

السري؟ ترى من طوح بي إلى هذا المفترق من الحيرة؟ من ورطني؟ أنا أم ناديا؟ ام هي أقداري وتخبطاتي؟ ما الذي أريده من ناديا أو غيرها وانا أعشق نينا بتروفنا، وأحبها أكثر مما أحب نفسي؟ لماذا لا أقطع عني الحبائل كلها، وامنح نينا بتروفنا ، لقاء حبها الخالص، فراغي كله، وعواطفي كلها؟ ما الجدوى من (التغيير) الباطل؟ لا شيء يستسل عبر النافذة، ويسمع في الشقة الصامتة غير ولولة الرياح الهابة في أرجاء الليل والحديقة العارية. لا أحد في حياة نينا بتروفنا غيري، فلماذا لا أصفو لها صفاءها لي؟ الرياح تقوى هبوبا.. والستائرتتحرك. سأغلق الكوة في البهو، وأترك كوة النافذة في المطبخ منفتحة قليلاً. أما كوة المضجع فقد فرجتها ناديا. هل اتصل بناديا، الآن، وأقول لها إنني لا يمكنني انتظارها في مقهى البونش.. إن لدي شواغل أخرى؟ ما أنا غليظ الطبع هكذا. لا سبيل إلى (الحل الجبري) الا هذا. لا أستطيع. لا يمكنني تعكير صفو فتاةٍ آمنة. أقول لنفسي كما قلت لها مرارا:

دع المقادير تجري في أعنتها

أم أقول لنفسي (الطرقات والحديقة مقفرة وباردة في هذه الساعة من الليل، والفراش لم يزل مبعثرا):

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعدْ فانك انت الطاعم الكاسي..؟

كما قال، مرة، الصديق (المتسكع) الحُطَيأة؟ لم يتجلد الزجاج بعد. أرى الأضواء الصفراء، عبر النافذة، وأرى الأشجار، ولا أحد هناك غيرها. وتلوح لي المصطبة التي اقتعدتها في انتظار ضيفة الجيران.. عائدة من المطعم أو المخزن.. لا أدري من أين! حيتني ومضت في اتجاهٍ آخر غير اتجاه الشارع والمترو. متى جرى هذا؟ في أول الشتاء الماضي؟ قبل لقاء ناديا ونينا بتروفنا؟ قالت إنها ممثلة من لينينغراد. قلت: سأنتظرها

اليوم إلى أن تعود من المخزن أو المطعم. واستقبلتها مرحّباً، داعيا اياها إلى الجلوس على المصطبة. قالت: إنها باردة وضحكنا. قلت: أعرف مصطبة أدفأ. قالت: أين؟ قلت: في مركز المدينة. قالت: الطرقات ومماشي الحدائق كلها باردة في موسكو. قلت: المقاعد في المقاهي والمطاعم لم تتجمد بعد. ضحكت المرأة قائلة: إنك تسعى إلى مبتغاك متوقفا هنا، منعطفا إلى هناك. وذهبنا إلى مركز المدينة. لم نعد من هناك إلا مع العاشرة من الليل. دعوتها إلى (قدحٍ صغيرٍ) في الشقة.

لماذا أكتب هذا؟ لماذا الإطالة؟ اليس التلخيص هو الأجدى؟ هو الأعجل؟ هو الأدنى من الفحوى؟ وهو الأقرب إلى الجودة؟ في احدى حفلات البيوت (الراقية) سألت سيدة الكونت تولستوي: الم يكن بمقدورك تلخيص روايتك؟ إنها طويلة.. فلم يمكنني أن أقرأها. قال الكونت: صدقيني يا سيدتي.. هذا أقلّ تلخيص استطعت التوصل إليه. كانت السيّدة تعني رواية (أناّ كارينينا) وقَد ظهرت حديثاً. قد يصور الخريف كله بشجرةٍ تتعرى. وقد تصور كآبته بغراب تابع على فرع من فروعها. مثلما جاء في احدى ثلاثيات شاعر الهوكو اليابانية باثيو. أما الشتاء الروسي فمن الجائز أن يصور بزوبعةٍ ثلجيةٍ. أو بشجرة بتولا مغطاةٍ بالثلوج.

لم تكن الممثلة إلا ضيفة ليل عابر. أجل. كنا في المقهى ومنه إلى المطعم. لم أعرف إلا اسمها وأنها ممثلة. ولم اسألها عن عمرها. كانت امرأة شابة وجذابة. ولم تعرفْ هي الا اسمي، وأنني شاعر واعمل مترجما. وكان واضحا أنني أجنبي. اوصلتها، بالطبع كأي رجل مهذب، صباحا إلى محطة القطار.. بعد ان أخذت حقيبتها من الشقة المجاورة. غالبا ما تنتهي القصص العابرة هكذا. وبعد الترجمة وهبوط العتمات خرجت اتنزه قائلا لنفسي كمن يتذكر ولا يتذكر:

ما لي اجوب الليل والطرقات ما لي؟
لا السينمات تروق، لا مقهى ببالي.

قد يتفق لك ان تحجز فراشاً، في الدرجة الأولى من القطار.. ولا تدري شيئا عن المسافر الثاني. (ليس في القمرة غير سريرين) وتصعد ولا تجد أحداً غير حقيبةٍ كبيرة. ويطرق الباب قبل حركة القطار. وتدخل فتاة أو امرأة جميلة. ويتمّ التعارف. وتدعوها إلى مطعم القطار. والليل مظلم عبر زجاج العربة. وتعودان صديقين. قد لا ترغب بالرقاد إلى جانبك. وقد ترغب. غالبا ما تحبذ بعد انخاب العشاء. وتفترقان في محطة المدينة. أنت إلى اتجاهٍ وهي إلى اتجاهٍ آخر. قد تتبادلان التلفون أو العنوان. غير أن القصة لا تعدو مصافحة الوداع.. إلا نادراً. يقول المتنبي:

وللخود مني ليلة ثم بيننا
فلاة إلى غير اللقاء تجاب

مثل هذا قد يجري تماما بينك وبين امرأةٍ تصادفها على رصيف الشارع فتعجبك، فتتبعها. وتتحدث اليها وتدعوها إلى المطعم. وبعد المطعم إلى الشقة أو الغرفة. وتفترقان صباحا إلى غير ما لقاء. قد تتفقان على موعد. إلا أنه اتفاق لا غير. إن لكلٍ منكما شو اغله (مجاريه ومصباته) الأخرى. هي رغبة طائرة بالسهرة أو بتقضية الليل.. ربما. قالت نينا بتروفنا، وقد خرجنا من سينما الحي في الثامنة، تحت الثلوج الليلية، الناعمة:
ـ أنت ترتدي خفيفاً.
ـ إنه معطف مبطن بالفرو الدافئ.
ـ لم أره عليك من قبل.
ـ ما رأيك بالعشاء في مركز المدينة؟ إنها ليلة الأحد. السيارة (تنتظر)

عند المدخل إلى بيتكم. ونحن لم ندخل مطعماً منذ زمنٍ (بعيد).
ـ كنا هناك ليلة الأحد الماضية. لا (تتناس).
ـ وكأنني لم أجالسك مرّة في مطعم.
ـ قبل أن تلقاني عند المدخل إلى بيتنا، اشتريت، وأنا عائدة من الطريق، ما يلزم شراؤه للعشاء والسهرة.
كم من مرة قلت لك: دعي الاهتمام بالقنينة لي وحدي.
ـ لماذا؟ في شقتي انت ضيفي.
قلت جادّاً كالمازح:
ـ متى نطرح صفة الضيف عني؟
ـ ما بك؟ أنا لم أقل إلا مزاحا.
ـ طيب. أنا أفضل العشاء في المطعم أو في شقتي.
ـ وأنا (أقترح) شقتي.
ـ من الخير لنا كلّنا ألا أرى ناديا إلا لماماً.
ـ ليس من اللائق أن تنقطع عن زيارتي.
ـ لا حلّ إلا هذا.
وأضفت، ولا أدري أية رنّة اتخذ صوتي:
ـ سأعتذر لها في هدوءٍ عن (تجنبي) أيّ لقاء معها.
ـ لا أريد إغاظتها. لا أُريد فقدانها.
ـ لن تفقديها. هي في بيتها.
ـ سأخسرها (صديقة).
ـ بعد أسبوع أو أسبوعين من (تهرّبي) ستصاحب فتى طيباً. هي فتاة جميلة. سريعا ما تضيق ذرعاً بالوحشة أو مرافقة الفتيات إلى السينما. بل لن يتوقف الشبان عن مغازلة جمالٍ مثل جمالها والتودد اليه. كم لاحقتها نظراتهم وهي معي.
ـ ستكرهك. وقد تكرهني. لا أ ريد هذا.

ـ لن تكرهك. إنها تحبّك حبّ ابنةٍ أمّها.
ـ ستبغضك. ما أشق هذا عليّ. كلا. دع الأمور تجر مثلما هي جارية الآن. لا أرى في الأفق أية غمامة قد تقترب فتكدر صفو حبنا وهنائنا. لن يفرق بيني وبينك أي شيء.
ـ كما تريدين.
ـ وأنت آتٍ معي إلى شقتي وكأننا لم نتلفظ بحرفٍ واحد مما دار. قد تكن لك ناديا (مودة) ما. انما هي ليست الرغبة المعتلجة. ربما كان هذا لطف هوى في الأيام الأولى.. وخبا كما تخبو وتتوارى الرغبات الطارئة.. ولا أثر يتبقى منها.

يخيل لي أنها كانت تود (إقناع) نفسها. لم نجد ناديا في الشقة. أأنا الوحيد الذي يرى في ناديا فتاة مغرمة، وأن لها ضرة، وأنها ترى في كلٍ امرأة جميلةٍ، تحييني في الطريق أو المقهى، شريكة لها؟ سألت نينا بتروفنا عنها لحظة افتقدتها. قالت الجدة إنها مع صواحبها.

ـ هل قالت متى تعود؟
ـ قالت: سأتلفن اذا ما بدا لي أن اتأخر. أضافت ناظرة إلى الساعة:
ـ ربما هن ذاهبات إلى السينما.
قالت نينا بتروفنا:
ـ كنا في سينما الحي. ربما ذهبن إلى سينما اخرى.
ـ لم تقل إنهن يقصدن السينما نفسها.
وقبل الكأس الثانيةِ قالت نينا بتروفنا آسية:
ـ أرى المائدة مستوحشة بلا ناديا.

ضحكت الجدّة ناظرة إليّ كأنها غير مصدّقة. وسمعنا الباب

يفتح. انها ناديا في معطفها الشتوي الانيق، بغطاء رأسها الفرائي الابيض، متوردة الوجه، لا تدري أهي فرحة أم مرتفعة الحاجبين تساؤلا:

ـ مساء الخير.
واسرعت إلى اعانتها في انتزاع المعطف عنها.
ـ احضرت (المتذاكية) معها شابين: أحدهما لها والآخر (لي). ولم يكن الا جرواً. وبعد أقل من نصف ساعة من التجول الممل اعتذرت بصداعٍ مزعجٍ مفاجئ. ربما كنت فعلا مبتلاة بصداع.
قالت الجدة مازحة، جادة:
ـ يا للشاب العاثر الحظ! قالت ناديا كمن يتنفس ارتياحا:
ـ ما اكثرهم!
قالت نينا بتروفنا باسمة بسمتها الباثة على الابتهاج:
ـ لم يوفق الفتى معك. عسى أن يوفق مع غيرك.
لا أدري أيّ ابليس (او ديمون كما يقول الروس) قوّلني لاقول:
ـ وناديا فائزة غدا بغيره.

فتوقدت عيناها (حقدا أو مرارة) وانتأت بعينيها عني. لا شكّ أن الجدة ونينا بتروفنا لمحتا النظرة. ام هل لاح البرق الذي لاح لي وحدي، وراء هذه النظرة أو في طلائع السحب منها؟ عينا ناديا غائمتان حينا، ضاحكتان حينا آخر.. أو متسعتان فرحا طافرا وهي ترى نظرتي اليها. وكنت اقول لنفسي ايضا: بعد الليلة ستثأر ناديا مني أو من نينا بتروفنا نفسها. (ستصاحب) ربما غدا أو بعد غد صديقاً ما. أنا ونينا بتروفنا مغادران، بعد أقل من ساعة إلى شقتي.. إلى حيث تعرف وتتذكر ناديا النافذة والأغطية الناصعة البياض، والخطوات إلى المطبخ أو إلى الحمام والبهو وهي مرتدية بيجامتي،

والزجاج (يتغبش) والريح تتعاوى أو تتنصت الينا.

قبل آخر كأس التفتت نينا بتروفنا اليّ كالمتسائلة:
ـ هذا آخر كوبٍ لي.

لماذا هجرتها بعد يومين.. أو بعد ليلتين وهو الأصح؟ كانت آتية إلى موسكو (سائحة) من مينسك. التقيتهما معاً وأنا اتفرج على المعروضات في متحف بوشكين. كانت ستبقى أسبوعا أو أكثر في موسكو. فلماذا تركتها بعد يومين، قبل اسبوع من عودتها إلى مينسك؟ بعد المتحف دعوتها إلى البيت، إلى غرفتك في المنزل الطلابي الجماعي. وكان الصيف في أوجه. قالت لك إن اسمها لويزا، وإنها ألمانية من بلوروسيا. كان قوامها جذابا. وكانت مائلة إلى السمرة. كانت معها فتاة اخرى لا تريد (افتراقا) عنها.. مشترطة قبول الدعوة باصطحابها هي الأخرى. كانت لويزا صامتة، والاخرى تتشبث بشرطها (خوفا) على لويزا. أخيرا أبعدتها عن الدعوة بالحسنى. واتيت غرفتك الطلابية مصطحبا لويزا.. بعد أن مررت بالمخزن المجاور مشترياً القنينة والعشاء. بعد ساعتين أو ثلاث، وانت تدنو بها من الفراش، أصرت لويزا على العودة إلى (البيت). أصرّت اصراراً قوياً..(لا رجوع عنه). كنت يائساً. فأغلقت الباب واضعاً المفتاح في جيبك.. قائلاً لها: الباب مقفل، فاخرجي إن اردت. وأذعنت لويزا. بعدئذ كانت تقول لك: اتدري؟ لو أنك تركتني أخرج لكرهتك إلى آخر لحظة في حياتي. فلماذا تركتها بعد يومين؟ بل عودتها إلى مينسك بأسبوع؟ كنتما واقفين في الصف الطويل إلى متحف بوشكين؟.. بغية التفرج على لوحات تعرض مؤقتاً.. أتوا بها من اللوفر الفرنسي، أهمّها أعمال معروفة للفنان الرومانسي ديلا كروا، من بينها لوحته الحمراء الشهيرة (الحرية). قبلكما في الصف كانت تقف امرأة وابنتها. قالت المرأة لابنتها بعد (نظراتها اليك): (غداً أنت

ذاهبة إلى الداجا لزيارة ابيك. وسأبقى وحدي في الشقة) والتفتت اليك، وعندما أخذ الرذاذ يهمي قالت مخاطبة ابنتها ولويزا معاً: ابقيا أنتما هنا. انتما اصغر عمرا منا. لن يضرّ بكما الرذاد. أما نحن(مشيرة اليك) فذاهبان إلى هناك. وهي تعني موقف الحافلة ذا السقف المقابل عبر الشارع العريض.. واومأت لك (آمرة) أن تتبعها. وهناك تحت سقيفة الموقف اتفقتما على اللقاء صباحا. وسريعا ما تبعتكما لويزا راكضة. قالت المرأة: ها هي آتية. ولعل الابنة هي التي حرّضتها على اللحاق بكما. لماذا تخليت عن لويزا بعد يومين؟ يا سريع التقلّب!

إن وجه الدجى انيتا تجلى
عن صباحٍ من مقلتيك أطلا

أهي نينا بتروفنا؟ أم ناديا؟ ام هما معا؟ أيها المثنوي! لم تثأرْ ناديا من غريمتها كما تراءى لي. ثأرها أن تزور الشقة أكثر مما تزور ها الأخرى. الريح تصفر صفيرها الكئيب عبر نافذة البهو، والثلوج.. لا أدري أو لم أعد أريد أن ادري أهي منهمرة أم لا، عبْر الستائر. وانا ونينا بتروفنا في البهو. وقد ارتدت بيجامة لي، بعد إلحاح مني. مع أن في الخزانة أثوابا منزلية لها لم تزل تتعدد، أشتريها انا أو تأتي بها هي ألوانا متباينة.

ـ أنا في بيجامتك كالعارية.

ـ إنها أثقل من أثوابك البيتية.

ـ انها(تفضحني).

ـ اي! إنها تمتلئ بمفاتنك أكثر من امتلاء الثوب بها.

ـ ربما.. الثوب أليق.

ـ عديني أننا سنتزوج يوم الاثنين.

قالت ضاحكة ضحكة ابتهاجٍ مازح:

ـ انا لست في أجازة يوم الاثنين.
ـ في الثلاثاء.
ـ أنا زوجتك. لماذا إعادة (التوقيع)؟
ـ متى وقّعنا؟
ـ في أول ليلة. أناسٍ أنت أم ناكر؟
ـ لن يهدأ لي بال إلّا بعد خروجنا من المكتب بوثيقة القِران.
ـ سأحمل القدحين إلى غرفة النوم.. وأضعها على طاولة السرير.
ـ سبحان من صوّرك وسوّاك!
ـ تعال معي إلى هناك من فضلك.
ـ أنا من يأخذ الكأسين.
ـ بل أنا.. واسمعْ وأطعْ.
ـ أتسمعين الرياح؟
ـ إنها مبتئسة. لا أ ريد سماعها وأنا ممتلئة بهجة.
ـ إنّها تذكّرني بليالٍ وليال.
ـ لا أريد أن اتذكّرَ إلا أوّل ليلةٍ لي معك.
ـ تلك الليلة كنا نسمع خفقاً عالياً.. خفق حذاء امرأةٍ عائدةٍ إلى بيتها. كانت وحيدة، مسرعة. وكأن قرع حذائها يملأ الليل كلّه. اتذكّره متتابعاً في جوف الليل الصامت.. آتيا من الشارع واطئا، فمرتفعاً شيئا بعد شيءٍ، فمتعاليا، قويا تحت نافذتنا، فمتباعدا، آخذا بالهبوط، فمتلاشيا، منقطعًا أخيرا.. لا أدري أين.
ـ عند مدخل بيتٍ من البيوت المجاورة.
ـ ما أحزنها عودةً!
ـ ما ادراك أنها كانت مغتمة الفؤاد؟ ربما كانت عائدة من لقاء صاحبٍ لها في بيته أو في المسرح أو السينما. أو كانت راجعة من خفارةٍ ماً.. من مكانٍ ناءٍ ما. لا تصغِ في سكون الليل إلا إلى أصوات خطاي وأنا

آتية اليك من المستشفى، بعد تأخرٍ طويلٍ لم نكن نتوقعه.. بعد عمليةٍ جراحيةٍ مستعجلة.

ـ وقبل أن تطرقي الباب افتحه مسرعا، فقد كنت مترقبا وقوف المصعد. وقبل ان تدخلي آخذك بين ذراعيّ بمعطفك المندى وغطاء رأسك، ووجهك المتورِّد وقوامك الممتلئ الدافئ.. واحمرار وجنتيك المشبوب، وانفاسك العذبة الحارة.

ـ اتسمع؟ إنها عائدة الآن إلى بيتها.

ـ كلا. ليست هي.

ـ ما أدراك؟

ـ آنذاك كنت أصغي عبر نافذةٍ غير هذه.. في حيّ آخر، وإلى طريقٍ مقفر غير هذا الطريق.. وقبل أربعة أعوامٍ.

ـ إنها هي. وإنّ في علوّ وقع خطاها فرحاً!

ـ ما أرق قلبك ترفقاً بالناس!

ـ اصغ جيدا من فضلك وقل لي: أليست هذه الخطى الداّقة، العالية والمسرعة إلّاخطى امرأةٍ عائدةٍ إلى بيتها من لقاءٍ بهيج؟

ـ أو هي ذاهبة إلى أحضان دافئة.

ـ هو ذا فتاي! فتاي الطيب!

ـ وتلاشى الوقع إلا صدى باهتا.

ـ وتلاشى الصدى الا صدى الصدى.

ـ اتعلمين أين نتغدى غداً؟

ـ في بيتنا.

ـ بل في مطعم الضاحية.

ـ وسنصحب أمي ونادِيا معنا إلى هناك.

ـ ينبغي أن نتفق معهما الآن.

ـ أمي نائمة. وهما تنتظران تلفوناً مني صباحاً.

ـ سنجد الغابة مجللة بالثلوج.
ـ إنها تتهاطل منذ الآن.
ـ وكيف عرفت؟
ـ أزح الستارة.
ـ قد اجد الزجاج متجلّداً فلا يرى في وضوح.
ـ لم يتجلدْ بعد. ربما آخر الليل.
ـ ما رأيك بزيارة الداجا الآن؟
ـ لا أحد هناك. لا تدفئة. سنتجمد برداً.
ـ أتعرفين بعضهم في القرى المتاخمة؟
ـ لا أعرف. أتفكر بجولةٍ إلى هناك؟
ـ في أحد الآحاد مثلا.
ـ لن تفد والجولة شائقة شتاءً. لا شيء غير العري والبرد. ولا صيد هناك، لو كنا من الصيادين. ما ابدع الرحلة إلى هناك صيفا بين الغابات والحقول المزروعة! لكننا لا نعرف أين يسمح وأين لا يسمح. تكفينا الضواحي المتسعة، المحيطة بموسكو، المتفجرة اخضرارا قبل اصفرار الخريف أو احمراره. ان لدينا خريفين كما تعلم: اصفر واحمر. مرة هو أصفر ومرة هو أحمر.
وأضافت بعد تفكير:
ـ هل زرت بورودينو؟
ـ أجل. ووقفنا حيث سقط الامير اندريه جريحا مثلما تخيل واختار البقعة المعشوشبة من السهل الواطئ الكونت تولستوي في (الحرب والسلام). ورأينا العمود التذكاري الذي نصبه جيش نابليون.. قبل زحفه على موسكو ونشوب الحرائق.
ـ لقد أمر نابليون باطفائها.
ـ وتم إطفاؤها باشارةٍ صغيرةٍ منه.

ـ وهزمته مجمات الأنصار والصقيع.
ـ يا للوضع البشري!
ـ رماد ودخان!
ـ ما رأيك بنزهة تحت الثلوج؟
ـ لن تكون نزهة موفقة. إنها ثلوج رطبة. لن يحلو التمشي تحت الثلوج الا وهي جافة. سنترك خلفنا آثاراً طويلة عليها.. مصغيين إلى صفير الرياح. متدثرين بمعطفينا الثقيلين، الدافئين. مع سقوط الثلج ستخفّ حدة البرد. ويطيب استنشاق الهواء والتطلع إلى نوافذنا المضاءه، ونحن نعرف ان لنا وكراً دافئاً في انتظار الظلين الشريدين.. لا حارس يمنع دخول الضيفة، ولا دقاتٍ طارئة على الباب. لا شيء غير المائدة المنتظرة بزجاجتها الحمراء والقدحين البلوريين. والضوء في البهو يشتعل وينطفئ من تلقاء نفسه. والفراش الوثير بعدئذ.
ـ هل صحبتك الزوبعة الثلجية، وقد نزلت من آخر حافلات الليل؟
ـ أنا روسية. وهي مبعث سرور لي.
ـ أنا أحب ملاقاتها في ممشى الحديقة الليلي المقفر.
ـ والعواصف الرعدية الممطرة؟
ـ لا أحبّذ لقاءها الا عبر زجاج النافذة.
ـ ألم تَلْقَها مرّة في الشارع؟
ـ مرارا.. كما أذكر.
ـ وحثثت الخطى متعجّلاً إلى البيت.
ـ أحب السماء الغائمة قبل انهمارها.
ـ أنا أحب الشمس مثلما أحب الثلوج.
ـ لو وجدت نفسك تحت ظهيرة صيفنا لاحتفظت بحب الثلوج وحده. شد ما هي حامية، هناك، طيلة الصيف. وفي الشتاء يحتمى بها من البرد. والمصطلى هو الموقد أو الكانون في الليالي الباردة. في

الأرياف. في أول صيف لي في موسكو، بل في اوائل الصيف، رأيت ، مرة، بين المنازل في الحديقة، امراتين منطرحتين وظهراهما العاريان للشمس(الباردة).. ارتجاء شيء من السمرة.

ـ اسمررت لك، مرة، هناك عند البحر الأسود.

ـ لم يكن الا طيف سمرةٍ لا يرى في وضوح.

ـ في الصيف الآتي أعود اليك مشبوبة السمرة كبدوية.

ـ ابقي(مشوبة) البياض هكذا من فضلك.

ـ الا تريدني آخذة بعض اسمرارك؟

ـ أخشى على بشرتك الرقيقة من أشعة الشمس.

ـ سأكتفي، اذاً، بخيال سمرةٍ لا أكثر.

ـ حبذا لو اصطفنا معا!

ـ سنحاول. فإن لم نفلحْ.. مصطافنا الداجا.

ـ كم يروقني الشرب معك ونحن على السرير!

ـ أعدك بمثل هذه (المأدبة) كل ليلة أحد.

ـ لا أكاد أصدق أنك نائمة معي الليلة.

ـ تلمَّس تصدقْ.

ـ ايّ موضع منك؟

ـ أينما تشأ.

ـ ما ألطفك وأنعمك!

وضحكت قائلة:

ـ ما ابرعك مدغدغاً!

ـ لن أتزوَّج غيرك ما حييت.

ـ أنا من ستخطب لك.

ـ اسكتي.. اسكتي وإلا..

ـ والا.. ماذا؟

ـ سأمزق البيجامة عنك.
ـ إنها بيجامتك لا بيجامتي.
ـ نخب زواجنا ليلة الجمعة الآتية.. الليلة المباركة!
ـ نخب عرسنا الليلة.
ـ ومن الشهود؟
ـ صورنا المعلّقة على الحائط.
ـ ومن سيوقع الوثيقة قاضياً؟
ـ أنا وأنت.
ـ بعد الثانية عشرة من الليل؟
ـ لم ينتصف الليل بعد. لم تك تلك دقات الساعة. بل هي خطى امرأةٍ عابرةٍ، آتيةٍ من المترو إلى المنزل. لا أحد معها غير ظلها المديد!
ـ أو هو ظلّ عابرٍ ما.. ظلّ فتى تبعها من المترو متودداً، سائلاً اياها لقاء، وهي مسرعةً إلى بيتها، لافظة له موعدا ذائبا مع أول خطوة لها إلى المصعد الدافئ.
ـ يتراءى لي أن الظلّ ظلّك.
ـ والخطى خطاك.
ـ وهل اتفقنا على لقاء لن يذوب، غداة غدٍ؟
ـ بل بعد فراغنا من آخر كأس.
ـ ومتى يحين حينها؟
ـ الآن حان.

ربما كنت أتوقع مجاورة أيّ قارئ أو أية قارئةٍ غير ناديا. ما جاء بها قبلي إلى قاعة المطالعة في مكتبة الآداب الأجنبية، وفي الساعة الثالثة تقريبا؟ حييتها، واقتعدت كرسياً إلى جانبها. كانت تطلع رواية انكليزية جادة.. وكأنها آخر شيءٍ يهمها في الدنيا. تركتها لكتابها، وطفقت أقرأ في (زقاق المدق) لنجيب محفوظ.. أحسست بكوعها

يمسني برفقٍ فالتفت. قالت هامسة:

ـ متى نخرج؟

ـ أنا لم أحضر إلا منذ دقائق وبعد نصف ساعة همست أيضاً:

ـ منذ ثلاث ساعاتٍ وأنا هنا..

ـ تابعي ساعة اخرى وننصرف.

ـ كما تريد.

وكنت أقول لنفسي، ولا ادري: أمِن نفسي أنا ساخر أم من ناديا؟

الغاق منكفئ، والطاق منطفئ

والريح غضبى، وصحبي الغيم والغلس

مالت اراجيح مالي عن عناكبه

وقد جشأن، ووجه السوق مبتئس

لحظة ارتدينا معطفينا سالتها:

ـ ما جاء بك؟

ـ ما جاء بك.

ـ لم تقولي، البارحة، في شقتكم إنك في أجازة اليوم.

ـ اخذت (عطلة) في الثانية عشرة، وأسرعت إلى هنا.

ـ لماذا لم تمرَّ عليّ أو تتلفني.

ـ لم اشأ (اجتذابك) عن ترجماتك.

ـ إلى أين تودّين الآن؟

ـ لا بغية لي غير قدحٍ طويلٍ مترعٍ بالبونش.

ـ غلا الطالب وهان المطلوب.

ـ يا للأدب العالي!

ـ منك تعلمنا.

ـ أنا آسفة.. إذا (اقتلعتك) من قاعتك الساجية.

ـ أنا انتزعت لنفسي عن كرسي (اعترافي).
ـ أنتم لا (تعترفون).
ـ أنا قلتها تشبيهاً أو مجازاً.
ـ الثلج في وجهينا كالقطن الأبيض المنفوش.
ـ تشبيه غير مطابق.
ـ ما المطابق؟
ـ كخطوط المطر الابيض.
ـ بل كالدموع البيضاء.
ـ يا للبلاغة!
ـ منكم تعلّمنا.

فضحكت انا. فأخذتْ بذراعي قائلة:
ـ يزهوني أن اذرع الطرقات معك.. فأتلقّى نظرات الإعجاب من النسوة اليك، ومن الرجال إليّ، فأصعّر خدّي وأتعالى.
ـ التواضع من شيم الحسان الروسيات.
ـ اسخ بمنحةٍ على لحية المشجب البيضاء النحيلة الآن.
ـ هم ينتظرونها لحظة المغادرة.
ـ اسمعني وأطعني.
ـ لن تتعكزي، الليلة، على عذرٍ عن الصعود معي.
ـ على المطعم؟
ـ فإلى الشقة.
ـ ومتى تلكأت يا سريع النسيان؟
قالت الساقية وقد حييناها معا، أنا وناديا:
ـ أهلا بضيفيّ الأنيقين!
قالت ناديا، وكان المقهى غير مزدحم:

ـ سآخذ القهوة، وخُذْ انت البونش.

في المقهى المنفتح المجاور لا ترى غير العراقيين.. الطلبة بالطبع. أحيانا أحبّذ الجلوس فيه كلّما أتيته منفرداً. وهم لا يشربون هناك غير القهوة السوداء. ولم أر زينا. قيمة المقهى، ضائقة ذرعا بهم مرة، مع ترددهم اليومي، واكتفائهم بالقهوة. وكانت (تتودّدني) في (إباء). قالت النادلة، وزينا تصب لي القهوة السوداء: إنها تحبك. فقالت زينا: إن له لسانا. مرة جئت المقهى بعد غيابٍ طويلٍ، فقال أحد أصحابي: اين كنت؟ كم قد سألتْ زينا عنك! فذهبت اليها محيياً. كم يعجبني منها صبرها الطويل على جلوس الطلبة ساعاتٍ وساعات. أما القيمة السابقة، الجميلة الشقراء فما اشهاها!

وقد اختفت يومٍ نقل المقهى من بهو الفندق الأرضي إلى هذا الجانب حيث السلّم المرمريّ الأشهب، الصاعد إلى المطعم. كانت لي (أقصوصة) معها قبل عطلتي الصيفية. بعد عودتي من الجنوب كان المقهى قد نُقل، وقد اختفت هي، قالت ناديا:
ـ لم تدعني، مرة، الى المقهى المجاور.
ـ لا بونش هناك.. كما تعرفين.
ـ هناك كونياك وشمبانيا.
ـ بعد الهبوط.. قد نطرقه.
ـ من أخبرك أنني صاعدة؟
ـ الا تريدين أن تتعشي؟
ـ نتعشى في الشقة.
ـ في أية شقةٍ منهما؟
ـ ألم نتفقْ قبلِ دخول المقهى؟
ـ أخشى من تقلبات صيف موسكو.

ـ لا أسرع تلبداً وصحواً من سماء قلبك (الثلاثي).
ـ وأيّ قلبٍ غير مثلث كالكمثرى؟
ـ اعني المخبر لا المنظر.. يا برقا خلب!
ـ متى لم يمطر جيبي يدي نادلة؟
ـ متى سخوت إن لم تكن جذابة؟
ـ ما اعدلك من قاضية!
ـ ألم تخبرك نينا بتروفنا بخفارتها الليلة؟
ـ اخبرتني. أتودين تزجية الليلة عندي؟
ـ ستقلق جدتي.
قلت مازحاً:
ـ تلفني لها.
ـ وماذا أقول؟ هل أقول: لا تقلقي اذا ما تأخرت ياجدتي. انا ذاهبة معه إلى شقته. وسنقضي الليل كله في عناقٍ ووفاقٍ، وترويضٍ و(تعضيضٍ) على الفراش الحريري.. فراش نينا بتروفنا؟
ـ بل قولي لها: أنا الناهد وهو الشاهد.
ـ كفى بياناً وتبييناً. وهات بونشا آخر.
ـ وبعد المطعم؟
ـ لا مطعم اليوم. بل إلى إحدى الشقتين. والخيار لي.
ـ بل نضرب القرعة.
ـ هاك عشرة كوبيكات. والوجه لي.
ـ ليس هنا. بل تحت أبصار الشهود العدل.
ـ من هم شهودك (العادلون)؟
ـ الصور المعلّقة، عندي، على الحائط.
قالت كالهازئة:
ـ لماذا بعيداً في البهو؟ بل على غطاء سريرك الناصع.

ـ أنت منصفة كالخط المستقيم.
ـ بل كالخط المترنِّح إلى غرفة النوم.
ونظرت إلى ساعتها:
ـ اسمع. صدقاً انا لم اتذكرْ الا الآن. أوصتني نينا بتروفنا ألا أتأخر عن جدتي. لنؤجل البونش الثاني إلى الغد.
ـ سأوصلك وأعود.
ـ إلى اين؟
ـ أريد أن أتعشّى في المطعم.
ـ أنت عائد إلى نادلة المقهى الآخر.. نادلة السجائر.
ـ ما ذكرك بها؟
ـ تخميناً مني. لن تعود. في طريقنا إلى عربة أبولو سنمر بمخزن الأطعمة. ونبتاع قنينة نبيذ، وأيّ شيءٍ يلذك للمزة. العشاء معد في المطبخ. وسنصعد معا إلى شقتنا.. يدا بيد وساقاً إلى ساق.
ـ لماذا لم يبتدع الأولون ربة للغيرة؟
ـ لقد نصّبوني آجلاً.
ـ نعم ما تخيروا!
ـ وسنرقد في فراش نينا بتروفنا الخالي.
ـ ما بك؟ هل جننت؟
ـ أجل. جننت حيطة وتحذرا. مقهى (السجائر) لا يغلق الا في الحادية عشرة. ستجد من الوقت متسعاً للحاق بالنادلة المتمايلة. بل يمكنك التشوف اليها عبر زجاج الواجهة الصقيل.
ـ الزجاج غائم بالبلل والدخان.
ـ آن أن نعوج على المخزن.
ـ لا ترضى نينا بتروفنا لي مبيتاً في غرفتها، وأنت في الشقة.
ـ ستشكرني نينا بتروفنا غدا. سأفتتح، الليلة، فصلاً جديداً من فصول

غرامياتك. لماذا خروجها من عشها الدافئ إلى شقتك، والتعرّض للبرد والزكام ربما؟ ستنتظر الطائر الزفاف في وكرها هي.

ـ فانتظري التوبيخ المر من لدنها.

ـ بل العرفان الجميل.

في المخزن قلت، ونحن نتطلّع إلى القناني المصفوفة:

ـ أيّ (رحيقٍ) تحبذ أثينا؟

ـ ليختر ديونيزوس أية قربةٍ تعجبه.

هل ارغمتني؟ أم إنني استطعت الرقاد في فراش نينا بتروفنا مع أنه خالٍ منها؟ دثرنا المركبة بغطائها، وصعدنا، وقد ازدحم المصعد بنا. فأخذوا يتضاحكون. وأعطتني ناديا ظهرها متعمدة تشويقي، وهي تعرف أنني نائم منفردا الليلة. أم هي تخطّط للتسلّل إليّ ساعة انتصاف الليل، وانشقاق (المكامن والزوايا) عن طوائف الرغبات؟ لِمَ يلذ لها النوم معي في فراش الأخرى؟

وتذكرت أول ليلةٍ لها في شقتي ونحن وحدنا، وانتظار كل منا زيارة من صاحبه، حتى تعب ترقبا واغفى. لن تجرؤ والجدّة حارسة الشقة. فاذا انتبهت الجدة إلى الخطوة المتلصصة؟ ستؤنّبها. فاذا ما صحت الجدة لحظة انفراج الباب عن الزائرة؟ ستشتمها وتطردني. لن تتجرّأ المطلّقة الشابة. وقبل أن تقول الجدة (ليلة هادئة) قلت (متعبا) والقنينة لم تتجاوز انتصافها بعد:

ـ ليلة هادئة.

وخطوات متمهلاً إلى ارتداء معطفي. قالت ناديا:

ـ لقد دثرنا المركبة.

ـ يمكنني إزاحة الدثار، واعادته إلى موضعه.

قالت الجدة:

ـ لماذا لا تنام هنا؟
ـ أنا انتظر تلفونا.

كانت عينا ناديا تشعان ريبة وتساؤلا. فتحت باب شقتي والتلفونْ يدق. فأسرعت اليه. وصمت قبل أن ارفع السماعة. وبعد أن ارتديت بيجامتي، وتهيّأت لآخر كأسٍ وللقراءة سمعته يدق. هي ناديا:

ـ أحببتُ أن اتأكد من رسو السفينة على الآنجر.
ـ كلّ شيء يميل بالمراكب إلى الشواطئ المسترخية.
ـ نم قرير النافذة والباب.
ـ لا قارع أو طارق الا الريح.
ـ فاذا انفتح المصعد عن طرقات يدٍ حارة؟
ـ لن يتفتح المرقد، الليلة، الا عن ثرثرة عجائز.
ـ ما أنا شيخة أو مهذارة.
ـ أنا الشيخ الهاذي.
ـ غدا مساء.. أنا القارعة.
ـ بعد خفارة الليلة لا عمل، غدا، لنينا بتروفنا.
ـ ليكن اللقاء بعد غدٍ.. أو بعده شهورٍ وشهور.
ـ أنا باقٍ منتظراً.
ـ يا متسولاً طرقة كفٍ من جارة الفضائح.
ـ لا ريب في أنك أيقظت الجدّة النائمة.
ـ لم أوقظْ الا مصائدك وتخرصاتك.
ـ مسحت يد الله الرحيمة عن وجهك الجميل عرق مقاضاتي.
ـ لماذا فررت؟
ـ لا مفرّ من الفرار.
ـ يا متسقط غمغمات آخر الليل!

ـ يا بياضاً ودافئاً أكثر بياضاً ودفئاً من غزليات العرب والفرس والروس! يـاربة مقهى البونش الصاعدة من نفق شارع غوركي متورِّدة الوجه.. مائلة القبعة، حاملة حقيبة ملأى بقلوب العشاق.. كما يقول عنوان قصة مملّة!

ـ يا فتًى مغروراً.. لفظتني طريحة سريرٍ مهجور!

ـ هل تعلمين (أيّ حزن يبعث المطر؟)

ـ ماذا؟ ماذا تريد أن تقول؟

ـ قال هذا شاعر منا، لم يعشقْه في فتوته (الفوارة) القصيرة حتى شبح امرأة.. حتى خيالِ امرأةٍ خلف الستائر (المتسترة).

ـ ما أبأسه شاعراً!

ـ كان من خيرة المتغزلين، البكّائين.

ـ أكان قبيحا، مفلساً؟

ـ وكان هزيلا كالخرقة البالية.

ـ لماذا تكرهه؟

ـ كان يكره اصدقائي. لا أكرهه الآن. بل أنا أنفر من مزاعم الأعجف انه ملتقى أحداق الحسان المتفجرات عافية. ما أحرّ ذراعيّ امتدا إلى تطويق قوامك الناعم الحار!

- قل: فاتني القطار إلى النادلة.

ـ ما رأيك، الآن، بنزهةٍ تحت الأشجار الساكنة، المثقلة بالثلوج؟ لا أحد في الطرقات.. لا صدى يوقظ الليل غير خفق خطوتينا. أقفلت السينمات مداخلها. الليل هادئ تماماً عما قريبٍ كخفقات (قلب الشاعر كيتس المصدور بعد انطفاء شعلته الباردة. والريح كمعزف هوميروس بعد انقطاع آخر اوتاره. والثلج رذاذ، وحوذي جيخوف مغطى به، والفرس الهزيلة المقرورة تحلم بدفء المعْلف. ولا نجم، في الأفق، يبشر المجوس، ولا دخان نار.

ـ تبت يداك. لماذا لم تبق؟
ـ سأنتظرك تحت الشرفة مثلما انتظر روميو جولييت.
ـ لا تحلمْ.. واعتنقْ رواية ما.
ـ وماذا أنت محتضنة إليك؟
ـ إفلاسك مني!

صباحا فوجئت بزيارة نينا بتروفنا.
ـ ما أبهجها صبيحة!
ـ امي تعرف أنني هنا.
وقبلتني قائلة ما معناه:
يا حبذا ريح الولد
ريح الخزامى في البلد
ـ أنت لم تفطري. سأهيئ لك إفطارا.
ـ انت الفتى الكسول الذي لم يفطر بعد. انا لم أفطرْ أيضا مؤجِّلة إفطاري إلى ساعة زيارتي المبكرة، وإعداد إفطار طيبٍ لنا. أرجو أن أجد في المطبخ ما يمكن أن أهيِّئ منه إفطارا أو ما يشبهُ الإفطار.
ـ كل شيءٍ تقريبا لديّ.
ـ أنا امزح.
ـ تعالي رجاء إلى البهو.. وسأعدّ أنا كلّ شيء
ـ أنت لم تسألني. ولا يبدو أنك تريد أن تسأل.
ـ عماذا اسأل؟
ـ عن زيارتي الصباحية.
ـ لا شيء أجمل من رؤيتك صباحاً.. بعد استيقاظي من ظلمة النوم!
ـ أنا لم ابرح انتظر السؤال.
ـ صدقيني.. لا سؤال لدي.

ـ طيب. أنا سأجيب عن سؤالي.. إنما فيما بعد.

خيّل لي أنني أرى ظل شك في عينيها (الروسيتين) الصباحيتين المشتعلتين لهباً أزرق صافياً. وأنها لم تسهر الليل كلّه أو أكثر الليل.. في مراقبة المرضى أو انتظار معاينة عجلى. قلت مقبّلاً وجهها الناعم الحاّر، وقد أخذتها مترفقاً بين ذراعيّ كمن يخشى عليها من أن تنكسر أو تتبدّد فجأة وتختفي كالرؤيا:

ـ إذهبي إلى المهجع، وارتدي بيجامة أو أحد أثوابك المنزلية.. أو اكتفي بروبي وحده فوق قميصك، أو كما تودّين.

قالت مقبّلة وجهي:

ـ لن اتعرّى لك الآن.. كما تتوامض لي عيناك.

وجاءت قائلة لي:

ـ أنا في روبك وحده.. فلا (تفضحني).

ولحظة ما بدأنا إفطارنا على مائدة المطبخ قالت:

ـ الآن أقول لك ما جاء بي مسقسقة كعصفورة البيدر المبكرة!

ـ أو كقبرة الشاعر شيلي.

ـ لا أريد تذكر الشعراء الغرقى.

ـ لننس من غرق أو من سيغرق.

ـ ما بك؟ انا فرحة.لا تظللّ صبيحتي.

ـ أنا آذان مصغية.

ـ كنت (أتوهّم) أنني (مصافحة) زائرة ما هنا.

ـ نينا بتروفنا.. رجاء.. أيّ مزاح إلا هذا.

ـ ما جرى لك؟ انا أمزح حقا! فيمَ اصفرار وجهك؟

ـ كلّ شيء إلا هذا.

ـ طيب. البارحة وأنا نائمة على الأريكة الصغيرة حلمت بك وأنت

تطوقني مسرعا بي من الحمام، وأنا عارية ، إلى غرفة النوم.. وقد ابتلت. بيجامتك يابتلالي وابتلال شعري المحلول. وأفقت وأنا أقول (لا.لا. فيما بعد) لا ادري هل سمعتني الممرضة؟ فقد أسرعت اليّ قائلة: (نينا بتروفنا.. نامي من فضلك وأنا أتولى كلّ شيء) لحظتها عرفت انني آتية اليك صباحا، وأنني موقظة بابك بطرقاتي.

ـ لا شيء أحبّ إليّ من رؤيتك!

ـ أظن أنني هتفت باسمك وأنا أقول (فيما بعد) وأن الممرضة قد سمعتني. لم أزل اتذكر ابتسامتها العارفة (المتعاطفة).. وكأنها تقول (أنا أفهم هذا) أنا كالمتأكدة من أنني هتفت باسمك. وهن كلهن في المستشفى يعرفن (قصتنا). بل يعرفن أكثر مما تظن.

قالت نينا بترفنا (أمي تعرف أنني هنا) ونادبا؟ هل تعرف؟ متى ارتضي اطراح قميص ناديا عنها لرجل آخر؟ وما أدراني أنه لم يطرح أو يمزق؟ الم أمزقه، مرة، نصفين، وقد (أبت) أن تنتزعه (تدللا)؟ أي ذكرى في لقاء نينا بتروفنا الصباحي، بعد تعجّلها عناقي وهي ساهرة في المستشفى؟ يا متذكرا شعراء القبرات الشغوفين! مالي أفكر(بقبرتي) ناديا، ويمامتا نينا بتروفنا تنتظران قبلاتي الحارة وانعطافي بها إلى غرفة النوم؟ أجاد أنا؟ أم داق غدا تلفون راقصة باليت (صحبتها) مصادفة قبل عامين؟

ـ لا أحب أن أراك تائه البال وأنا معك.

ـ أنا معك.

ـ فلا تطل النظر إلى زجاج النوافذ الأخرى.

ـ لا أرى غير نافذتي عينيك الزرقاوين.

ـ ما اكثرها (النوافذ) الزرق والخضر!

ـ لا ارتواء لي من فورة الزبد.

وأضفت مقبّلاً يديها:

ـ زبد بياضك النيوني الناصع!

ـ لا شيء يسرّني مثل انحناء اسمرارك على بياضي!

خرجت من الحمام ملتفة بمنشفتين كبيرتين:

ـ لا تدخل غرفة النوم من فضلك.

ـ لن أدخل. أنا ذاهب لأستحمّ.

وجدتها مرتدية بدلة اخرى من بدلاتها المعلّقة في خزانتي.. مسرورة، فائحة شذى مثيرا. كان ظهرها لي وهي تشعل التلفزيون. فأحطها بذراعي تائقاً، ومتوسلاً. فابتسمتْ لي بوجهها، ولم تزل مديرة ظهرها، وكأن في التلفزيون (تعطلا) ما. فهي تدير وتدير قائلة:

ـ أمي تنتظرنا في الشقة.

واضافت مستديرة ناحيتي:

ـ سنتغدى هناك.

ـ لن نذهب. أريد أن تبقي هنا.

ـ أنا عائدة معك ليلاً إلى هنا. إنما لا ينبغي لك أن ترجع بعد الغداء

ـ ماذا تريدين أن تقولي؟

ـ تنتظرك صحائف من الترجمة.

ـ البارحة أنجزت ما يتطلبه اليوم.

ـ لا مزاح مع العمل.

ـ لا ترجمة اليوم.. صدقيني.

ـ ما رأيك بأسبوع في لييننغراد؟

ـ لن يسمحوا لنا بالإقامة في غرفة واحدة.

ـ لماذا في الفندق؟ الفنادق غالية.. يمكننا استئجار غرفة.

ـ لسنا في لندن مثلاً.

ـ ليس في لندن وحدها تستأجر الغرف. لا إعلاناتٍ في الجرائد بالطبع عن الغرف التي يمكن استئجارها. غير ان العثور على غرفةٍ، من خلال المعارف، امر ميسور. أنا اعرف طبيبة هناك. إنها تسكن شقة مريحة مع ابنتها. لديها غرفة زائدة تؤجرها، أحياناً، لمن تثق بهم. قريبا اتصل بها ونتفق. الشقة نظيفة بالطبع. إلا أننا سنحمل معنا شراشفنا ومناشفنا. فكر جيدا وقل لي حتى يمكنك الحصول على أجازة أسبوع، وسأتخذ اجراءاتي أنا. خلال أسبوع. يمكنني(انتزاع) أجازةٍ لي.

ـ لن تعوزني أجازة. سأنجز عمل الأسبوع المرتقب خلال ثلاثة أيام قبل السفر. تبقى مسالة التأشيرة إلى هناك. وهي روتينية تقريبا. لنَ تبخل ادارتنا على مترجم (بارع) مثلي بالحصول على موافقة.

ـ كلّ شيءٍ سائر إلى الأمام كما يقول الفتية الروس.

ـ اتعلمين؟

ـ ماذا تريد أن (تستفهم)؟

ـ ليست الرحلة هي التي (تؤرقني).. بل القطار معك. سنركب قطار الليل، وسنقضي الليلة (المتهززة) في القمرة. لن نتعشى هنا. بل في مطعم القطار. ومن المطعم، عبر عددٍ من العربات إلى (غرفة النوم). وسنترك ستارة النافذة منحسرة عن الزجاج.. عن الليل.

ـ لن ترى شيئا غير أضواء القرى والبلدات المتنائرة.

ـ قد تصفو السماء ويطل البدر الكبير.

ـ وقد تتراكم السحب وتنهمر الثلوج.

ـ اليست الرحلة اكثر متعة في الصيف؟

ـ البحر والشمس الجنوبية هما (المحطة) الصيفية.

ـ قد يسعفنا الحظ فنلتقي هناك في منتجعٍ واحد.

ـ من يعلم؟ قد نتجاور.

وتذكرت ركوب الباص للقاء ناديا في بلدةٍ قائمةٍ بين منتجعينا، والذهاب إلى البحر والعودة إلى البلدة.. لينتظر كلٌّ منا حافلته. وتذكرت أول رحلةٍ لي إلى هناك، إلى مخيم الجامعة بعد شهور الكلية التحضيرية: النهوض المبكر قبل الفجر إلى مزارع الكولخوزات لقطاف الكرز، والسباحة في البحر، والرقص في الليل الصيفي مع الطالبات، في ساحة المخيم، والتجول مع الصبايا القرويات في الطرق الزراعية.. الهواء رائق، وانفاس الحقول عن قرب. وتشعبت بنا السبل بعد الرحلة. فمنهم من استقر في موسكو، وأنا منهم، ومنهم من شدّ الحقائب إلى المدن والاقاليم الأخرى.. إلى لفوف اوكييف أو باكو. وصديقنا الأرمني الظريف مغني الحفلات في قاعة جامعة موسكو.. إلى يريفان. كلّ مرةٍ وهو يغني (يا زهرة في خيالي) فإن لم يغنها هتفت به الفتيات الروسيات: التانغو العربي.. غن لنا التانغو العربي. أما موسيقى الجاز فكانت تعزفها فرقة مكوّنة (تلقائياً) من الطلبة الأفارقة.
ـ قبل استحمامي اخذتني هجعة ناعمة، مريحة.. مع أنني لم أسهرْ من الليل إلا أقلّه في المستشفى. أظنّ أن الأوان قد آن لننحدر إلى أمي.. والى الغداء الحار. لا مزيد من الخمرة من فضلك. مساء، بعد عودتنا إلى هنا، سنتمتع بنصف قنينةٍ رائق. دع الستائر منزاحة، وأطفىء المصابيح الا مصباح الممر.
الريح تهزّ الأشجار، المصاطب مهجورة. لماذا اتذكر كتفي ناديا العاريتين، وهذا السطر من قصيدةٍ قديمةٍ لي، كتبتها ونشرتها وأنا في الكورس الأول:
الفجر في كأسي؟

بعد الغداء تركت الشقة لترتاح نينا بتروفنا ما تشاء من الارتياح.. رغم رجائها استبقائي. لا ترجمة اليوم. فالى مكتبة الآداب الأجنبية،

ومنها إلى مقهى البونش.. أو إلى مقهى (السجائر) على رصيف شارع غوركي. ضحكت متذكرا بغض ناديا النادلة المتقربة. بل إلى مقهى البونش فقد تفكر ناديا باللجوء إليه ساعة العودة من العمل، عسى أن تلقاني. أصبحتْ تتردّد على المقهى، في الأيام الأخيرة، اكثر مما قد ترددت عليه عمرها كلّه. لن أتسرّع قاطعاً الأزقة العتيقة إلى الفندق، فقد تسبقني وتحتجز كرسيا لي. قد تضيق بالجلوس منفردة، فتنعطف إلى طرقات المكتبة الهادئة اول الليل البارد. سأراها في المكتبة أو في طرقات (الصفراء) أو في المقهى ممتصة البونش، ناظرة إلى حركة الستار الخيزراني الأصفر، المنحدر على الباب. القاعة ساكنة. قد تسمع حركات الأوراق وهي تقلب. وقد تنهض إحدى القارئات إلى النافذة لتتأمل السابلة في الزقاق الضيق المجاور.. أو لترى انحدار الليل على المدينة المتضوئة، الهائلة كما تعرفها. وأنا أقرأ الصفحات الأخيرة من (زقاق المدق). مركبتي (الرأسمالية) تجثم غير بعيدة عن تمثال عدو الرأسمالية الأول. وأنا أترقّب (شبح) فتاةٍ لا يظهر أو يظهر تحت أضواء القاعة القوية. وقد أتبينه في شعاع المِصباح النائي وأنا أحث الخطى إلى الفندق.. إلى ناديا؟ لم أجدْها في مقهى البونش. أين هي (الصغيرة العزيزة) كما تقول لوسا. وأين هي لوسا؟ لم تتلفنْ ولم تطرق يبدو أنها تنتظر اتصالا مني.. أو بطاقة ما. أنا مشتاق اليها، والى ممازحاتها. حييت واخذت فنجان قهوةٍ وقدح كونياكٍ صغيراً. القيمة تقول لي مستغربة:

ـ أراك مصطحباً (عزلتك) معك. أين (هي)؟

ـ قد تجيء.. أو لا تجيء.

ـ تعلّمْ أن تلزمهن بموعدٍ وثيق.

ـ من يقبض على ظل الطائر؟

ـ قد تسنح عصفورة بونشٍ أخرى.

ـ فاذا حضرتُ؟
ـ خيرّهما بين الجمع بينهما أو الجلوس إلى ثالثة.
ـ يا لك من امرأةٍ حكيمة!
ـ للبونش حكمته وحكمه.

الفنجان قبل القدح أم معه؟ سأتجرّعها حارة. البونش البارد فيما بعد. أين هي؟ ما أنا على موعدٍ معها.. فلماذا أترقّب؟ ولماذا هذا الطائر الأسود الصغير يرفرف فوق الطاولة أو فوق رأسي؟ هل أعرج على المقهى (الآخر) وأتفق مع النادلة (المتمايلة) ترفا، ونتفق على لقاء الحادية عشرة عند الواجهة، ومن هناك إلى المركبة الدافئة، فالى الشقة؟ وتبدأ النادلة سهرتها المتأخرة؟ ألم تتكهنْ ناديا باصطحاب الغنجة قبل المنتصف من الليل؟ ومن قال إنها غير متفقةٍ مع آخر؟ أو إنها لم تبرح تنتظر فراغ ذراعي الأجنبي أو مللة؟ وكنت أقول لنفسي ما قاله المعري والمتنبي معاً:

يا ساهر الثلج أيقظْ راقد القلم
في (الاوبشيشيت) غريب بات لم ينم
وتذكرت ما قلته قديماً، ولا أدري لماذا؟
يابطة في الليل تجأر، في الأعالي
فيم الرحيل إلى الشباك، الى الحبال؟
وانفتح الستار الخيزراني الأصفر عنها.. عن ناديا في بدلتها التي رأيتها فيها أول مرةٍ رأيتها. ما الذي ذكرها بها؟ وقبل أن تقتعد الكرسيّ المحتجز قالت بعد أن (تفضلت) بتحيةٍ مبسترة:
ـ أيّ اجتماعٍ ممل!
ـ ما أنا الا كُرة، وانت اللاعبة.
ـ في أية لعبةٍ منها؟

ـ في السلة والطائرة والقدم.
ـ ايها المريب! من كبّلني بك؟ كنت حرّة قبل أن أراك. كنت فراشة طلقة الجناحين، زاهية.. فما الذي عفّرني بك؟
جئت بقهوتها وبونشها، وهي ترمقني كالمتسائلة. شكرتني وابتدأت بالبونش. فجأة ابتسمتْ لي ابتسامة غريبة:
ـ لا تقل إنك لم تزمع المرور بمقهى الساقية (الخجول)؟
ـ لماذا وأنا انتظرك؟
ـ لم يكن بيننا اتفاق كما أذكر على (المنادمة) هنا.
ـ خلت أني سأمتعُ الطرف برؤيتك في المكتبة.
ـ ارتأت المديرة (النشطة) ابتكار اجتماعٍ شامل.
ـ أرى (الإرهاق) بيّناً على ملامحك.
ـ لست (متسكعة) مثلك.
ـ أنا أكدّ طيلة النهار كما تعهدين.
ـ ما ترجمة الأيام الثلاثة أو الساعات الثلاث، وهو الأصح، بأشغالٍ شاقة. من السرير إلى منضدة الكتابة.. واحتساء الشاي الحار أو القهوة المرة، المنبهة.. مع قدح كونياك صغير أو علبة بيرة.
ـ ليست الترجمة بالعمل الهيّن، السهل كماً يخيّل لك. إنني (أخلق) لا أترجم فقط. والبحث عن المفردات الأقرب إلى روح النص والأبلغ في ملفات ذهني أو في دهاليز المعاجم والذاكرة. وأجتهد وأتوخّى الصدق. قد لا تروقني هذه الكلمة فأنقلب عن غيرها. وقد اشطب السطر أو السطرين وأعيد الكتابة وأعيد. وأتوقف متأمّلاً سقف البهو أو النافذة. واتمشى منشطا فكري.
ـ لا للفتى الفطحلْ!
ـ ليست أيامي كحبّات المسبحة أعددها متشابهة، مكرورة. إنها تتجدَّد وتتلون.. يوماً للترجمة ويوماً للكتابة الشخصية، وآخر للتجوّل في

الطرقات اوائل الليل الغائم.. أو للقراءة في مكتبة الآداب الأجنبية، والخروج منها إلى مركز المدينة بحثا عن مقهى أزيح بأنسه غشاوة النهار المثقل بالجهد عن أجواء روحي ومسارب أفكاري. وقد أسلخ النهار كلّه قارئاً في عُشّي.

ـ أو(تتصفّح) في المقهى ساقَي هذه النادلة أو كتفيها.

ـ ما لي وللنادلات وانت وردة المقاهي الفواحة؟

ـ تغييرا وتنقلا.

ـ الليلة نرقى السلم المرمري.. ولا تحاجيّ.

ـ قد لا يستهويني سلّمكَ الوقور.

ـ ما أسرع ما تتبدل أهواؤك كأوراق الشجر!

ـ اوراق الشجر لا تتغيّر إلا مرتين في العام.

ـ هل يريحك (القعود) في مطعمٍ آخر؟

ـ انا مشوّقة إلى التشرّد.. إلى الليل.

ـ بعد هبوط المرمري الأشهب.

ـ لن نصعد..ولن نهبط.

ـ هل نبقى معلّقين في الهواء؟

ـ نتمشّى إلى المتروبول. (السماء) الغائمة هادئة هناك أيضاً. كلّما دخلت مطعماً معك خيّل لي أنني مقبلة على مشاهدة (كوميديا حب) لك مع هذه النادلة أو غيرها. أنت لا تنظر إليهن.. بل تتلمسّهن بنظراتك.

ـ الله يعلم أنني صافي السريرة كمياه الينابيع.

ـ أو كمياه الصنبور.

ـ وهو أنقى ماء كما يؤكدون في العالم كلّه.. أو في بعض قارات العالم.. أو بعض خرائط منه اذا أردنا الدقة.

ـ آن الرحيل إلى هناك.

ـ إلى أين؟
ـ إلى حيث لا نعرف أحدا أو يعرفنا أحد.
ـ إلى السينما.. لا يعرفنا أحد من الممثلين هناك أو نعرف أحدا منهم.. إلى الظلام وانشداد المشاهدين إلى الأحداث والحوار أتعلمين؟
ـ ماذا تريد ان تقول؟
ـ بعد الثورة.. أو بعد الحرب الأهلية أو اثناءها.. كان يتفق سكيران روسيان على أن من تقع عليه القرعة بينهما سيقتل من يجده جالسا إلى يمينه في السينما.. طفلا كان أو شيخا أو امرأة أو رجلا.. يطعنه بسكينه الطويلة، المسنونة، يستلها من جيبه ويغرزها في قلبه أو في أقرب موضع من القلب. ويخرج الشرير الجبان من السينما.. وهو لا يعرف من كان جالسا إلى جانبه. ليس هذا هو الروليت الروسي.. الروليت يعلو بلاعبه أو ينخفض به إلى القرارة السفلى.. إلى حيث كان دوستويفسكي يستعطي زوجته آخر جوربٍ لها، في اوربا، ليبيعه، ويركض بالثمن الزهيد إلى آلة القمار الدائرة. ويعود إلى زوجته (الثانية) الصبور نافضا جيبه الفارغ من أي فلس، أصفر الوجه، جائعا.. ويخطط لكتابة روايةٍ عليا.
ـ اكان هذا بعد رجوعه من المنفى؟
ـ بل بعد زواجه من سكرتيرته.. اثناء رحلته الخائبة إلى اوربا.
ـ تعسا له!
ـ كان متوهجا بمشاريعه الروائية المتحفزة!
ـ أنا أجد جيخوف أقرب إلى نفس كئيبةٍ مثل نفسي.
ـ هو الثلج الذائب أو الليل. وتولستوي العواصف الثلجية والحرب والسهوب. ودوستويفسكي الصغائر من النفوس المظلمة أو الثرثارة، الطالعة من خمارةٍ ما إلى أرملةٍ مصدورة زاعقةٍ بأطفال الرجل الآخر المذعورين. وكان غوركي فنانا فذا في تصويره المشردين.

فوجئت نينا بتروفنا ببعثةٍ طبيّةٍ إلى لينينغراد نفسها.. أثناء ما كنا نخطّط، أنا وهي، لرحلتنا إلى هناك. فلم يبقَ من مشروعنا إلا الدخان كما يقول المتنبي أو تورغينيف.. أو بقايا الدخان العالقة في شباك العنكبوت الريفي كما أقول أنا. لن تطول الرحلة غير عشرة أيام.. إلا أن (خطتنا) قد انتهت أو تقطعت كما يتقطع نسيج العناكب بيد طفلة لاهية.. أو طفلٍ لاهٍ. أيّ فرقٍ ؟ لا أدري.. هل تحرك (المدّ القمري) أسرع مما كنت اتوقع فارتفع. فاكتفتُ ناديا بالجلوس في مقهى البونش.. فإلى شقتهم بعد المقهى؟ كانت تبتسم وهي متكدِّرة، محزونة، تبتسم غائمة الناظرين. لم تعد تذكر لوسا أو النادلة بشيء. فإذا ذكّرتها بهما مازحاً اكتفت بالنظرة التائهة تطيلها إليّ أو هي ترميني بها عجلى شاردة.

انتظرنا، أنا وهي، نينا بتروفنا في المحطة صباح الأحد. وتركتهما في الشقة عائدا إلى بيتي رغم إلحاحهما عليّ بالبقاء. لو أن نينا بتروفنا كانت عائدة إلى شقتي لما تركتها لحظة. الا أنها في شقتها الآن، مع امها وناديا، وهي تريد أن تنام بعد الرحلة المتعبة. ما لناديا تتجنب زيارتي؟ تبتسم لي وتقبلني كلما أوصلتها عند المدخل إلى بيتهم بعد السينما أو المقهى. فاذا دعوتها، أول اللقاء، إلى الشقة لم تكن تعتذر بل تقول: في ما بعد، في مرةٍ اخرى. لم تكن مريضة. لا شيء غير النظرة الحيرى، المكتئبة. فأسألها آخذا يديها الدافئتين الجميلتين بين يدي برفق:

ـ أهناك شيء؟ أتُخفين عني سرّاً؟

ـ لا أخفي سرّاً عنك.

ـ فلماذا؟ لماذا أنت متنائية عني؟

ـ أنا معك. وأقرب اليك عن أي وقت مضى.

ـ هناك (شيء) لا ترومين أن تفصحي عنه.

ـ لا شيء غير.. الإجهاد.
ـ بكري غدا بالغدو مع نينا بتروفنا إلى المستشفى.
ـ لا تقلق.. صحبتي على خير ما يرام.
ـ فلماذا العزوف عن زيارتي؟
وضحكت مقبلة وجهي ونحن في الطريق إلى السينما:
ـ أتظنني (مريضة)؟ أنت موفور العافية.. فمن أين أتلقى (المرض) وأنا لا (أعرف) رجلا غيرك؟ لا تقلقْ. لا شيء غير التعب.
ـ لن نذهب إلى السينما.
ـ والى أين تريد أن نذهب؟
ـ إلى مقهى (السجائرية).
ضحكت آخذة بذراعي، قائلة:
ـ كن جادا. إلى أين تريد أن (تأخذني)؟
ـ إلى شقتي.
ـ ليس اليوم من فضلك.
ـ لماذا؟ خبريني لماذا؟
ـ قلت: ليس اليوم. في أقرب وقت.
ـ لماذا ليس اليوم؟
ـ يا الهي! قلت أنا مرهقة. اتريد ان تزيدني إرهاقا؟ ألا تعجبك مشاهدة الفيلم معي؟ يقال إنه ممتع.
ـ ما المتعة في الجلوس معك في الظلام الشامل؟
ـ لنذهبْ إلى شقتك.. إنما بلا..
وفي الشقة، وأنا أعلق معطفها الفرائي قالت كمن يتذكر:
ـ كأنني لم أزرك منذ قرون. أخذتها بين ذراعيّ مقبّلاً وهي تقول:
ـ فيما بعد.. سأتعرّى لك حتى تملّ مني
ـ ألا ترين أنني قلق.. أكثر قلقاً من أي امرئ في العالم؟

ـ أعرف.

ـ فلماذا تتكتمين.

ـ لا أخبئ سراً. أيّ سر صغير.

ـ تعالي إلى المائدة.. أو لنجلسْ على الأريكة الطويلة، المريحة. سأضع وسادة خلف ظهرك.ولا تلفزيون. لا شيء غير الهدوء التام.

واضفت قلقا، متأملا شحوب وجهها:

ـ أأنت مجازة؟

ـ كنت مجازة لثلاثة أيام.

ـ ولم تخبريني.

ـ لم أشأ إزعاجك. ما هي إلا (وعكة) وانتهت.

ـ فلماذا.. و(الوعكة) قد تولّت؟

ـ أنا أعني الإرهاق والضنى. ألا تريد أن (تضيفني)؟ إنك أنت المضيف البخيل. أنت قصصت عليّ حكايته. لن أقتص منك مثلما اقتص الأعرابيّ من مضيفه. اين هي القنينة؟ وأين هما القدحان الفائران رغوة شمبانيا؟ أم لم يبقَ لديك غير البيرة والويسكي؟

أنا أمزح. لا أبتغي غير المشاركة بنهلات طائر. لا تنظر اليّ هكذا كاسف الوجه وكأنني مريضة. لا شيء غير التعب.

ـ سيضرّك الشراب.

ـ لن يضرّ. ما بك؟ أنا مبتهجة بجلوسي معك.

وأضافت، وقد رأتني لا اتحرك:

ـ سآتي انا بقنينةٍ وكأسين.

ـ استريحي. سأجيء بكل شيء.

ـ أنا ذاهبة معك إلى المطبخ.

ـ لا تجهدي نفسك..

ـ الا تريد أن ادخل مطبخنا؟

ـ تعالي.. يا اعز عليّ من نفسي!
ـ أعلم

وبعد أن رجعنا إلى الأريكة الطويلة والطاولة الصغيرة بقنينة نبيذ أبيض خفيف وبكأسين وصحن فستق.. أبعدت المنفضة والسجائر من منضدة الكتابة إلى المطبخ. فقالت ناديا ضاحكة:

ـ أتظنني مصدورة مثلا؟ عد بسجائرك ومنفضتك إلى هنا.. من فضلك.لن يضايقني الدخان أو يسيء اليّ. افتح كوة النافذة ودخن. أنت لا تدخن الا قليلا. قيل لي أنه فيلم بولندي من الأفلام المتصفة بالنزوع إلى (التجديد). غدا نشاهده.. اذا رغبت. لا تنظرْ إلي وكأنني مريضة أو مسافرة إلى آخر الدنيا سأقول لك كل شيء. لا تفزع، ولا تتلبد عيناك غيوما. لا شيء. كل ما في الأمر أنني (توهمت) أنني حبلى. لم يكن الا توهماً. لست متأكدة حتى الآن. فإذا صح توجسي سأجهض. لا أريد الآن (مولوداً).
فصحت بها، وقد انتفضت حنقاً:
ـ لن تجهضي. سنتزوج غدا.
ـ ما بك؟ قلت لست متيقنة.
ـ غدا نتزوج. لن اسمح لك بالطرح ولن أغفر.
ـ افترض أنني حبلى واحتفلت بالطفل. وولدته ستعرف نينا بتروفنا كلّ شيء. كل من يعرفني ويعرفك سيعرف أنه ابنك.
ـ لن تجهضي. لن أغفر لك.
ـ غدا أتحقق من الأمر قيل لي إن أفضل وقتٍ للكشف هو الغد. لا تقلقْ. لن أجهض إلا بموافقة منك. أعرف جيداً أنك لن تسمح لي.
ـ أنا ذاهب معك غداً إلى هناك.
ـ لماذا؟ سأتلفن لك حالما أخرج من الفحص.

ـ سأكون معك. اسمعي. لا تتعرضي للكشف. احتفظي بالطفل. غدا نتزوج.لا شيء يستدعي الفحص. احتفظي بالطفل. سنتزوج.
ـ ألف مرة قلت لك: إن كنت مصرا سنتزوج بعد ثلاث سنين. ليس الآن. ألم نتفق مرارا على زواجنا بعد ثلاث سنوات؟ لماذا التعجل؟ لن تتألم نينا بتروفنا ولن تحزن بعد ثلاث سنين من رفضها القران بك. والآن.. اهدأ بالا ولا تفكر بأيّ شيءٍ عدا أنني زوجتك بعد ثلاث سنوات. وغدا بعد الكشف أنا قادمة اليك وقد توارى (التوهم) وزال كنفحة دخان. لن أنام معك اليوم لم أبرح قلقة، مشتتة الخواطر، غائمة النفس. غدا يصفو كلّ شيء. أنا آتية اليك غدا قبل الثانية. ربما في الثانية عشرة.
ـ عديني ألا تسقطي الطفل.
ـ اعدك.
وقبلتني قائلة:
ـ أنا أعرف أنك تحبني. الا أنني لم اكن أعلم، واغفر لي، أنك تحبني بمثل هذه القوة. لم أكن أجهل أنك كنت ستلقي بنفسك تحت عجلات المركبة قبل أن تصيبني بأقل أذى. يا رفيع الترجمة.
ـ احتفظي بالطفل، ولا تذهبي إلى هناك.
ـ لا بد أن اتأكد: أأنا واهمة أم لا؟
ـ فإذا صحّ الأمر: عديني مرة أخرى.
ـ أعدك. لن أخطو خطوة واحدة بلا موافقة منك. الآن.. اكففْ عن التجهم، وعد كوكتيليا مرحا. من هنا غداً إلى مقهى البونش. أو من هنا مساء إلى المقهى. ومن هناك إلى السلّم المرمري. أم تريد النهار في مكتبة الآداب الأجنبية؟ لا أظن. من المجنون، كما تقول أنت. الذي يتخلّى (أو يتنحّى.. قل كما تروم) عن تمزيق قميص ناديا العاري عنها.. حاثاً خطاه إلى الحوائط الجهمة؟ وان تكن هي حوائط قاعة

المطالعة.. حيث نلقى الزملاء كيتس وبايرون والجاحظ.
ـ لا تذهبي غدا إلى هناك.
ـ ما بك؟ لا بد من أن أتيقن.
ـ لماذا لم تخبريني لحظتها؟
ـ وماذا كان يمكنني أن أقول غير أنني اتوهم؟
ـ لا يحق لك إخفاء ذرة (وهم) عني.
ـ اليوم توهم. وغدا توحم. أنا امزح. غدا نفتتح المقهى السجائري ويفور القدحان بالزبد المتفايض.. زبد الشمبانيا.
في الثانية عشرة تقريبا رن التلفون. هي ناديا:
ـ ماذا أنت فاعل؟
ـ انتظر دخول هيرا من النافذة.
ـ من هي هيرا؟
ـ الهة الزواج عند اليونان.
ـ لا شيء مِمّا كنت أتوهّم. طرقت (الضيفة) الباب. أنا قادمة بعد الخامسة. كيف تسير الكتابة الهيروغليفية؟
ـ تقصدين المسمارية.
ـ أي فرق بينهما؟
ـ كالفرق بين الفرات والنيل.
ـ لا شيء بينهما غير قناةٍ ضيقة.
ـ هل تعرفين معنى الهيروغليفية؟
ـ الكتابة المصرية القديمة.
ـ وبمعنى أوسع: كلمة يونانية معناها الكتابة المقدسة المحفورة. وهي كتابة تصويرية اعتمدها المصريون القدماء، فكّ رموزها العالم الفرنسي شامبوليون، صاحب المعجم الهيروغليفي.
ـ والمسمارية.. بمعنى أضيق؟

ـ الكتابة العراقية القديمة. نشأت في الجنوب العراقي حوالي 3000 (ثلاثة آلاف عام) قبل الميلاد. اما رموزها أو علاماتها فكانت تأخذ شكلا مسماريا أو إسفينيا. وكانت تنقش على ألواح من الطين.
ـ إلى اللقاء.

خيل لي أنني كنت أسمع في صوتها (بحة) خيبة. أهي راغبة بالطفل أم بالزواج؟ ام بهما معاً؟ من أين لي أن أعرف؟ وعدت إلى منضدة الكتابة أترجم وأترجم. لم أعدْ أتطلع إلى الساعة. سأنتهي اليوم من (برنامج) اليومين الآتيين. هكذا كنت أقول لنفسي متذكرا هذه الصفحات المنتظرة. ذهبت إلى المطبخ لأعدّ لي فنجان قهوة. لا ثلوج وراء النافذة، والسماء متلبدة، والريح تحرك الشجر تحريكاً هيناً. لا أحد على المصاطب الباردة. وسمعت الباب يدقّ. ليست ناديا. أنا أعرف طرقاتها المتأنية. وليست لوسا. انا (أقرأ) أيضا دقاتها (المرحة). ترى من يدقّ؟ إنها الجارة الأخرى. وكدت أضحك عندما هتفت كالمعتذرة:

ـ ألديك ثقاب؟ كلما احتجت عوداً منه لا أجد العلبة. غالباً ما أنسى أين أضعها. وكأنني أخبئها عن السراق.
ـ وهذا ما يحدث لي أحيانا.
ـ هل أضعتها؟
ـ كلا. سآتي بها. قبل لحظةٍ أوقدت في المطبخ.
ـ ما هي أنباء جارتنا لوسا؟
ـ لم تعد جارة.
ـ أعني السابقة.
ـ لا أعرف الا تعرفين.
ـ ولكنها من (زائراتك) الجذابات. أرجو المعذرة. أنا امزح معك بالطبع. أنت شاب عزب. والصحبة زاد الوحشة.

من قال عنها إنها (فضولية)؟ ناديا أم لوسا؟ إنها لوسا. ينبغي أن أمر على المخزن لأعود بطبقة بيض. واحتاج سكرا وشايا. وثقابا أيضا. فقد (أكرمت) الجارة بآخر علبةٍ..(تقديرا) لاهتمامها بأخبار لوسا. سآتي بالبيض أولا. من يحمل طبقة بيضٍ بيدٍ واحدة؟ وأعود إلى المخزن لأجيء بالمشتريات الأخرى. وهناك افكّر مليا، وأمر على هذا الجناح أو ذاك من أجنحة المخزن فلا أنسى حاجة مما يهمني طيلة يومين أو ثلاثة. بعد العودة بالطبقة (المرموقة) سآخذ معي شبكة التسوق. بل أضعها الآن في جيب معطفي.. فلا أنسى. لم تقلْ ناديا أيّ شيءٍ عن (توهمها) لنينا بتروفنا.. كما آمل. وهبها أنبأتها (تطوعا) فما أنا بالأب المفترض الفريد. انتهت الرحلة إلى لينينغراد قبل أن تبدأ. أخذت أتلقى الثلج الناعم على وجهي وأنا تلقاء الريح الهابة. الليل لا يهبط رويدا هنا. بل سريعا ما تفاجأ به مطبقا.

قصصت على ناديا (قصة) الجارة الطارقة. ولم أخف (تشوقها) إلى الأخرى.. (المرحة). ضحكت ناديا قائلة:

ـ ما أنا الوحيدة التي تتسقط أنباءها.

ـ هل لك برشفةٍ قبل الطريق إلى البونش؟

ـ لا. شكرا. احتفظ (بعطشي) إلى البونش.

واضافت (غامزة):

ـ أم تريد (الآخر)؟ السجائري؟

ـ قد لا نجد بونشا هناك.

ـ سيعوضنا منه (بالمشية) المعبرة.

ـ اتفقنا أن نرقى السلم المرمري. وهو أقرب إلى الصين.

ـ الصين؟ ما أبعدها!

ـ اعني الخيزران.

وجدنا المقهى نصف خالٍ، فعجبنا، وسألنا القيمة فقالت:
ـ انصرف نصفهم قبل دقائق.
قالت ناديا، وقد حلا لها البونش:
ـ أراك اليوم (مدللا) إياي.
ـ لم افعل الا ما كنت افعله كلّ يوم.
ـ بل تترفق بي وكأنني (مريضة).
ـ هي طراوة حديثك.. ورقة فمك الممتلىء العذب.
ـ لكنك لم تقبّلني طويلا في الشقة.
ـ حزنا على انقشاع (الوهم).
ـ انتظرْ وسأملأ لك رياض الأطفال. انما فيما بعد.. شرط الا يدرك المخاض نادلة ما قبلي. لا تضحكْ. أنا (جادة).
ـ هل أفضيت إلى الدكتورة ببعض ظنونك؟
ـ كلا. لن اؤلمها لحظة ما حييت.
ـ ما أرقّ حنوّها عليك.
ـ كدت أن تنساها البارحة.
ـ كنت خائفا أن تؤذي نفسك.
ـ ألم تزل آملا الزواج منها.
ـ قطعتْ هي خيط الأمل قطعا باتا.
ـ رأفة بك.. كما يبدو لها.
ـ لماذا لم تتزوجْ؟
ـ لا أعرف. صدقني. إنها اكثر كبرياء مما قد نتصور
ـ اتدرين.. انني رجلها الأول؟
ـ أعرف. وجدتي تعرف.
ـ وعندما سألتها لماذا؟ لم تعطني أيّ تفصيل. لم تقل إلا أنني أول من أحبّته وارتضته. وخجلت أن أسألها أسئلة أخرى.

ـ ولم تُعِد السؤال؟
ـ كلا. إنني بين يديها كالمتعبد في المعبد.
ـ فلماذا اردت الزواج مني؟
ـ أولا: لقد أقنعتني هي الا فائدة من رجائي وتوسلي. ثانيا: هي اول من يكرهني اذا تركتك تسقطين الجنين. قبل أن تكرهيني أنت.
ـ لن أكرهك.
ـ ثالثاً: لا قوة على الأرض تمنعني من الزواج منك، وأنا أراك في الطريق إلى (سرير) الإجهاض. لحظتها أفضل أن أقتل نفسي قبل أن اراك مقبلة على أمر شنيعٍ مثل هذا
ـ لا فظاعة هنا. عشرات الفتيات يجهضن يوميا، وكأنهن ذاهبات إلى عملية استئصال الزائدة الدودية.
ـ اعرف. لكنني لا اتقبل هذا.
ـ أنا أفهمك في وضوحٍ تام.
ـ اتحبذين قدحا آخر؟
ـ ما بك؟ ماذا (سأحتسي) فوق؟ اتريد أن (تسكرني) منذ هذه الساعة؟ وفي انتظارنا قنينة نبيذٍ مترعة؟
ـ متى (نرتقي) المرمريَّ الأشهب؟
ـ آن أن (نتسلق).
على مائدة المطعم كان أول نخبٍ في صحة لوسا. ولا أدري لماذا استهوى ناديا هذا النخب (الطائش). لم تكن مازحة أو جادة. رفعتْ نخبها وكأنها تتلو بيتا من قصيدةٍ لم تخطر ببالها منذ سنين بعيدة.. منذ طفولتها ربما. ولم اسالها لماذا؟ غير أنني أردت أن (أحوك) هالة من المرح فوق المائدة، فاقترحت نخبا ثانيا قائلا:
ـ في صحة النادلة السجائرية.
ابتسمت ناديا منذرة إياي باصبعها على فمها:

ـ لا تحاركني.

وأضافت بعد تأملٍ قصير:

ـ لا أدري لماذا تدور هذه الفكرة التائهة في رأسي؟

ـ أية فكرةٍ؟

ـ لن نتخلى عن نينا بتروفنا بعد اقترانك بي.

ـ لن ترضى. أنت تعرفينها.

ـ ألم يحللْ لكم دينكم تعدد الزوجات؟

ـ هو ديننا.. لا دينكم.

ـ وأيّ فرق؟

ـ لا أحد يقنعها بالتعدد.. حباً أو زواجاً.

ـ لا أحد يقنعها غيرك.. صدقني.

ـ دعي هذا الاقتراح الطائر دائرا في خيالك. واسمحي لي أن أدخن لفافة لم أزل أترقب إيقادها مذ برحنا المقهى.

ـ واوقدْ لي غيرها.

ـ الأولى والأخيرة كما هي الحال في كل سهرة. فاذا زدات سأخبر نينا بتروفنا، وستؤنبك تأنيبا لا ينسى.

ـ هي تعلم أنني لا أدخن الا نادرا جدا.

ـ كلي رجاء.. لا يصح الشرب بلا طعام.

ـ أنت من لا يأكل. فأنا انتظرك. هي ذي شطيرة الكافيار الأولى أمامك. لم تزل زاهدا بها. وكأنك لا تراها. وكأن يدا غير يدي هيأتها لك. فلا تنصحْ مادمت تنسى نفسك وتنصح الآخرين. اسمع. صاحبنا.. صاحب (البخلاء) ما اسمه؟ دعني اتذكرْ. هو الجاحظ فيما أظنّ. ما الذي اقعده عن كتابة الرواية أو القصة القصيرة مثلا؟ لماذا اكتفاؤهم بالحكاية الصغيرة المليحة أو الخبر السار أو غير السار؟ أنا أعرف حكايات إيسوب، وافهم أنها ليست قصصا قصيرة كما نفهم القصة

اليوم. لماذا لم(يطوّروا) الملحمة، عندكم، فينشئوا منها قصة قصيرة؟ انهم لا يأخذون الا (الزبدة) أو المغزى من الحكاية أو الخبر التاريخي.. الطويل ربما.

ـ في القصائد الخمرية مثلا قد تجدين قصصا قصيرة، ليس كما نفهمها اليوم كما لا حظت أنت. انما هي (مشاريع) قصص أو تخطيطات قصصٍ قصيرة. ليس في الخمريات وحدها. في الشعر الغزلي ايضا.. أحيانا بل في القصائد (الذئبية) مثلا.

ـ الف ليلةٍ وليلة قصص وروايات قصيرة.

ـ قياسا إلى زمنها.

ـ كلّ أدبٍ أو فنّ يقاس إلى زمنه.

ـ بيكاسو ليس روفاييل. ولكنه ليس أقرب شأوا منه.

ـ لكن (يوليسيس) أقلّ شأنا من (الحرب والسلم).

ـ إن لها مساراً آخر.

ـ و(الاخوة كاراما زوف) هي الأخرى ليست في قوة (الحرب والسلم) أو في مثل بهاء أو جلال (أنا كارينينا). بينما تتأخر (بعث) تولستوي عن أية روايةٍ من روايات المنفي (المصروع).

ـ لا أرى في المقارنة، أحيانا، الا تشويشا.

ـ ألا ترى في دوستويفسكي راهباً (زائغاً)؟

ـ أحمد لفتاة الكيمياء همتها الأدبية.

انقضى النهار وأنا في الشقة.. اترجم أو أقرأ. لم أخرجْ الا إلى المطعم الصغير ساعة الغداء. وعدت اترجم آملا ان أسمع التلفون يدقّ. ولم يدقّ التلفون ولم يطرق الباب. ومن يقرع الباب غير الجارة سائلة عود ثقاب. الليل في اوله. لماذا لا أتصل بلوسا؟ عندما عدت من المطعم أبصرت الباب ينفتح عن امرأةٍ خلتها لوسا. الا أنها لم تكن هي. لها طول قامتها والتفاتتها والتفاف معطفها بها. لماذا لا أتصل بها؟ لن

أشرب (قدحا صغيرا) يقود ني إلى قدح آخر في الطريق الحريرية إلى الصين. الشيطان يعلم، كما يقول الروس، أين هي لوسا الآن. والليل يغطي بثلوجه كلّ شيء انها السابعة كما تقول ساعة الحائط. ويرنّ التلفون رنينه المفاجيء مالئا الشقة، بل مالئا الليل كله كما بدا لي.

ـ أنا لوسا. ما أبقاك في الشقة إلى الآن؟

ـ في انتظار تلفون منك.

ـ فلماذا لم تتلفنْ؟

ـ لا أدري متى أنت عائدة إلى البيت.. من شقة الصديقة المجاورة.

قلت: ربما هما تتفرّجان على الفيلم التلفزيوني الممل.

ـ ما فتئت تتذكرها.

ـ طيفا في مرآة البهو.

ـ ما رأيك أن أجيء بها اليك الآن؟

ـ لسنا في الف ليلةٍ وليلةٍ.

ـ بل نحن في ليلةٍ روسيهٍ من ليالي القرن العشرين.

ـ أنا آت اليكما الآن. انتظراني عند مدخل العمارة.

ـ لماذا؟ سنوقف ايّ تاكسي عابر.

ـ قد يطول وقوفكما في انتظار سيارةٍ. أنا قادم الآن.

ـ كن حذراً رجاءً.

في الشقة الدافئة، وقد انطرحت المعاطف على مشاجبها، وفوقها أغطية الرأس، لم يبق من البلل والثلج الا بقايا نداوة في فرو القبعة أو المعطف. وقد بدا الليل ساكنا تماما عبر النافذة. لا شيء غير الثلوج الناعمة. تكاد ايرينا تتراءى لي(أرقّ) جمالا من لوسا.. ادفأ ومائلة إلى الشحوب. إلا ان لوسا أبهج سطوعا ومرونة. قالتا وهما ألطف من الظل (المائج) في المياه:

ـ ابقَّ في البهو. ودع كلّ شيءٍ لنا.
ـ أأنتما في اجازة غدا؟
قالتا ضاحكتين:
ـ قد يعلن التلفزيون عطلة مفاجئة.
سريعا ما اشتعلت الأضواء، واصطفّت على مائدة البهو قنينة وأقداحا وآنية. قالت لوسا في غير ما اهتمام:
ـ (الجوّ) حارّ.. سنتعرّى.
ورنّ التلفون. والتفتت كلتاهما اليه. قالت لوسا:
ـ اتنتظر أحدا؟
ـ لا انتظر أحدا.
ـ أجبْ واعرف.
رفعت السماعة. وقلت:
ـ انها أختك.
ـ اختي؟ قالت إيرينا:
ـ اسرعي وأجيبي.

كان جليا من ردها أن أختها تنتظرها في المستشفى، وأن أمها مريضة هناك. فاسرعنا إلى ارتداء معاطفنا، وهبطنا غير منتظرين المصعد، فقد تأخر. اوقفه بعضهم مرتقبا أحدا ما. اسرعنا إلى السيارة، فالى المستشفى. لا أعرف أين هو المستشفى. كانت لوسا إلى جانبي تشير وتدلّ فكانما هي السائقة. اوقفت السيارة عند منعطف بدا لي.. أو ان لوسا هي التي امرتني بالوقوف عند أوله قريبا من حديقة المستشفى. وفتحت الباب كالفارة، قائلة:
ـ انتظراني هنا.. أو عند المناوبة.
وتركنا السيارة بعدها. الثلوج تتساقط. وكل شيءٍ ابيض.. أكتاف

الناس واكتاف الأشجار والطرقات. لم يكن الوقوف (مبهجا) على الرصيف المغطى بالثلوج. انعطفنا عبر الممشى الطويل بين الحديقتين المقفرتين العاريتين الا من الثلوج.. إلى باب المبنى. لم يسمح لنا بالدخول. فانتظرنا عند الباب إلى الممرّ الداخلي. المعاطف تعلق في غرفةٍ أخرى. وعند مكتبٍ آخر.. عبر ممر آخر رقّ قلب الممرضة فأدخلتناً إلى الممرّ الدافئ. ليس بيننا وبين البهو غير خطوتين. واقبلت لوسا بعد عشر دقائق كمن يزفّ بشرى غامضة:

ـ أمي نائمة. اعذراني عن إزعاجكما. تقول الطبيبة أو الممرضة.. لا ادري، إنها بخير. وسيسمح لها بالعودة إلى البيت غدا صباحا. لم يسمحوا لي بالبقاء معها. قبلتها قبل أن تغفو. وانا عائدة اليها صباحا. وأضافت، وقد خرجنا إلى ممشى الحديقتين متدثرين بالمعاطف واغطية الرأس، والثلوج قد كفت عن السقوط، والسماء متجهِّمة:

ـ فالى أين الآن؟

قالت إيرينا ضاحكة العينين:

ـ إلى حيث كنا.

كانت النوافذ الثلاث مشتعلة بين النوافذ الوضاءة الأخرى. ولم ينحدر المصعد الينا الا بعد تلكؤ. قالت لوسا:

ـ إنه الطابق الخامس. طالما (تعمدوا) تأخير المصعد هناك.

قالت ايرينا متسامحة:

ـ ولربما ليس الا توديعا ومصافحات.

كل شيءٍ على المائدة تقريباً. ليس بين البهو والمطبخ الا خطوات. ولم اعد ادري من هي المضيفة أو صاحبة البيت: لوسا أم إيرينا؟ كلتاهما كانتا (من الرقة كالماء إذ يهز الخيالا) وأنا بينهما كالحائر.. كالطائر الحائر بين الوكر الدافئ.. والوكر الدافئ الآخر. وغبشتْ

شاشة التلفزيون فأطفأته ايرينا. لا موسيقى رقص. لم أقلق الجيران مرة في ساعةٍ (متأخرةٍ) من الليل. قالت لوسا، ولم يزل في عينيها الشبيهتين بعيني تتيانا اسمايلوفا، شيء من القلق:

ـ غدا صباحا.. قبل السابعة سنوصل إيرينا إلى حيث تعمل. ومن هناك تسرع بي إلى مكانٍ قريب من مكان عملي. وتنتظرني. سانتزع اجازة يومٍ من المديرة وأعود اليك. ومن هناك إلى المستشفى. انا إلى أمي وأنت إلى بيتك. ساتلفن لك. ونتغدّى معاً.. في أي مطعم بعد أن اوصل امي إلى البيت واطمئنّ. الآن آن أن نهيئ فراشا آخر في البهو.. على الاريكة، بعد أن نطرح ظهرها جانبا. آن أن تنام.
أضحكتنا لوسا وهي تقص علينا (متذكرة) قصة بلزاك القصيرة عن الجوزة الفارغة.. لا أدري اين سمعت أو قرأت هذه القصة (الترفيهية) وأضافت بعد أن انتهت ضحكاتنا:
ـ لك النصف من فراشك بالطبع. والنصف الآخر لمن يعن لها. فراش البهو لواحدةٍ فقط. على ان تلتزم الهدوء كلّه من فضلك مقتسما السرير مع النائمة قسمة عادلة: لا تلمسها ولا تلمسك، ولا تميل اليها أو تميل اليك.. إلى أن تدقّ الساعة المنبهة.
قبل السادسة مساء تلفنت ناديا كمن تزف البشرى:
ـ نحن ذاهبتان الآن للتزلج في بارك غوركي.. هل لك بمرافقتنا؟
ـ انا آتٍ الآن.
وأضفتُ (مؤنباً):
ـ لماذا لم تتلفني نهارا؟ من قال إنني باقٍ في البيت إلى هذه الساعة؟
ـ قال لي من قال.
ـ من؟ من فضلك؟
ـ صورتك المعلقة في بهونا.

اودعتا هما المعطفين راعية المشاجب. وتركتا عندها حذاءيهما. واخرجت ناديا من حقيبة كالكيس جاءت بها معها حذائي التزلج. وانعطفنا إلى الساحة. كانت مائجة بالمتزلجين الراقصين. والموسيقى تصدح عاليا. دخلتا هما الساحة الجليدية، وانطلقتا تتزلجان. وبقيت أنا واقفا عند الحاجز أتفرج. بين الحين والآخر تقتربان مني ضاحكتين وتبتعدان مع الراقصين فرادا وأزواجاً. كانتا في بدلتين رياضيتين اكتسابهما قبل الخروج من الشقة كغيرهما من المتزلجين. وكان المكرفون (أو المكرفونات.. لا أدري) يصدح بموسيقاه الراقصة العالية.. موسيقى منطلقة ابتهاجاً. لا ظلّ نغم حزينٍ أو آس هنا.. مما تمتلىء به الأغاني الروسية في معظم الأحيان. قال أستاذنا مرة: سئلت، في المانيا الغربية، عن السرّ في الأسى (الكامن) أو الصريح في الأغنية الروسية.. فقلت إنه تتالي المآسي والفقدان عبر الحروب المتتابعة.. من الحرب الأولى إلى الأهلية.. إلى الثانية. اتذكر انني أضفت قائلا: ولربما أيضاً امتداد السهوب الروسية ووحشتها. وشعرت بالأسف الكظيم، وأنا أراني متفرجا لا مشاركا. وأين أنا من التزلج على الجليد، وهو رياضة لا يمكن أن يتعلمها من لم يتعلمها منذ طفولته.. الا بعد شهور من التدريب والتمرين، أو بعد كسر ساقين أو واحدةٍ منهما في الأقل؟ والعياذ بالله!

ألم اكن أسمع (صدى) خفياً من الكآبة في هذه الموسيقى المائجة، الراقصة؟ أم انني أتخيّل هذا تخيّلاً؟ أم هي وحشتي وعزلتي وقصوري عن المشاركة في التزلج الراقص، المنطلق كالطيور العائمة على أمواجها؟ لماذا لا تمجد الراقصة على الجليد (عالميا) مثلما تمجد راقصة الباليت؟ أهو (التعقيد) والفنّ العالي في الباليت وراء هذه الشهرة الفائضة؟ أم هو التاريخ الحافل الطويل لفنّ الباليت؟

خرجنا من البارك على السيارة، ونينا بتروفنا هي الآخذة بذراعي. لم تتعمد هذا.. بل هو ابتعادها عني اثناء التزلج، واقترابي منها رغبة واعجابا بعد أن رأيت ما رأيت من تموجها واتساقها. تركنا خلفنا، في البارك مطعم الشواء وقتاره يفوح، ونحن آسفون. لا يعترض أحد ونحن في البارك على دخولهما المطعم، وهما في الزي الرياضي. إلا أنهما لا تريدان دخول المطعم أو المقهى الا في الحلل الأنيفة. فاتجهنا إلى شقتهم. والى أين يمكننا أن نتجه إلا إليها أو إلى شقتي؟ ولم تكفّ ناديا عن التذكير بوقوفي عاجزا، متفرجا، كأنني أنا المسؤول عن خيبتي الرياضية.. أو أنني لم اصحبهما واقفْ الا تتبعا مني هذه المتزلجة أو تلك، فقد تقترب منّي ونتفق على لقاءٍ، وقد طال نظري اليها وتغزّلي الصامت بقوامها. ضحكت نينا بتروفنا، وناديا لم تزل تزيد تفنّناً في (اتهامي) ومعاتبتي:

ـ أنا شخصيا كنت راضية عن تمتّعه في التفرّج على هذه القامة الراقصة أو سواها. فلا تتعبي نفسك بتحريضي على لومي إياه أو الصد عنه. نحن لم نصحبه الا ليرفّه عن ذهنه المتعب.

ـ أنت ترين وتغضين الطرف.

ـ فإذا حلا هذا لي.. ما اعتراضك؟

كانتا تضحكان. وأنا لا ادري هل كانت ناديا مازحة أم جادة في تعذالي؟ بل كنت مائلا إلى أنها (ادركتني) وأنا أطيل النظر إلى تلك المتزلجة البارعة التي تركت وسط الساحة، واقتربت من الحاجز قريبا مني. لوكنت وحدي لوقفت حتى آخر التزلج منتظرا إياها، وكانت منفردة. اوصلتهما حتى باب المنزل الكبير ولم اخرج. قالت ناديا:

ـ إلى أين؟

ـ إلى البونش.

ـ اصعد معنا. سأغيّر ثيابي و(أتجوّل) معك.
ـ سأنتظر هنا.
ـ لماذا لا تصعد؟
ـ سنتأخر اذا صعدت.
ـ كلا. تعال وكن فتى طيعا.
وفي الطريق قلت تائقاً إلى مكانٍ آخر:
ـ في مقهى الشباب.. بونش ممتع!
ـ كلا. من فضلك. سنجده الساعة مكتظاً كخمارة بيرةٍ.

بدا لي أن الجدة كانت تريد ان تقول (شيئاً) لنينا بتروفنا.. ملاحظة ما عن ناديا وعني. اية إشارةٍ أو تنبيه؟ لا أعلم تماماً. ربما هو تخيل مني أو (تعمق). الم تقل لي نينا بتروفنا، مرة، ونحن خارجان من الشقة (واضح أنها مغرمة بك)؟ وناديا؟ مالذي يقنعها. بخلو صفاء، نينا بتروفنا من أي (ظلّ) تجاهها؟ أو اتجاهي؟ أهو (لهو) منها لا غير؟ اهو استخفاف منها؟ أوقفت المركبة في الموضع الذي اعتدت ايقافها فيه.. ليس بعيدا عن تمثال ابي الاشتراكية العلمية. واجتزنا الحديقة والطريقين المنحدرين حيالها إلى فندق موسكو.. وقد تركنا فندق المتروبول وراءنا، وأنا اتذكر النادلة الشقراء الغضة في مطعم وارشو.. أجمل نادلة رأيتها في موسكو. قبل المطعم كانت نادلة في مقهى الصداقة. لم أرها الا في الجانب الصيفي منه، في ساحته الصغيرة تحت الأشجار، حيث الموائد تحت مظلاتها الوردية المنبسطة احتماء من المطر. أودعنا الشيخ معطفينا ودخلنا المقهى. حييت المشرفة ومائدة اعرف وجهين من وجوهها. ووجدنا لنا كرسيين خاليين. قالت ناديا قبل أن نجلس:
ـ جيء بالبونش. وأنا أجيء بقهوتك.
ـ وأنت؟

ـ لا أريد غير البونش (طعماً) لي.

كانت انيقة جدا.. تتخير اثوابها من السوق الحرة معي تخيّراً متأنياً. إلا أنها غالبا ما كانت تشمل أناقة نينا بتروفنا البارعة بنظرةٍ غيرى. كان المقهى موئلا للصبايا والفتية. ورحنا نمتصّ البونش من خلال انبوبته النايلونية الرفيعة، الزرقاء مستمتعين، وهي تتأمل الدخان المتصاعد دوائر فوق المائدة. إلى جوارنا فتى وصاحبته. قالت ناديا فجأة:
ـ لا صعود اليوم.
ـ ازاهدة انتِ بالمرمري الأشهب أم بالمطعم؟
ـ بالاثنين معاً.
ـ المتروبول قريب. عبر الحديقة الصغيرة.
ـ لم اعد (اتقبل) صخب المطاعم.
ـ وأين نتعشى؟
ـ في (مطبخنا).
ـ الجدة نائمة. ولا تريد نينا بتروفنا ازعاجا لها.
ـ قلت (في مطبخنا). لن نزعج الجدة بشيء.
ـ لا ا ريد اجهاد نينا بتروفنا باعداد مائدةٍ لنا.
ـ أنا أعدها.
ـ ساوصلك حتى المدخل واعود إلى بيتي.
ـ انت تعلم أنني كنت امزح في السيارة. كنت اخفف من (اكتئابك) بعد وقوفك الطويل منفرجا عند حاجز التزلج. هو إتفاق مني ليس غير. لم اشأ (إغضاب) نينا بتروفنا عليك كما تظن.
ـ تعرفين أن نينا بتروفنا تريد، وقد استحمتْ بعد التزلج، ان تنام. لا أريد أن اقف حائلا بينها وبين النوم.
ـ انها تنتظرك.

ـ لم نتفق، الليلة، على لقاء.
ـ كما تريد. أنا أعود إلى بيتي. وارتق انت مرمريك الأشهب.. أو الأصفر الابيضّ. لا اعرف تماما أيّ لون واضح له.
ـ اوصلك و(أقصد) بيتي.
ـ لا عشاء ينتظرك هناك.
ـ ما أدراك؟
ـ البارحة تفقدت ثلاجتك ومطبخك.
ـ لم تمري البارحة عليّ.
ـ ربما قبلها. لم أعد أتذكر.
ـ بعد آخر زيارةٍ منك أثقلت الثلاجة ورفوف المطبخ.
ـ وهل أفرغتها كلها أنا؟
ـ لم اقل هذا.. يعلم الله.
ـ في الجانب الآخر مطعم لا خمر فيه.. ولا رقص.
قلت مؤكدا:
ـ تعرفين أنني لا أتعشى فيه. ولم اتناول الغداء هناك الا نادرا. مع أنه مطعم جيد. وقد لا يطول الصفّ فيه كما اذكر.
سكتت كانها تتأمل الخيزران الأصفر.
ـ لماذا أنت (متعالٍ) على (رهطك) و(متناءٍ) عنهم؟
ـ أيّ رهط؟
ـ سمار (القهوة).. إلى الشمال عنا.
ـ لا صاحب لي بينهم.. الا واحداً أو اثنين.
ـ لم أرك منعطفا بي إلى هناك مرة.
ـ لا بونش هناك. والجو مثقل بالدخان.
ـ لم يرم بنا الحظ، مرة، إلى مقهى (موسكو) أو مقهى (الفضاء) مع انهما قريبان من هذا الفندق.. على الرصيف الداني من شارع غوركي.

ـ دخلنا اكثر من مرةٍ هناك وضجرنا. ثم ان الصفّ طويل وبطيء عند أيٍ منهما. لم أره الا مديدا كلما مررت هناك.
ـ ألست من اوائل الآخذين بوصية (التغيير)؟
ـ ألم اقترح مقهى (الشباب) ونحن في الطريق؟
ـ لم تقلْ الا استرضاء.

شمس النهار ترى ذبالة صفراء باهتة، وأنا عائد من غداء مطعم الحي. والحديقه، إلى الشمال مني، مغطاة بالثلوج. لا أحد هناك. كنت ارى، احيانا، أطفال الروضة ومعلمتهم مدثرين بالمعاطف واغطية الرؤوس الشتوية، وهم يتضاحكون لاهين بالثلج، وهي تسرع بهم إلى المبنى. أحببت ان أتمشى بين أشجار الحديقة. لا احد يتذكر المصاطب. والممشى مقفر الا مني. قد أمر على المخزن، أو لا أمرّ مؤجلا شراء دجاجتين منتوفتين. سألت مرارا عن الطيور البرية، فلم اجدْها. وكأنها لا تباع وتشترى. قد تجد البطّ البري. أما (الخضيري) و(الحذاف) السيبيريان فلم اسمع من يذكره أو يشير اليهما. لا شك أن هناك اماكن لابتياعها، تعرض فيها مثلما يعرض الدجاج والبطء البري. انما أين؟ لا أعرف ولم اسألْ.. متذكرا صيحات البطّ الملتاعة عبر الأرياف.

إخراج، يقال انه جديد، لبستان الكرز في مسرح جيخوف. سأنتظرهما مساء اليوم، في السادسة والنصف، عند مدخل المسرح. التذاكر الثلاث في جيب معطفي الداخلي منذ . لآن سأترجم بقية الفصل الطويل الممل من الرواية (التربوية)، وأهجر الشقة مضاءة، وأجوب الشوراع إلى مركز المدينة. أول (محطة) لي هي مكتبة الآداب الأجنبية.. بعدها مقهى البونش مقفرا من ناديا مثلما أقفر من قبله ملحوب من أهله. ومن المقهى إلى المسرح القريب أو البعيد (لا يهم). الأرصفة ملأى بالوجوه الجميلة، والواجهات تتوهج. من ثلاثية نجيب محفوظ انتقلت

إلى حديث اربعاء طه حسين. ومن الأربعاء إلى لزوميات المعري في عصريات مكتبة الأزمنة الآفلة أو عشياتها وهو الاصح.. كما تنقل ترسيساس بين حثالة الموتى. البونش حلو والقهوة مرة. ولا ناديا في المقهى.

هل أبطأت ساعتي الخطى؟ انهما تنتظرانني ضاحكتين عند المسرح. اعتذرت قائلا إن ساعتي هي(المطوّلة) في تأخري. قالت ناديا آخذة (جدتيها) الفاتنة:

ـ دعني ارها من فضلك. ألقت نظرة عجلى عليها وقالت:

ـ ليست السابعة. هو البونش وفتياته.

ضحكت نينا بتروفنا:

ـ تقولين هذا.. لأنك فوّت ساعة البونش.

ـ أنت من فوّتها عليّ.

ـ أنا؟

ـ قلت: انتظريني في البيت.

ـ احببت ان انتفع. بنصحك الرفيع فيما ارتدي.

ـ هو مغتبط حتى بدخلك المسرح في بيجامته.

ضحكت نينا بتروفنا:

ـ يا للبنب الداهية!

بعد الفصل الأول أقترحت نينا بتروفنا البوفيت مضيفة:

ـ لن يفوت البونش ناديا الليلة.

ـ هذا ارضاء منك له وليس لي.

ـ أنت من تخلف عن البونش وليس هو.

ـ ومن أبقاني؟

لم يكن بونش المسرح في مثل رهافة بونش المقهى. قالت ناديا:

ـ كأنه ثمالة بونش.
قالت نينا بتروفنا مازحة، جادة:
ـ لم ازدد الا اغراء ببونش المقهى. خذاني غدا معكما إلى هناك رجاء. فإن لم تفعلا ضننا منكما به.. سأسلك أقرب طريق اليه.
قالت ناديا جادة تماما:
ـ ستتسابق اليك عشرات الأقداح.
ـ لن تفوز الا كأسي.
قالت ناديا (مشيرة إليّ):
ـ فاذا جاءت كأسه؟
ـ اقبلها لحظة اقترابها.
قالت نينا بتروفنا مازحة حالما دخلنا:
ـ كأن شقتك تنتظرني.
ـ يذكرها بك شذاك الفاغم، وطيفك الباقي في المرآة. دعيني آخذْ عنك معطفك. قوامك في بدلتك البنفسجية هذه طيرّ شرر الحسد من عيون المتفرجات. وأثار العجب والدهشة في نظرات الرجال.
ـ سأرتدي ثوبا منزليا. لا تدخلْ من فضلك.
ـ أنا ذاهب إلى البهو لأشعل الضوء.
وجاءت إلى المطبخ ملتفة بروبي فوق ثوبها المنزلي.
ـ أيّ نبيذٍ يروقك؟هنا ثلاثة.. بل أربعة اصناف. فتخيري. فاذا اردت غير النبيذ فعندك الكونياك والويسكي والفودكا.
ـ لن أشرب غير كوبي نبيذ. والبقية كلها لك.
وأضافت مازحة أيضا:
ـ اعني القناني كلها.

وحملنا العدة (كما قال أحد الأصحاب) إلى طاولة الاريكة قبالة

التلفزيون مع أنه كان مطفأ. الستائر مرخاة، والثلوج لا ترى وهي تتهاوى خلف الزجاج. الرياح تسمع أو يخيل لك أنك تسمعها هابة على الحديقة العارية، النائمة. لا خطوة في الطريق تحت النافذة. لم يغلقْ المترو بعد. فاذا مرت الحافلة في الشارع فلا تسمع منها الا (صدى) صوت.. أو شبح صوت وهو(الأصحّ).. أو هو (الأوضح).

ـ لم تحدثني، مرة، عن اوراقك (المنعزلة).. في ملفها المنطبق. لا اعني الصفحات المترجمة.بل تلك. لا تقلْ شيئا اذا كنت ترى في الحديث كشفاً عن سرّ من أسرارك. وجدت الملفّ منفتحا عنها في احدى المرات. هي كراسات (معينة) غير اوراق الترجمة اليومية التي تتغير (أوضاعها) من يومٍ إلى يوم.
ـ إنها مخطوطة رواية أو مذكرات. لا فرق.
ـ هناك فرق بين الرواية والمذكرات أو اليوميات.
ـ انت محقة بالطبع اذا ما نظرنا إلى المسألة نظرة دقةٍ وتمحيص. في مذكراته أو يومياته يتحدث الكاتب عما مرّ أو يمرّ به من أحداثٍ واشخاصٍ.. عن تجاربه، عن عالمه الشخصي. وقد تنحو هذه الكاتبة نحوا روائيا اذا اتخذ الكاتب من البناء الروائي شكلا له.. من اول صفحة بالطبع. قد يتفق أو لا يتفق معي منظرو الأدب. غيرأنه رأي. وهو رأيي (الفنيّ) أو الشخصي.
ـ ما عنوانها (المقترح) الآن.. ان جاز لي أن أسال؟
ـ نينا بتروفنا.
ـ عنوانها نينا بتروفنا؟
ـ كما قلت.. (حرفيا).
ـ هي عني إذن.
ـ عنك وعني.. وعما حولنا من الشتاء والصيف. وعن هذه المدينة

بالطبع. عما يلوج لي منها أو كما يلوح لي منها. لا أقل-ولا اكثر.
ـ والناس؟ الا تتحدث فيها عن الناس؟
ـ أحيانا اتحدث. واحيانا لا.
ـ أنا شخصية روائية مركزية. وأنا لا أعرف.
ـ ها انت عارفة الآن.
ـ سأشرب قدحا صغيرا ثالثا في (صحة) انتهائك منها.. أعني النهاية التي تر يد الرواية، لا أنت، أن تقف أو تتوقف عندها.
ـ لا أريد لها نهاية.
ـ لا قصة أو رواية بلا مقدمةٍ ونهاية.
ـ المقدمة هي اول الطريق اليك. وهو طريق لا نهاية له. لا أريد نهاية له. لا أود أن أقول عنها الآن اكثر مما قلت.
ـ لا تقلْ. كلّ شيءٍ واضح.

سمعنا لحنا متسارعا ينبعث من اكورديون يمر به أحدهم قادما من الشارع كما يبدو. وأخذ اللحن يبتعد ونحن مصغيان اليه.. إلى أن توارى منعطفا إلى جهة ما، إلى منزلٍ ما.
وتذكرت نغما مشابها كان يمرّ تحت نافذتي الطلابيةِ العالية مبتعدا صوب ناحيةِ البريد بين النوافذ المظلمة والأشجار الواطئة، على الجانبين من الطريق المتفرع من الشارع المتجه إلى سينما الحي. أزحت الستارة عن الزجاج (المضبب) فلم أر أحدا غير أشباح الشجر. قالت نينا بتروفنا:
ـ هذا نغم اغنيةٍ كانت شائعة قديما: إيه يا تفاحة صغيرة، الليل مظلم. لم يعدْ يتغنى بها أو يتذكرها الا بعضهم.
ـ اذكر أنني قرأت هذا المطلع في روايةٍ عن الحرب الأهلية. أظنّ أنها الجزء الثاني أو الثالث من ثلاثية ألكسي تولستوي (طريق الآلام).

انت شاهدت الافلام الثلاثة المأخوذة من الرواية كما أظن.
ـ قرأت الرواية قبل أن اشاهد الأفلام.
ـ بعدها أخرجوا (الحرب والسلام) في اربعة اجزاء.
ـ هل شاهدت الفلم الامريكي المأخوذ عن جوانب منها؟
ـ شاهدته في منزلنا الطلابي. كان بالأبيض والأسود.
ـ كان جيدا ايضا.
ـ لا ادري لماذا بدت لي الممثلة التي لعبت دور ناتاشا في الفلم السوفيتي بعيدة عن الأصل. ربما لأنني كنت اتصور ناتاشا في صورة اخرة.. غير صورة الممثلة (الرصينة).
ـ انها ممثلة فتية.
ـ في الرواية تبدو ناتاشا (صبيانية) أولا. بعدئذٍ، بعد زواجها من بيزوخوف تأخذ صورة السيدة (الاقطاعية) الروسية.
- ناتاشا في الأصل سميراء ونحيلة.. قبل زواجها.
ـ أأسكب لك أيضا؟
ـ كلا. شكرا. واكففْ انت من فضلك. آن ان ننام.
لم اجدها في فراشنا عندما صحوت.انها تستحم. وانتظرت إلى ان دخلت ملتفة بالمناشف.. قائلة لي ضاحكة الوجه:
ـ قم واغتسلْ ايها الفتى (المتناوم).
ـ كانك لم تنامي أو تستيقظي.
ـ فإين كنت؟
ـ في اللانوم.. في اللاصحو.
ـ استحمّ بالماء الدافئ وعدإليّ نشطا.
ـ لماذا اغتسلت قبلي؟
ـ لا تحلمْ.. طالما سبحنا معا في بركة الضاحية.
ـ أين تريدين أن نتغدى اليوم؟

ـ في شقتنا.. مع أمي وناديا.
ـ لماذا ليس في مطعم لم يفتتحْ بعد؟
ـ أمي وناديا تنتظراننا.
ـ انت تحبينهما اكثر مما تحبينني. وهذا ما (استقطره).
ـ لا (تتفقهْ).

قلت تائه النظرات اليها، وقد ألقت الروب عنها على الأريكة، وظهرت في ثوبها المنزلي عارية النحر والذراعين:

ـ لماذا لا أكاد أطبق يدا عليك؟ وكانك الألق؟ وكانك الطيف.. أو الضوء يتسلل اليّ من كوة الفجر منفتحة، منغلقة؟ الطرقات، عبر النافذة، مقفرة كالجيوب المفلسة.. أو كبطاقة السينما الثانية أطبقت عليها اليد انتظارا خائبا.. يلقى بها للريح والثلوج الذائبة، وقد بدأ الفلم والتمّ شمل النظارة، ولا أحد يدخل أو يخرج. لم نبرحْ في الشتاء أو في (عزّه) كما ينبغي أن أقول.. أو في اوائله كما يحلو لي أن أقول. بعد أسبوعين تقريبا يبدأ، مع استقبال رأس السنة المنتظر، الحافل، يبدأ (احتكاك) عامين كما تقول ناديا. فأصحح لها واقول (انفكاك عامين) فتقول:
ـ انهما لا ينفصلان.. بل يلتحمان.
ـ سينتهي عام ويبدأ آخر.. اين هو (الالتصاق)؟
ـ ذيل القطة في فم القطة. الا تبدو (المعضلة) منكشفة؟
ـ قبل الانتقاء يبدأ المواء.. ولا مواء أو عواء يسمع الآن. تلك امرأة مخبولة كنت أسمع ولولتها منذ سنين.
ـ انت ترهف السمع عبر نافذةٍ بعيدة.. إلى زقاق بعيد.
ـ كانت تنادي طفلة صرعتها العجلات قديما: سونيا خذي الحذر!

خذي حذرك من السيارة. وكأنها تراها الآن، قبل الفاجعة بثوان.
تقول ناديا:
ـ الخريف مزبلة الصيف.
فاقول انا:
ـ الشتاء منقلة الربيع.
تقول ناديا:
ـ ما المنقلة؟
ـ إنها الكانون؟
ـ وما الكانون؟
ـ إنه الموقد.
ـ فلماذا هذه الإطالة التطويل؟ قل: الموقد. ويتضح كلّ شيء. أتعرف من هي القنزعة. ايها الفتى العليم؟
ـ ايمكنني الرجوع إلى (المراجع)؟
ـ انها المرأة القصيرة جدا.
ـ مثل اليزابيتا معتوهة (الأخوة كارمازوف)؟
ـ مثلها.. أو مثل غيرها من (القزمات).
ـ لماذا ذكرتها؟
ـ لانك تتوخى الفارعات.
ـ لكنك ممدودة القوام.
ـ على السرر تتطاول النساء.
وتضيف قائلة، آخذة هيأة (العارفين):
ـ اتعرف الفرق بين الصيف والشتاء؟
ـ الصيف حارّ والشتاء بارد.
ـ كلا ايها النبيه. الفرق هو الخريف.
وتقول ناديا أيضا:

ـ ابتلاني الله بك. وابتلاك بالترجمة.
ـ لا شر في الترجمة.
ـ ولا شرّ فيك. إلا انك شرّ شروري.
ـ لماذا والعياذ بالله؟
ـ أنا العقب وانت المنفضة.
ـ ما انت بقية سيجارة ترمى.
ـ أنا انتهي وانت تتدفأ.
وتسكت طويلا ناظرة إلى الفراغ، إلى الحائط، وتقول فجأة:

ـ في اول ليلةٍ لك مع نينا بتروفنا، بعد أن عرفت أنك رجلها الأول.. ترى ما كان شعورك تجاها؟
ـ كنت كمن يدرك أنه قد جرح، وهو لا يدري، طائرا صغيرا. كم كنت اتمنى لو أنني وجدتها، تلك الليلة، ارملة أو مطلقة منذ سنين. لماذا لا تسألينني عن اول ليلةٍ لي معك؟
ـ لماذا أسألك عن ليلةٍ اعرفها مثلما اعرف راحة يدي؟
تقول ناديا في التلفون (بصوتٍ طازجٍ كالتفاحة الحمراء):

ـ انتظرني اليوم في الخامسة والنصف أو بعدها عند سينما متروبول. احرصْ كما تحرص على احتضاني وأنا أثب اليك من السلّم.. على اقتطاع التذكرتين صباحا. لن تجد أية تذكرةٍ عند شباك بائعة التذاكر مساء.. كما يؤكدون أو يزعمون. أرحْ ذهنك المكدود ساعة من معضلات الترجمة. لا ترهقْ نفمك بقيادة المركبة. و(امتط) المترو فهو اسرع.
ـ أيّ فلم ي عرض هناك؟
ـ الشيخ والبحر.
تقول ناديا:
ـ لا تكفهر. اعرف أنني تأخرت. أحببت أن أمرّ على البيت وأتجمل لك.

اعلم مدى استيحاشك وأنت تنتظر فتاة لا يبدو لك وجهها (الصبيح) بين العشرات من الوجوه المخضبة أو العارية من الزينة، المسرعة إلى السينما.. أو إلى لقاءٍ عند السينما.

ـ كنت ممتلئا فرحا بانتظار وجهك الفتان.

ـ لست غاضبا عليّ؟

ـ اتريدين ان احتضنك الآن، وأقبلك عشرات القبل الطويلة؟

ـ والحارة.. لا تنسى.

ـ اتر يدين الآن؟

ـ اثناء مشاهدة الفلم.

واضافت (مؤكدة):

ـ وستوجه (مرشدة الضالين إلى كراسيهم) مصباحها المتوهج، الفاضح الينا وتطردنا من السينما كما طرد آدم وحواء من الجنة.

ـ لنسرعْ قبل أن يبدأ الفلم.

- أو قبل أن تعرض (المدائح) الاعلامية.

ـ وبعد الفلم؟

ـ بعد الفلم!

اثناء ما خرجنا من السينما قلت متذكرا:

ـ في سينما الحي، عندما كنت طالبا، عرضوا قبل الفلم فلما وثائقيا قصيرا عن منزل همنغواي في كوبا. وظهر في الفلم الصياد سانت ياغو العجوز الذي اتخذ منه الكاتب شخصية وحيدة تقريبا في روايته القصيرة (الشيخ والبحر). فاذا اعتبرنا السمكة الضخمة شخصية اخرى فالشيخ هو الوجه الأول في الرواية والسمكة هي الوجه الثاني.. أما الصبيّ فليس الا يد الرحمة. ولا ادري لماذا بدا لي الصياد (الضاحك) مفتقرا إلى تلك القوة والشكيمة اللتين ظهر بهما الشيخ الصياد في الرواية.

فجأة التفتّ إلى وجهها الضاحك الفاتن المفتون بين الوجوه الجميلة الأخرى، وقلت متذكرا (مترجما وموضحاً):

يا جميل الدلّ والغنج.
لك بستان من المهج
إن بيتا أنت ساكنة
ليس محتاجا إلى السرج

والتفتتْ هي الاخرى مصوبة اليّ عينين براقتين:

ـ قل هذا لنينا بتروفنا.

وضحكت آخذة ذراعي، ونهدها المتكور الحار يمسّ كتفي وانا انزل قبلها من الرصيف إلى الشارع في اتجاه السيارة. ولا أدري.. أكانت نظرتها المشتعلة نظرة جذل ام غرورٍ ام..؟ أهو التوعد؟ لا اعرف.وقلت قبل ان افتح لها الباب لتركب:

ـ والآن.. إلى أين يا معبودتي؟

ـ إلى حيث يعلم من يعلم.

وقبل ان نخرج من الشقة هتفتْ فجأة، وهي تزرر معطفها:

ـ لماذا لا أنام الليل كلّه هنا؟ لماذا لا ابقى؟ ألأنا فتاة شارع؟ ألأنا ممن يبعن اجسادهن بقبضة روبلات؟ من الذي ألقى بي على هذا الشاطئ المهجور؟ من رمى بي فراشة إلى نار؟ لا أنت ولا انا، ولا نينا بتروفنا. من طوّح بي؟ من(عهرّني)؟ أين مني خجلي وعفتي؟ أين؟ أين؟ لا تغرورقْ عيناك.. يا أرقّ من الرقة!

ـ ابقي هنا رجاء.لا تذهبي.

ـ وماذا اقول لهما؟

ـ قولي كلّ شيء.

ـ وهي؟ إنها أعزّ عليّ من روحي.

ـ ستفهم. أنك أعز عليها من روحها أيضاً.
ـ اعرف. اعرف. وهذا ما يكبلني ويكمّ فمي.
ـ لا تذهبي.
ـ سترتمي غدا على قدميها تقبيلا وتوسلا. فإن لم تغفرْ وتنس ستقتل نفسك. سترمي بنفسك تحت عجلات الترام. أنا اعرفك واعرفها. لن تغفر. لن ترحم.قد ترقّ الصخور ولا يرقّ قلبها.
ـ لا تذهبي.. رجاء.
ـ كلا. ليس الآن. بعد ثلاث سنين لا اكثر. تتزوجني ونعيش معا. أنا أهديتها إياك. ومن حقي أن استردّ هديتي. واعذرْني وأنا اتكلم كما اتكلم عن قلمٍ أو كتاب. ارجو المعذرة.
ـ أنا من أضاعَ نفسه واضاعكما معا.
ـ أنا من عرفك بها. بيديّ هاتين قدتك إلى كهف الساحرة، وانت لا تدري وهي لا تدري. فسحرتك وسحرت بها.
وقبلت عينيّ قائلة:
ـ لا تبك عيناك. لابدّ من أن اذهب.ما كنت أعرف أنني سأحبك هذا الحبّ كلّه من أين لي أن أعرف؟ قلت: هي صفحة وتنطوي. من أين لي ان أعرف؟ من أين؟ الا تتنقل النساء من حبّ إلى حبّ آخر كما تتنقل الفراشات من زهرة إلى زهرة؟ فما لي لم أملّ وأملْ عنك إلى غيرك؟ ما الذي جرى فكبلني اليك تكبيلا؟ ما أدراني؟ مسحتْ قطرات دموعي بشفتيها قائلة كالهامسة:
ـ أنا الفراشة وانا النار!
اوقفت السيارة عند المدخل الكبير إلى بيتها. وخرجت بعدها.
ـ لماذا خرجت؟ عدْ إلى السيارة من فضلك.
ـ سأوصلك حتى المصعد.

واخذت اقبلها قبل أن تفتح المصعد.. وكأنني اقبلها لاول مرةٍ. انفلتتُ قائلة وهي تضحك، فاتحة المصعد التليد:
ـ انهما نائمتان الآن. فاذا وجدتهما يقظتين فستقرآن على وجهي آثار قبلاتك.. وآثارها الحمر على كتفي من وراء المعطف والثياب. أما رائحتي العطرة فستبقى في فراشك إلى ليلة الأحد!

فتحتُ المصعد ودخلت، والقلق عليها وهي تبتسم لي جذلى. ظللت واقفا إلى أن توقف المصعد، ولا ادري لماذا؟ وجدت الشقة مضاءة كما تركتها. لم يبق على المائدة شيء مما كان عليها. اعادت ناديا كلّ شيءٍ إلى موضعه في المطبخ بعد ان غسلته، وقبل ان ندخل المهجع. لا ظل نوم في عيني ولا أمل بظلي. ارتديت بيجامتي، وتناولت من احد الرفوف الدانية مجلدا من مجلدات غوركي حيث القصص الاولى: ماكار جودرا ويزرجيل العجوز وغيرهما. قراتها وأنا طالب في المتوسطة مترجمة إلى العربية متنقلا بينها وبين قصص جيخوف. قبل ان أقرا قصص غوركي، آنذاك، قرأت روايته (الأم). وأعدت قراءتها أكثر من مرة. وقبل أن اشتري واقرأ(الحرب والسلام) في ترجمتها العربية قرأت (الاخوة كارمازوف) لم أقرأ (آنا كارينينا) و(الأبله) الا في لغتهما الأصلية. لم تترجما، يومذاك، إلى العربية، أو انني لم أجد ترجمة لهما. احيانا أعود إلى (الحرب والسلام) ولا أعود إلى (أنا كارينينا) الا نادرا. واعود إلى (الاخوة كارمازوف) أو (الابله) اكثر مما أعود إلى (الجريمة والعقاب) أو (الشياطين). احيانا لا أقرأ الا جيخوف وهمنغواي. وسريعا ما ابتعد عنهما إلى غيرهما من كتاب الشرق والغرب لا أقرأ في مكتبة الاداب الأجنبية غير الكتّاب والشعراء العرب بالطبع.. الجدد والقدماء.. القدماء منهم غالبا.

صبيحة الأحد، والثلوج قد انقطعت بعد انهمارها الليل كلّه (أمرتني) نينا بتروفنا بارتداء الثياب الداخلية الدافئة تحت البدلة والمعطف الثقيل. هي راغبة بالتجول في البولفار، بين الأشجار المجللة بالثلوج، قبل الذهاب إلى مركز المدينة. هناك نتغدى في أحد المطاعم.. في (ارمينيا) ربما. الحدائق مكسوة بالثلوج. الطرقات والأرصفة قد كنست. الصبايا الموردات الوجوه (صبايا الثانوية) يتنزهن ويتبادلن الضرب بحفنات الثلوج، نظرت إلى وجه نينا بتروفنا فاذا هو أنصع بياضا وادفأ احمرار وجنتين وافتى من وجوههن.

ـ انظري.. انت ابرع جمالا وارقّ نظرة منهن!
ـ انت تراني بعيني قلبك لا كما يراني الناس.
ـ لا تنكري. لقد تطلعت إلى وجهك في المرآة قبل أن نخرج.. فرأيت ما ارى الآن. ابصرت نظرتك اليّ حينها.. ففهمت.
ـ اردت أن اتأكد من موضوع الشابكا (غطاء الرأس الفرائي).
ـ بل رايت صورتك في عينيّ أولا. فأعجبك أن تمتعي طرفك بمرأى وجهك البهيّ، الفائق الجمال.. في المرآة.
ـ انت لا ترى فيّ الا ماتودّ ان ترى.
ـ بل ارى ما هو كائن حقا.
ـ ليس الجوّ باردا جدا.. كنهار الأمس.
ـ واثقلتني بالثياب الزائدة.
ـ افضل من أن تبر د فتمرض.
ـ انت لم تفطري الا بالحليب والكاكاو تقريبا.
ـ في انتظار غداء المطعم.
ونظرتُ إلى يديّ العاريتين:
ـ ضع يديك في قفازيهما من فضلك.

وحيتنا امرأتان مسرعتان ناحية الشارع.
ـ اعرف من حيتنا. أما الاخرى فلم أرها من قبل.
قلت مازحا:
ـ أنا اعرف الاثنتين.
فردتْ مازحة هي الأخرى:
ـ ومن هي التي لم تعرفْ بها، بعد ، من نساء الحي؟
ـ بائعة الكفاس.
ـ ألم تقفْ عندها مرارا؟
ـ كلما اخذت القدح الكبير منها قالت: ما اسمك من فضلك؟ كلّ ما هممت بسؤالك عن اسمك انستني احدى الزبونات بسؤال عابر.
ـ سنراها مطلع الصيف على الرصيف إلى المخزن خلف برميلها ذي العجلات، ونقدم لها اسمك مكتوبا على كرتونة باحرف فاقعة كبيرة.
ـ اتعرفين لماذا يسمون الكفاس بيرة الموجيك مع أنه خال من الكحول؟
ـ ربما للونه.. أو لرغوته.
ـ بل لأن الفلاحات يعددنه إعدادا خاصا، ويحتفظن به في اوعيتهن الخشبية. ويدار بأقداحه على الضيوف وكانه البيرة المزبدة.
ـ ها انت تعرف عنه اكثر مما اعرف أنا.
ـ أمك هي التي حدثتني عنه. كانت مارة إلى المخزن فدعوتها إلى قدح منه وشكرتني قائلة:
- القرويات يعددنه اعداداً أفضل.
ـ ما رأيك أن اتصل بناديا فتأتي معنا إلى المطعم؟
ـ وادعي امك أيضا.
ـ أمي (تتكاسل) عن الخروج.
ـ فاتصلي بناديا.
ـ لنعجْ على بداية البولفار. هناك كشك تلفون.

وخرجتْ من الكشك قائلة:
ـ لا تريد.

وكنت اقول لنفسي: أهي غضبى علي؟

اختارلنا النادل الهرم مائدة إلى جانب الحائط. إلى جوارنا تنفرد امرأة ما بمائدة. فرغتْ من الحساء فجيء لها بغداءٍ وآنية لوبياء يابسة. لم تكن المرأة ناظرة إلى أحد. اتى النادل بالأقداح وقنينة الماء المعدني أولا بعدها بزجاجة النبيذ الابيض والصلطة. لا موسيقى الآن بالطبع. إنها لليل والسهرة. كانت نينا بتروفنا أنيقة وجميلة. فأثارت نظرات الإعجاب. طلب النادل مني الرجاء باخذ لفافةٍ من علبتي الأجنبية إلى المرأة المنفردة. شكرتني بانحناءة رأس مؤدبةٍ. كانت(سماء) المطعم رمادية.. لا نجوم فيها. المصابيح في أركانها لا تتوهج بقوةٍ. المطعم غير مزدحم الآن. سألتني نينا بتروفنا كالمازحة:
ـ هل (غضبتْ) ناديا ثانية؟
ـ (كل شيءٍ هادئ) فيما بين (الجبهتين).
ـ ما الذي أقعدها.. فلم تأت؟
ـ مزاجها (الناديوي).
ـ الم تبرحْ (مغرمة). بمقهى البونش؟
ـ لا تريد مقهى آخر.. في(الأزمنة) الأخيرة.
ـ خطبها صحفي.. من أصحاب اندريه فاعتذرت.
ـ أأعرفه أنا؟
ـ لا أعرف. الم تخبرك؟
ـ لم تقلْ شيئا. متى طلب يدها الصحفيّ الجديد؟
ـ قبل أسبوعٍ. لم تقلْ أين رأته.
ـ لماذا اعتذرتْ؟

ـ تقول: لا أريد (قنطرة) اخرى إلى شاطئ الصحافة.
ـ ايّ شأن للصحافة بألاعيب اندريه؟
ـ كأن الجوّ الصحفيّ مرتع للاهواء كالجوّ التمثيلي.
ـ ليس الصحفي كالممثل. الممثلون، في كل مكان، اكثر إغراء.
ـ ربما امتلأ رأسها. بحكايات زوجات الصحفيين.
ـ ربما.
- اعرفت بعضهن؟
ـ مرة كنت مع اندريه ونادیا في عيد ميلاد احداهن.
ـ في اول لقاء مع نادیا.
ـ ما ادراك؟
ـ نادیا حدثتني.
ـ طيلة الحفل كنت اتحدث مع اندريه عن تولستوي ودوستويفسكي. عن الطبيعة في العالم الروائي عند كلّ من الكاتبين.. عن الطبيعة الروسية.
ـ وفاتك حديث الصحفيات.
ـ وفاتنا الرقص كلّه.. الا ما تفضلتُ به نادیا علينا.
ـ كانت (السماء) مدلهمة بينهما قبل تلك الليلة.
ـ لم يتضحْ شيء لي قبل الرحلة إلى لينينغراد.
ـ الم تزلْ تفكر برحلةٍ معي إلى هناك؟
ـ لا شيء أعزّ عليّ من رحلةٍ معك في قطار ليل!
ـ استغرب أن نادیا لم تخبركَ بشيءٍ عن خطبة الصحفي.
ـ استهانة منها بالمحفل (الجرائدي).
وأضفت (جادا):
ـ ربما هو فتى ممتاز.
ـ واضح أنه لم يعجبْها.

ـ أظن انه الخطيب الثاني.
ـ أو الثالث.من يدري؟
قلت (مصطنعا) الأسف على ضياع الخطبة:
ـ لا حلّ الا أن انأى عنها.
ـ لا أ ريد أن تبغضني كما قلت مرارا لك.
ـ ما المتعة التي تلقاها اخيرا في صحبتي المكرورة؟
ـ سألتها أمي اكثر من مرةٍ معيدة عليها هذا السؤال نفسه. فكانت ترد في غموض: إلى أن(اعثر) على من يستهويني. وتلح أمي: لكنك امرأة. الا تودين اصطفاء رجل (للانس)؟ طردا للوحشة والسام في الأقل؟ وتقول ناديا: أخذت حظي من الرجال. ولا أريد مزيدا.
ـ قالت لي مرة: الرجال متساوون في الرغبة بالتنقل بينهن. قلت:لا اراك الا مغالية. قالت: لم يلح لي، بعد، في الأفق ما يؤكد انني مخطئة. لم تزل صديقا لاندريه. لم تكفف عن ملاقاته بعد انفصالي وطلاقي منه.
ـ الم تبرحْ تلتقي به؟
ـ نادرا ما اراه في الجريدة أو عند أحد الزملاء.
ـ ألم يثرْ شكوكه اصطحابك ناديا إلى هنا أو هناك؟
ـ هو يعرف أنني مصرّ على الاقتران بك.
ـ لكنّ بعضهن ممن يعرف (يتقولن).
ـ كأنه لم يسمعْ.
وجاء الغداء الأرمني وكأننا في مطعم من مطاعم يريفان. وأحبت نينا بتروفنا أن نتجول في الساحة الحمرّاء أو فيما حولها. وقلت ونحن ماران بالمترو جوار المدخل الجانبي إلى مطعم فندق موسكو:
ـ هو ذا الباب إلى حيث مقهى البونش كما تعرفين. اتودين الجلوس فيه بعد الجولة؟لا أظنه مزدحما اليوم.

ـ اليوم هو الأحد.
ـ لا ازدحام نهار الأحد كما في الأيام الأخرى.
ـ بعد الجولة قد نظمأ إلى بونش العزيزة ناديا.
ـ هنا يعدونه جيدا.
ـ هل يمنع البونش ناديا من زيارة المكتبة الأجنبية؟
ـ احيانا نلتقي هناك. ومن هناك إلى المقهى.
ـ لم (اتسكعْ) في الساحة منذ زمنٍ بعيد.
ـ من الساحة إلى المقهى. ومن المقهى إلى شارع غوركي.
ـ لماذا إلى شارع غوركي؟
ـ إطالة (للتشرد) على القدمين.
قالت مازحة:
ـ أأبدو متشردة من متشردات غوركي؟
ـ في معطفك الباهر هذا.. ما أشبهك. بهن!
ضحكت نينا بتروفنا:
ـ أنت اشترطت عليّ قبوله منك.. دثارا لزفاف (الليلة) الثانية قائلا: للناس ليلة عرس واحدة. ولنا نحن الاثنين ألف ليلة عرس وليلة! في المقهى ساقية اخرى.. (مؤقتة). اجلست نينا بتروفنا عند أبعد مائدة. بعدئذ جئت بالبونش والقهوة. لم تتهاو الثلوج طيلة النهار. الليل منحدر على المدينة منذ اكثر من ساعتين. المقهى غير مزدحم. والمقهى الآخر ممتلئ امتلاءه أيام الآحاد. قالت نينا بتروفنا:
ـ ما أطيبه بونشا!
وأضافت مبتسمة لي:
ـ قالت ناديا إنك شربته، هنا، أول مرةٍ مع فتاةٍ امريكية.
ـ حدث هذا نهاية الكورس الأول.
ـ ومنعتك المناوبة من زيارتها.. في الفندق.

ـ ما رأيك أن نلتقي هنا مساء كل أحد؟
ـ لن (آخذك) من أمسيات ناديا.
ـ مع ناديا.
ـ ربما مرة في الشهر أو الشهرين.
ـ يالك من ممازحةٍ بارعة!
ـ في شقتنا أو شقتك أهدأ وأقرب إلى نفسي.

وكنت أقول لنفسي:
أيها البونشي الضالع في طريق إقصاء بلقيسين عن عرش قلبه الخاوي، ايتها الضلع المفقودة من صدر آدم. يا آخر (مسودةٍ) مترجمة. أو ياآخر ترجمةٍ مسودة. لا فرق. أو سواء لديّ كما تقول نينا بتروفنا. وماذا تقول ناديا؟ ماذا تقول الطرقات الضيقة، العتيقة إلى مكتبة الآداب الأجنبية؟ بل ماذا تقول صبايا البونش الناضحات عرقا في ظهيرة المقهى صيفا؟ أول ظهيرةٍ بل آخر ظهيرة مقهى حارة.. وسرعان ما تدلهم السحب وينهمر المطر، وتبرد الطرقات وكاننا في مقتبل الخريف، مع أن الصيف القصير لم يفتا مخيما. بخضرته الكثيفة على الأرصفة. وتقول نينا بتروفنا:
ـ انتهت الجولة بانتهاء البونش.
آن أن نعود إلى البيت.
ـ ألن نقتقي رصيف غوركي؟
ـ ليس اليوم. أمي وناديا في انتظارنا.
(وتذكرت ما قالته ناديا لي مرة مساء الأحد: لن ادخل شقتك يوم. لا أريد منك وشلاً. اتفهمني؟ لا أريد وشلاً.)
ـ لا أظنّ أنني سأصعد معك. عليّ أن أعود إلى شقتي.
ـ وماذا انت صانع هناك الآن؟

ـ سأترجم.
ـ انت لا تترجم إلا نهارا. ستتعشى معنا.
ـ سأكتب صفحاتٍ ممحوة.
ـ هل تعيد كتابتها؟
ـ بل اخطّ ما لا يقرأ أو يمسح أو تعاد كتابته.
ـ بعد أن تتعشى معنا.. سوّدْ أو بيّضْ ما تشاء من الصفحات.
ـ لا بياض غير ابيضاض البارحة.
ـ تعال معي، وساسمح لك بانتقاء ثوبي المنزلي.. في غرفتي.
ـ وانت في قميصك عارية الكتفين والذراعين؟
ـ وأنا في المرآة.. لا ألمس أو أمس.
ـ طيف إلاهةٍ في الحائط المرمري.
ـ لحظة اشتعال الشفق البعيد.
ـ والعابد ينحني على القدمين الغاضتين تقبيلا.
ـ على ظلّ قدمين من فضلك. واضافت مازحة:
ـ من يسمعنا نظنّ انك كنت البارحة في باركٍ مقفر باردٍ إلى آخر الليل، وأنا كنت في باركٍ مقفرٍ آخر.. في الجانبين البعيدين من المدينة.
وقبلتْ وجهي غير عابئةً بأحدٍ قائلة:
ـ أنتهى البونش..
الى البيت. وقبل ان تفتح باب شقتها قلت هامسا:
ـ وعدتني باعانتك في انتقاء ثوبك المنزلي.. وارتدائه.
ـ هل جننت؟ أمي وناديا في البيت.
ـ أنا عائد إلى الليل المقفر البارد.
وقبلتني هامسة كالمازحة:
ـ اتريد فضيحتي؟
استقبلتنا الجدة مرحبة، مرحة:

(من نبه الطائرين فانتفضا والوكر دفء وغبطة ورضا؟
قيل: التقتْ يده ملاطفة
فشمّ منها قبولها، فنضا)
قالت نينا بتروفنا ضاحكة:
ـ أمي.. ما أنا في الرابعة عشرة.
ـ انت في الليلة الرابعة عشرة الفاضحة من الشهر القمري.
وهنا طلعت ناديا من المطبخ قائلة:
ـ لا أقمار في سمائنا غير الأقمار الاصطناعية.
اخذتها نينا بتروفنا بين يديها مقبلة، قائلة:
ـ واحرّ قلبي عليك!
التفتت ناديا اليّ قائلة، وعيناها في عيني:
ـ اعذرْني. أنا عائدة إلى المطبخ. العشاء ومتطلباته.
ـ وأنا عائد إلى بيتي معتذرا وشاكرا.
نظرت الجدة إلى ناديا (محذرة). واخذتْ نينا بتروفنا يدي بين يديها الناصعتين، الدافئتين (وأنا اتذكر صنائعهما البارحة) واعانتني قبل أن أعينها في انتزاع معطفي قائلة، وفي عينيها ارتجاج ظلٍّ ما (أهو الظل نفسه؟ ظلّ اول ارتيابةٍ غائمةٍ في زرقة عينيها الصافيتين العميقتين؟) أم إنني كنت اتخيل هذا تخيلاً:
ـ لن تتعشى الا معنا. اتفقنا. اجلسْ من فضلك على أريكتي. أنا ذاهبة لأغير ثيابي. وعائدة اليك لأهيئ كلّ شيء. لا شيء يعوزنا. ذهبت الجدة إلى المطبخ. فانتظرت أيّ شيءٍ (فضائحي) غير أن تخرج ناديا من المطبخ ضاحكة، قائلة لي، والجدة كالمتحيرة:
ـ سأعد أنا المائدة. لن تنتهي الدكتورة من زينتها الا بعد ساعة. وجئت بقنينة الخمرة الحمراء والأقداح. خرجت نينا بتروفنا من غرفتها غير آخذةٍ من الزينة ظلا أو شبه ظلٍّ (ما حاجة امرأةٍ في مثل جمالها

إلى زينةٍ؟) وكانت في بدلةٍ اخرى.. حمراء داكنةٍ، ضيقةٍ بامتلائها العجائبي. كنت انتظرها آتية في ثوبها المنزلي، هاهي كمن تتأهب للخروج إلى المسرح أو المطعم الساهر. لم تقل ناديا شيئا. ولم تقل الجدة غير (تحيتها) المعهودة: في صحتك. كان واضحا ان نينا بتروفنا مزمعة أمرها على الخروج إلى خفارةٍ غير منتظرةٍ في المستشفى أم إلى شقتي؟ لا ادري. ولا أحد آخر يدري. فجأة قالت، وهي لم تنفك ممسكة بكأسها بعد أن ارتشفت منها:

ـ لا رغبة لي في ركوب الحافلة المزدحمة أو المترو.. أو التكسي. هل لك رجاء. بمرافقتي إلى المستشفى.. في مركبتك الذلول؟
ـ الآن؟
ـ ما بك؟ إلى أين الآن؟ غدا صباحا.
ـ يسرني هذا اكثر مما تتصورين.
ـ طيب. أنا ذاهبة معك. ومن هناك غدا إلى المستشفى.
واضافت كالمنبهة:
ـ سأوقظك في ساعةٍ مبكرةٍ. ينبغي أن تعلم.
ـ في أية ساعةٍ تشائين.
ـ لن اشرب بعد هذا القدح شيئا.

لم تنظرْ نينا بتروفنا إلى ناديا. وتعمدت أنا الا أنظر اليها. وبدت غير مباليةٍ بشيء. أية سحبٍ تتجمع من حولي وأنا لا ادري؟ لماذا هي (نينا بتروفنا) صامتة عن الجولة؟ عن الغداء ومقهى البونش؟ أهي جادة في عزوفها عن الحافلة والمترو؟ ما ليديها تكادان ترتجفان وهي تمسّ يدي مسا حارا؟ هي تدري أنني اكره النهوض من النوم مبكرا، وتروم مني أن أوصلها إلى عملها وكأنما هي مسرعة إلى المحطة.
ـ آن أن نذهب. ارهقني التجوال الطويل اليوم.. النهار كله. وأريد أن

أنام. ينبغي أن اصحو صافية الذهن. جمة النشاط. ليلة هادئة.

لم تقل كلمة ونحن في انتظار المصعد.. أو في السيارة. وعند المدخل إلى بيتي دثرنا السيارة معا بغطائها صامتين. وصعدنا. ولحظة دخلنا الشقة قالت قبل أن تبدأ بانتزاع معطفها:

ـ لن أوقظك غدا لمرافقتي إلى المستشفى.

ـ لا قوة على الأرض تمنعني غدا من ان أوصلك.

ـ مابك؟ لم اقلْ هذا الأحجة لتزجية الليل معك.

ـ لا تعاندي. سأوصلك

ـ طيلة النهار وانا انتظر دعوة منك إلى شقتك.

ـ كنت افكر بنهوضك فجرا.

ـ لماذا لم تقترح (الدعوة) بعد المطعم؟

ـ كنت انتظر لمسة حارة من يدك.

ـ سأدخل المخدع واغير ثيابي. لا تدخلْ من فضلك.

ذهبت إلى المطبخ. وعدت بقنينة النبيذ الأحمر الرائق الممتلئة إلى نصفها وكأسين بلوريتين. وانعطفت ثانية إلى المطبخ فانفتح الباب.. انفتح عن افروديت الروسية الباب، في ثوبٍ منزلي أحمر داكن، عارية الذراعين والنصف الأعلى من الصدر. ثدياها المكوران يندفعان بالقماش كنهدي عذراء. يا بياضاً يتنحى البياض استحياء منه! واخذت بذراعيها مترفقا، خائفا على رقتها وبياضها من آثار اصابعي (وهي تبقي آثارها كلّ مرةٍ حمرا عليها) وقبلتها مثلما تقبل المعبودات في المعابد.

ـ ليس الآن. ارتد بيجامتك واتبعني إلى البهو.

ورجعت كالتائه. قالت نينا بتروفنا:

ـ لن اشرب غير قطراتٍ (استرقها) من كاسك.

ـ لم نزل في اول الليل.
ـ بل في الثامنة والنصف. لا تعد الساعة إلى الوراء.
ـ إخالني دائخا معك.
ـ دائخا؟
ـ اعني كالثمل. ورأسي يدور.
فضحكت افروديت:
ـ ما دمت قد سكرت (بحسني) فلا تشربْ.
ورجتني ملتفتة إلى منضدة الكتابة:
ـ علمني العربية فأقرأ ما تكتب عني.
ـ سأترجمه لك حرفاً حرفا.. فيما بعد.
ـ كنت موزعة آخر الأسبوع توزيعا عادلا، متوازنا.. لك ليلة الأحد كلها، ونهار الأحد لناديا وامي. وها أنا أنزل إحدى الكفتين عن الأخرى. الأحد كله لك.. ليله ونهاره. وليلة الاثنين ايضا. ما أنا بربة بيتٍ منصفةٍ أنا(متسكعة). امرأة مقاهٍ ومطاعم. امرأة بونش.

وضحكنا معا. واضافت آخذة (الصرامة والجدية):
ـ انت أصبتني بعدوى التشرد والسكر.. فاندفعت انتقل من خمارةٍ إلى مقهى، ومن رصيف إلى وكر فتى عزبٍ. أضعت رصانتي وتحفظي. أنا الدكتورة المرجوة كلما ادلهمتْ سماء العمليات الجراحية، وتلفت الجراحون والممرضات إلى باب الردهة مترقبين طلوعي، ورائحة الكلور وفورم تملأ الممرات، وتندفع إلى الحديقة فالى الشارع، وتتوقف حركة السير.
ـ وتعبر الطرقات والساحات إلى هنا. تصل البيت، وتنفتح كوتي المنفرجة عن تيارها العرم، فأتخدر، واتوقف عن الترجمة.
ـ ويتصل الجيران بي. فأخفّ راكضة إلى عربة الاسعاف، والممرضة

تجري خلفي صائحة:لا تنسي حقيبتك يادكتورة.
ـ وتجدينني عصفورا مرفرفا في البهو.. أعني روحي.
ـ فأقطع شرياني ووريدي، والحقّ بك (أو الحقك) عصفورة مزقزقة، ونفرّ من الكوة إلى الحديقة وقد اخضرتُ، بين الارواح الأخرى متجمعين متفرقين، هائمين تحت الثلوج المنهمرة طيرا ابابيل.
ـ فإذا أضعتني بين الريش المتطاير؟
ـ تدلني الممرضة اليك.
ـ أهي جذابة؟
ـ وجميلة. وهي تشبه الممرضة في فلم (الزملاء). انما أنصحك بالتريث أو الأبتعاد. لا سبيل اليها بين أطبائها الطماعى.

نهضتُ إلى الكوة لتفرجها قليلا، والتفتت الي.. فرأت عينيّ المعجبتين بظهرها، التائقتين، فابتسمتُ لي، ومدت ذراعيها البضتين الممتلئتين إلى الكوة مزيحة شيئا من الستارة، ناظرة إلى الليل:
ـ الثلوج تتهاطل. لن افرج عن الكوة.
ـ سنجد الحديقة مدثرة بها صباحا.
ـ لن توصلني. قلت لك.
ـ سأوصلك. سترين. وسانتظرك مساء قرب المستشفى.
ـ لن اسمح. لا أريد ايقاظك فجرا.
ـ لن تحرميني بهجة توصيلك وفرحة انتظارك.
ـ الطريق مزدحم وممل.
ـ من أين يدخل الملل ونافذة السيارة مغلقة، وانت إلى جانبي؟
ـ لم أردْ غير تزجية الليلة معك تحت غطاءٍ واحد. ما كان تبرمي بحافلة الصباح الا تمويها.. لم يشفّ الا عن رغبتي (العارية) بالنوم معك.. وتغطيتك بقبلاتي.

ـ لن تذهبي أو تعودي غدا الا معي.

هي المرة الأولى التي نخرج معا إلى الطريق قبل السابعة صباحا. (كنت اخشى ازدحام الشوارع فتتأخر عن عملها). كانت قد اكتستْ بثيابٍ اخرى انتقتها من الخزانة. واعدتْ لنا إفطارا.. مفضلة الكاكاو بالحليب على القهوة والشاي، ناصحة اياي بارتداء الدافئ من الكساء الداخلي.. بل آمرة إياي وأنا اضحك. كان الطريق مؤنسا رغم زحمته، وهي تكرر أن انتبه والا أسرع.وانتظرتها مساء عند السياج الجانبي من حديقة المستشفى. وجاءت خفيفة الخطى، متوردة الوجنتين. كانت ساقها أعجوبة من الأعاجيب. وقبلتني لحظة جلوسها إلى جانبي تحت أنظار العابرات. أوصلتها حتى المدخل إلى بيتها وعدتُ.. لا إلى منزلي بل إلى مكتبة الآداب الأجنبية. لم اكن متفقا مع ناديا على لقاء. قد ألقاها (منحنية) على كتابها في القاعة الصغرى أو في الغرفة الوسطى.. نصحتها باللجوء اليهما كلما التفّ ازدحام القاعة الكبيرة. لم أجدْها في الغرفة أو في احدى القاعتين. أعدت الكتاب إلى المشرفة معتذرا بموعدٍ لم اتذكره الا الآن. واجتزت الأزقة العتيقة في اتجاه فندق موسكو.. حيث البونش وربما ناديا. ووجدتها هناك. أمامها قدح بونش لم يبق الانصفه وفنجان قهوة. عند المائدة فتاتان أخريان. الكرسيّ الرابع محتجز لي.. فقد وضعتْ عليه حقيبتها. حييت وانعطفت إلى كاونتر الساقية. وعدت بقهوة وبونش. سألتني:

ـ هل مررت على المكتبة؟

ـ مررت.. آملا أن التقيك.

ـ ولم تجدْ الا (ظلا) مني باقيا هناك.

ـ أكنت في القاعة؟

ـ أعني(ظلّ) آخر جلوسٍ لي.

ـ فنجانك فارغ. سآتي بغيره.
ـ بل بقدح بونش. وليس الآن. لم ينضب (إكسيري) بعد.
ـ متى انسحبت من اجتماع آلهة الأولمب؟
ـ بعد(تسللك) منه بقليل.
ـ كيف سمحوا بخروج اثينا الرفيعة المقام؟
ـ مثلما غضّوا الطرف عن انسلال أبولو من كوة المتهربين من الجندية.
أيّ كتابٍ استطبت قراءته قبل أن يهتف بك صائح البونش؟
ـ أعدتُ الكتاب حالما ابصرت العرش مقفرا منك.
ـ لم تجبْ عن سؤالي بعد.
ـ انت تذكرين علاّمة ضريراً من المعاصرين، حدثتك عنه. هو طه حسين باشا. لم أزلْ (أتصفح) حديث اربعائه في الأدب العربي.
ـ خريج السوربون؟
ـ وخريج الأزهر. واول من نال الدكتوراه في الجامعة المصرية.
ـ افي نيتك (الاستحصال)على الدكتوراه أو ما أشبه؟
ـ لا وقت عندي.
ـ انكسار الظهر على الكتابة اليومية؟
ـ هي وغيرها.
ـ أعان الله تلامذة الشيخ قتيل الرفوف المثقلة بالمجلدات.
ـ كيف وجدت (البخلاء)؟
ـ امتصصت فرائده امتصاص البونش السائغ.
ـ سأجئ لك بالقدح الموعود.
ـ ولك ايضا.لن اخرج مترنحة وانت صاح.
ـ أنا عكازك على المرمري الاشهب.
ـ لا(علو) إلى منتدى النوادل الليلة.
ونظرتْ إلى عيني منظرة لا ادري.. أهي (متفهمة) أم غير عابئة:

ـ هل أوصلت نينا بتروفنا إلى المستشفى؟
ـ اوصلتها. وانتظرتها مساء.. ساعة خروجها من هناك.
ـ لا أعرف إلى أين تتفرق أو تنتهي بنا السبل.
ـ أو إلى أين تلتقي بنا؟
ـ لا أرى في لأفق غير الضباب وفي الضباب ثلاثة أطياف.
ـ كما قال ماركس عن الشيوعية: إنها شبح في ضباب الطرقات الاوربية. آنذاك كان في المكتبة اللندنية منحني الظهر على كتابة (رأس المال).
ـ الأمي الأول والأخير.
ـ لماذا الأخير؟
ـ كان طفلا (تائها) تخلى عن(قبيلةٍ) تائهة.
ـ لم يتخلّ عن احدٍ من الناس.
ـ اتخذ طريقا غير طريقها.. إلى القبائل كلها.. إلى الناس. كان يعود من المكتبة ليلا إلى البيت خاوي الوفاض.. إلى زوجته وابنتيه. كانت زوجته من أسرةٍ ثرية. كانت من خيرة الزوجات والأمهات. لا أريد أن (اترحم) على زوجة المنكوب سقراط.
ـ كانت شرّ زوجة.
ـ يقال إنها زارته قبيل إعدامه.
ـ ربما تضرعا، كما ارادت السلطة، عسى أن يتخلى عن آرائه. وتجرع الرجل كأس السم جرعة، جرعة. أو تجرعها مرة واحدة مثلما يدخل السكير الخمارة بعد انقطاع لليالٍ عنها، ويتجرع قنينته إلى آخر قطرةٍ منها من غير أن يتوقف، ملقيا، بعدها، نظرة متكبرة على الحاضرين، وكاننا في حانةٍ ما من حانات اوائل القرن العشرين في موسكو، اتعلمين؟ قبالة السينما المركزية، عبر شارع غوركي، كنتُ أمرّ، أحيانا على مقهى قديمٍ، هو مقصف مغمور الآن.. قديما كان خمارة معروفة

يلتقي فيها يسينين وصعاليك آخرون.. يسكرون ويتغنون متذكرين موسكو الخشبية. هي مطعم صغير الآن.. لا بيرة هناك ولا فودكا. لا شيء غير الكاشا (عصيدة الحليب والدقيق) وغداء العابر المستعجل.

وخرجنا من المقهى والباب الجانبي اتجاه المترو تاركين إياه إلى اليمين منا، وانعطفنا ناحية المدخل الكبير إلى الفندق، مبتعدين نحو الحديقة وتمثالها المتحفز متوعداً الرأسمالية. انعطفنا ايضا قبل المتروبول إلى موقف السيارات الطويل الجانبي. وقبل أن تخرج ناديا من المركبة إلى البيت قالت غير مقبلة وجهي:

ـ غدا في المقهى.

ـ متى؟

ـ قلت غدا.

ـ في اية ساعة؟

ـ عجبا! أهناك غير الخامسة والنصف أو بعدها؟

ـ ما رأيك أن انتظرك في مقهى آخر؟

ـ لا أعرف مقهى آخر.

ـ لا تعرفين أو لا تريدين؟

ـ لا فرق.

انتظرتها طويلا في المقهى ولم تأت. انتظرتها منذ الخامسة ولم تحضرْ. وكانت الساقية تتجه بعينيها إلى الستار الخيزراني كلما اتجهت عيناي اليه. وحين اخذت البونش الثاني منها، وكانت الساعية تقترب من السادسة، قالت:

ـ لا تحزنْ. ما اكثرهن!

ـ لا شيء بيننا غيز البونش.

واضفت ناظرا إلى الباب:

ـ والستار الخيزراني.
ـ قل هذا ساقيةٍ غيري.

وفي السابعة، وقد سئمت بونشا وانتظارا، لم أر غير المرمريّ الأشهب مرتقى لي إلى حيث تتبدد غمائم الوحشة ويتجمع دخان التبغ. وقبل أن اتجه إلى مائدةٍ أو كرسي خالٍ ابتدرتني النادلة الصديقة بحركاتٍ سريعةٍ من يدها كمن تقول: تعال إلى هنا. واجلستني إلى مائدةٍ نصفها خالٍ أو هو في انتظار من يقترب منه أو يدل عليه كما دللت. وقبل ان تفتح (دفترها) الصغير أو سجلّ (قوائمها) قالت متعاطفة معي:

ـ الكرسيّ الرابع محتجز لفتاتك.
ـ قد لا تحضر.
ـ سننتظر ساعة أو أقلّ.

وبعد ان توقفتْ عند المائدة المجاورة عادت إليّ قائلة:
ـ أنا مصغية.
ـ صلطة وكونياك وكافيار وعشاء.
ـ لاثنين؟ قد تتهادى حسناؤك فجأة اليك.
ـ ليكن لاثنين.

الى النصف الآخر من المائدة تجلس امرأة ورجل. كنت يائسا من (ارتقاء) ناديا الكونفشيوسي إلى المطعم. لم يدر بيني وبين النصف الآخر من المائدة غير (المتلكئ) من المفردات العابرة. اقتربت النادلة مني قائلة:
ـ اتود إحضار شيءٍ آخر؟ ام ننتظر؟
ـ لا برق في الأفق.
ـ أبق الكرسيّ محتجزا.واضافت مازحة، جادة:

ـ فإن لم تحظرهي.. سترجو الجلوس فتاة اخرى.
وقبل أن تبتعد اقبلت ناديا. قالت النادلة:
ـ ألم أقل لك؟
حيت ناديا النادلة والمائدة قائلة لي:
ـ جئت المقهى متاخرة.. آسفة.
وكنت اقول لنفسي هازئا منها ومن ناديا:
وجاء (عصيفير من الشرق) زارعا
رصيف الصبايا (الروس) نخلا من الهوى
يطيل الظلال الخضر منه مكايدا
واما العذوق الحمر فهي نوى النوى.
قالت النادلة:
ـ أيّ شيءٍ تودين أن تضيفي إلى القائمة؟ هي ذي.
قرأتها ناديا وقالت:
ـ العشاء نفسه، ولا شيء آخر من فضلك.
وقبل أن تبتعد النادلة قلت:
ـ لحظة واحدة رجاء.. ربما تريد ناديا نبيذا. قالت ناديا:
ـ ليكن دورقا صغيرا من النبيذ.. من فضلك.
قلت مخاطبا النادلة:
ـ قنينة من النبيذ الأبيض رجاء.
ـ لن يسمح لي نهوضي المبكر بغير قدحين.
ـ أنا من (يتمتع) بالباقي.
ـ لا تمزحْ. لن تشرب غير كاسي كونياكٍ آخرين.. لا غير.
عادت النادلة بقنينة النبيذ وآنية أخرى، صلطة العاصمة مثلما تدعى في المطاعم الموسكوية. لم أسأل عن تأخزها. كنت أعرف أنها قد تتعمد إطالة انتظاري تدللا.. ليس إلا. اخذت ناديا لفافة من علبتي فأوقدتها

لها. تناولت هي القداحة واشعلتها فلم تسمع غير دقتين باهتتين.
اعادتها إلى حيث تنطرح علبة السجائر:
ـ أين اختفى (الطرب)؟
ـ اسكته مللا منه، ورفقا بآذان الناس.
ـ كان أنيسا، لطيفا.
ـ سأعيده الآن. لا تحزني.
قالت ناديا مستصغرة ما تقول:
ـ سير (الصحفي السيئ السمعة) مبعوثة الينا اليوم.
ـ اندريه؟
ـ وجدتها حالما دخلت الشقة. وطردتها.
ـ لم يقنط بعد.
ـ حملت (مكتوبا) مطولا منه. فمزقته قبل ان اقرأه. وأعدته إربا إربا اليها. قالت الجدة:قولي له عني: فتش في القمامة عن زوجةٍ لك. ضحكت نينا بتروفنا قائلة:وسيطول بحثه إلى أن يطرده الزبالون.
قلت مازحا:
ـ لم تخسري غير قدح بونش. سأضع بين يديك غدا ثلاثة أقداح عوضا منه. فاذا وجدت الثالث فائضا عن الحاجة فنصفه لي.
ـ ما رأيك بنصيحة الجدة؟
ـ لا اعتراض عليها. انما ماذا ستقول الجدة الحكيمة لو انه وجد في احدى المزابل تفاحة مدودة أو قشر برتقالةٍ يابسا؟ فاذا أعاد التنقيب جيدا، وأجهد نفسه منتقلا من برميلٍ إلى برميلٍ أو من كيسٍ إلى كيسٍ فقد يسعفه الحظّ فيعثر على مانعٍ للحمل مستعمل.
فضحكت ناديا وضحك الجاران ضحكاً اثار استطلاع القريبين منا. غير انني سرعان ما ندمت متذكرا وجه اندريه وهو ينتظرني مع ناديا عند سينما متروبول أول مرةٍ اری نادیا فیها. وخجلت من نفسي.

فأردت ان اتجه بالحديث ناحية اخرى بعيدا عن اندريه ولم أفلحْ. قلت:
ـ لم اقصد الأساءة إلى أحدٍ.
قالت جارة المائدة:
ـ لم يكن الا مزاحا.
وقال الجار الآخر:
ـ ولم يسمعْ أحد الضحكات. فلا تجزعْ.

من مكتبة الآداب الأجنبية إلى المقهى، ومن المقهى إلى المطعم.. لم أسألْ نفسي عن (محنتها) في حبها إياي أنا أعني ناديا. ولماذا اسأل عن حب نينا بتروفنا وهو صافٍ صفاء المياه المتدفقة من أعماق الصخور، وانت تنحني عليها لتشرب.. أو وهي منحنية عليك. وعند مرورنا بالمدخل الكبير إلى فندق موسكو قالت ناديا مؤكدة أو مازحة.. لا ادري:
ـ هنا تتم ليلة زفافنا.. في احدى غرفات الطابق الرابع.
ـ لماذا الرابع؟
ـ الاول هو الطابق الأرضي.. لا غرفات فيه. الثاني والثالث قريبان من ضجة الشارع. الخامس والسادس بعيدان اذا ما تعطل المصعد. ولا ادارة فندقٍ تفكر بالسابع وما فوقه مأوى لعروسين.
ـ فاتني أنهم فطنون.
ـ انتظرني غدا.
ـ متى وأين؟
ـ أنت تعرف متى.
ـ بعد الخامسة مساء.وأين؟
ـ انت تعرف أين ايضا.
ـ في شقتي البيضاء الستائر.
ـ ليس في شقتك.

ـ فأين يروقك؟
ـ في مقهى الرومانتيك.
ـ إنه خامل وكئيب. لا أحد هناك غير النادلة نقريبا. وهي امرأة عابسة لخلوّ المقهى وجلوسها عاطلة طيلة الوقت.

ـ إنه غير بعيد عن بيتكم. يمكنك (الأهرمّاع) اليه والترنح منه سيرا على قدميك. وهذا أنفع للكتبة القابعين على كراسيهم منحني الظهور على الصحائف ليل نهار. قوم الله اعوجاجهم.

ـ لن تلبثي هناك الا دقائق حتى تتململي.
ـ جيء معك بقصتين بوليسيتين دفعا للضجر.
ـ (ينتجع) الناس المقهى للمسرة لا للتثاؤب.
ـ وقل إنك لم تتلقف (التنطع) مني.
ـ كالكرة الطائرة.
ـ تعني كرة السلة.

ـ سأنتظرك في مكتبة الآداب الأجنبية حتى السادسة.. فإن لم تبزغْ شمس الليل.. ففي مقهى البونش.

ـ لا ارتضي التكرار.
ـ لا(إضافة) لديّ.
ـ ولا من طرف لساني.
وصمتت طيلة الطريق. وصمتّ أنا. اوقفت السيارة عند أعتاب منزلهم فقبلتني قبل ان تخرج. فقبلتها قائلا، وقد رقّ فؤادي:

ـ سأنتظرك في (سقيفة) الرومانتيك.

قبلتني ثانية. ولم تقلْ شيئا. وخرجت. لم يكن المقهى غير مبنى منفرد، (مثلث) السقف كالصريفة. لامزائد كلها خالية تقريبا الا هنا أو هناك.

ورائحة الجعة والتبغ هي الغالبة كما أتضح لي. اخترت مائدة (اية مائدة) في الجانب المواجه للبار. وهي مدثرة كغيرها بغطاءٍ أخضر قاتم .. ربما زيادة في التعقيم أو التستر. المصابيح غير قوية. جاءت المرأة بغير قائمةٍ.

ـ بيرة؟
ـ قنينة نبيذٍ ابيض من فضلك.. لشخصين.
ـ وسمك مملح، مجفف؟
ـ تخيري انت امتع شيءٍ عندكم من فضلك.
ـ هو اجود ما عندنا.

وجاءت بالقدحين والزجاجة. وتأخرت قليلا قبل أن تعود بالصحنين الصينيين، الأبيضين. وعادت مرة اخرى باناءٍ زجاجي صغيرٍ مليءٍ بالخيار المملح. وهي مزة لم اعهدها في المقاهي والمطاعم.. وفي مقهاهم ايضا عند ما زرته مصادفة اول مرة. كانتا امرأتين في مئزرين ابيضين، نظيفين: الساقية وامراة البار.. أو الكاونتر وهو الأصح. كنت انتظر ارتفاع محادثة. الا أن القلة الجالسة من عمال الحي كانت هادئة. تطلعوا اليّ، بالطبع، حالما دخلت، وشغلوا بكؤوسهم الكبيرة، كؤوس البيرة، وبحديثهم. وعادت النادلة ايضا بزجاجة المياه المعدنية وبقدحين نظيفين.. باسمة لي:
ـ قد يحتاجها الضيفان.

ونظرتُ هي إلى الباب. رأت ناديا قبل أن اراها. كانت(صائحة) الأناقة وجميلة جدا.وتاملها الزبائن القليلون معجبين، مستغربين. سكبت النادلة لناديا وألقت نظرة إلى تسريحتها الجميلة، البسيطة. وانصرفت.
ـ إنه (مزار) متواضع بالطبع.

قالت ناديا، واضافت بعد أول نخب تحية لمقدمها:
ـ الا أنه هادئ. واضواؤه مريحة للانفس المتعبة.
ـ وللأعين المنهكة بعد جفاف أقلامٍ وأقلام.
ـ هو مقصد المرهقين وخفيفي الجيوب.
ـ لماذا هو مهجور تقريبا؟
ـ هنا (السمر) الشائع هو مناصفة الفودكا في الحدائق الصغيرة مع انتشار العتمات.. أو في الزوايا غير المضاءة جيدا وراء المخازن. الم ترهم يتفاهمون، عند أجنحة المشروبات، بقسمة السبابة الوهمية إلى قسمين؟ أي بشراء قنينة الفودكا وتجرعها عدلا بين شخصين.
ـ سمعت شيئا عن هذا.
ـ ألم يقترحه عليك أحدهم.
ـ لا اذكر.
ـ من الواضح لهم أنك ممن يشترون الخمرة مسرعين بها إلى بيوتهم في انتظار ضيفاتهم.. أو إلى شقق السيدات المنتظرات.
ـ لحظة يدبّ دبيب الملال اليك.. خبريني فنخرج.
ـ لم تزل ساعة الاغلاق بعيدة.
ـ أناوية المكوث حتى التاسعة؟
ـ فلم اوصيت على قنينة؟
ـ خوف ان يغشونا في شرابنا.
ـ لا خداع هنا.. بل في مطاعم الثريات.
ـ كاننا هنا في المنفى.. أو في مقهى المنفيين.
ـ هنا الهدوء الشامل. وفي المركز الصخب والبهرجة. قالت الجدة وأنا أغير ثيابي لآتيك:أهو موعد غرامي أم موعد البونش الاعتيادي قلت: انا ذاهبة إلى مقهى الحي. قالت: اهو فتى من رقعاء جادة البولفار؟ قلت: هو شيخ من شيوخ الكيمياء. قالت:

خاب أملي فيك. قلت.. هو خير من محرري الأنباء الثقافية البائرة.
قالت: ضللي غيري. ما هذه الزينة كلها، وتخير الثياب لشيخ.
ـ لكنك لم تتزيني الا مسا خفيفا.
ـ هي تعني حيرتي بين الأثواب.
ـ لم ينفتح الباب عن أحدٍ حتى الآن. حدقت ببصرها اليّ تحديقا قبل ان تقول:
ـ الصبايا في مقاهي البونش.
ـ أقسم أنك (مقرورة) سأما الآن
ـ أهي وحشة الطرق أم وحشة الرفيق؟
ـ لاشقة ادفأء ابهج!
ـ زهدني جفاؤك بالثلث من الشرشف الابيض.
ـ سأوصلك في التكسي واعود به إلى بيتي.
ـ ومن بيتك إلى المركز.
ـ تعالي معي إلى احدهما.
ـ إلى شقتك. ولا (تسلل) إلا إلى المطبخ والبهو.
ـ كما تشائين.
ـ حقا.. لا مزاج لي اليوم.
وخرجنا إلى الشارع.
وقبل أن اتبعها إلى المطبخ رن التلفون. إنها لوسا:
ـ ماذا أنت صانع الآن؟
ـ انتظر تلفونا.
ـ من الصغرى أم من الكبرى.
ـ من لا أحد.
ـ أنا مجازة غدا. وفي بيتي الآن.
ـ سأمرّ. ليس الآن.

ـ أنا في انتظارك إلى أن يغلق المترو وتتوقف الحافلات، وينقطع رنين الترام المنزلق على سكته، هذه اللحظة، تحت نافذتي. أعني آخر ترام. اتصلْ أو لا تتصلْ. أنا منتظرة. أمامي التلفزيون ومجلتا أزياء. ومجلة اخرى. هي (التمساح) الكاريكاتيرية. كما اظنّ. أجل. انها هي. ألم تحبل الصغيرة العزيزة بعد؟ أم قد أجهضتْ حملها الرابع؟ ام الحبلى هي الدكتورة؟ما أجملها حقا!

لماذا الرابع؟ وتذكرت الطابق الرابع من فندق موسكو الذي (ارتأته) ناديا.. أو ارتأت غرفة منه مضجعا لنا ليلة عرسنا (المتخيلة) كاشباح أو ظلال الأشجار المتعرية في الحديقة المهجورة. دخلت المطبخ. لم تقلْ ناديا شيئا. ولم تسألْ. اخذت انا قنينة خمرٍ وكاسين إلى مائدة البهو. وظلت هي في المطبخ تهيئ المزة أو ما يشبه العشاء الخفيف. ثم حملتُ إلى المائدة المغطاة بالشراشف الأبيض إناءين. واتخذت مكانها إلى المائدة غير منتبهةٍ إلى شاشة التلفزيون. هي التي زعمت انها معتكرة المزاج. أخذتُ لفافة من العلبة. اوقدتها لها وطفقتْ تدخن قبل أن ادخن أنا. وكانت الخطى، خطى نساءٍ، تسمع عالية في الطريق. لماذا لوسا؟ لماذا (امتطاء) المركبة إلى لوسا؟ وما الذي ذكرها بي؟ لم تقل إنها الآن مع ايرينا أو هي في انتظارها (التجيء بها) اليّ. لماذا لوسا؟ هل سئمتْ عشاقها فتذكرتني واتصلتْ بي؟ ولماذا لم تتزوجْ بعد؟ أم هي مطلقة للمرة الثانية؟ لم تفترض مني مبلغا منذ طلاقها.. مع انني عرضت عليها نقوداً.. (قرضاً) قبل آخر لقاءٍ تمّ فيما بيننا. وكنت صافي النية في قتراحي إعانتها. قالت إنها ستطلب مني النقود متى احتاجتها. فهل هي بحاجةٍ اليها الآن؟ لا اعرف إلا أنها تلفنت، قبل ساعةٍ، راغبة بزيارتي.
ـ إلى أية جهة من الجهات الاربع انت شارد الذهي؟

ـ لا إلى جهةٍ محددة.
واخذتُ أصبّ. وقد فرغ القدحان.
ـ هذا قدحي الأخير. وهو زائد بعد نبيذ المقهى.
ـ أين نلتقي غدا؟
ـ سأتلفن لك نهارا.. بعد الثانية. كانت لوسا تتحدث مرتفعة الصوت.. تعمدا؟لا أدري. ما هي بالماكرة أو اللئيمة. انها (مرحة) كما تقول ناديا. هل سمعتها مصادفة؟ لا تتسمع ناديا كما اعرف؟أو إنني لم أرها مرة (متسمعة).

أوصلتها حتى المدخل إلى منزلها. وعدت إلى الشارع. اوقفت المركبة في طريق جانبي حيث يقف على رصيف الشارع كشك تلفون. قلت آسفا حقا، وأنا اتذكر اول مرةٍ رأيتها فيها:
ـ أعرف انني تأخرت عنك.
ـ لا يهمّ. أين أنت الآن؟
ـ ليس بعيدا.أنا آتٍ خلال ثلث ساعة.
ـ أو نصف ساعة. ستجدني قرب المدخل.

انها وحدها. ووجدتها هناك. أسرعتُ إلى الباب المفتوح وركبتُ قبلتني قبلتها الحارة حقا، المغرية. ولم أسألها عن إيرينا. النوافذ على جانبي الشارع مضاءة أو مشعشعة. وبعضها لم يوقدْ بعد مثل نوافذي الثلاث عندما اغادر الشقة صباحا إلى المركز ناسيا اشعال الضوء في البهو أو المطبخ. هي وحدها. ولماذا ايرينا؟ الشقة تتوهج كما توهجت مرارا ولوسا تجوبها متعرية.. الا أنها الآن لم تتجردْ، ولم تومئ إلى التعري بشيء. ذهبت إلى غرفة النوم، وجاءت مرتدية روبي الأحمر الداكن وحده على عريها. أين قميصها؟ أين ثيابها الأخرى؟ انها في المهجع معلقة في الخزانة أو مرمية على مقعد الزينة. إنها تتنقل بين المطبخ

والبهو مثلما كانت تتنقل الملكات الآشوريات أو المصريات من عرشٍ إلى عرش. عندما خرجنا من السيارة عند المدخل إلى منزلي كانت الثلوج تتساقط. وبعد ساعةٍ حينما ازاحت لوسا الستارة قليلا عن النافذة متأملة الليل لم تبرح الثلوج تنهمر انهمارا متسارعا. أعادت الستارة على النافذة، وعادت إليّ قائلة، وكأن الشقة المجاورة، شقتها قبل طلاقها، لا تذكرها بشيء، أو كانها لم تقطنها يوما ما:

ـ الم تزل الجارة الحميدة (تتسول) منك اعواد الثقاب؟

ـ أحيانا تطرق الباب معتذرة.

ضحكت لوسا فجأة قائلة:

ـ لم تبق لك من العلبة الا البقية (الباقية).

ـ انت تذكرينني بحكايةٍ من حكايات الدنمركي هانس أندرسن أبرز مؤلفي حكايات الأطفال الأوربيين. قرأتها وانا طالب في الأول المتوسط، في مكتبة المدينة العامة. لا فرق بينها وبين مكتبة الآداب الأجنبية تقريبا.لا اتذكر من الحكاية الآن إلا أن الصبية الصغيرة، بائعة اعواد الثقاب لم تبع عودا من أعواد ثقابها طوال النهار. كانت الليلة هي ليلة رأس السنة. كانت ترى النوافذ المتوهجة وشموع الميلاد المشتعلة والمصابيح على أشجارها. وكانت تشمّ رائحة الشواء.. الطفلة الصغيرة الجائعة. لم تجرؤ على العودة إلى بيتها، فلم تبع عود كبريتٍ واحدا. سيضربها ابوها إن هي عادت فارغة الجيب. كان الليل باردا جدا. اشعلتْ عودا جلبا للدفء، وسريعا ما أطفأته الرياح. وخلال اشتعالته القصيرة رأت البطة المشوية عبر نافذة البيت المحتفل تتهادى اليها. غير ان البطة لم تكن الا حلما. اشعلت الطفلة عود كبريتٍ آخر فرات جدتها الميتة رؤية واضحة. قالت الطفلة: جدتي خذيني معك. انا أعلم أنك ستختفين حال انطفاء آخر عود مثلما اختفت صورة البطة وشجرة عيد الميلاد عبر النافذة الغريبة. وفي الصباح البارد كانت

الصبية الصغيرة في الزاوية من الشارع متجمدة ميتة. وعلى فمها المزرق بردا وموتا ابتسامة مرسومة.

قالت لوسا وكانها تتذكر:
ـ ما جاء بطائر السنونو الأسود الصغير الينا الآن؟
ـ اتذكرين قصة اوسكار وايلد (الامير السعيد)؟
ـ لم أقرأها. ما هي؟
ـ بعد انتصاف الليل والقنينة.
ـ انتصف الليل منذ حين. وسنؤجل انتصاف ليل القنينة.
ـ إلى متى؟
ـ إلى ان تدق ساعة الجيران الخربة.

استلتْ لفافة من علبة السجائر (ولم تكن تدخن الا نادرا) فاوقدتها لها.. آخذا لفافة لي، وكانت الريح تسمع، عبر النافذة، هابة، قوية، منذرة بعاصفةٍ ثلجيةٍ.. كما بدا لي. قالت لوسا مبتسمة لي ابتسامتها (المرحة) فتذكرت ناديا صاحي البال:
ـ اوصدت الزجاجة. ولن افتحها حتى تفتح الستار عن الحكاية.
ـ قال اوسكار وايلد: طار آخر سربٍ من أسراب السنونو إلى أفريقيا من لندن. ولم يبق الا سنونو واحدٌ. كان قد ابصر المآسي والأحزان خلف نوافذ الفقراء. كان يقف في وسط لندن تمثال الامير السعيد مثقلا بالجواهر واللآلئ. استأذن السنونو الامير، واخذ يحمل كل ليلةٍ جوهرة من زينته إلى هذه الأسرة البائسة أو تلك عبر النوافذ، إلى أن تعرى الأمير من ذهبه ولآلئه. ومرّ موظفو البلدية صباحا فرأوا تمثال الأمير عاطلا من زينته، بائسا، عاريا.. فأمروا باقتلاعه من قاعدته، وصنع تمثال آخر عوضا منه. وقد أخذتْ سماء لندن المتجهمة تمطر والبرد يشتد. وجاء العمال لاقتلاع تمثال الأمير الذهبي فوجدوا طائر

السنونو ميتا بردا بين يديه العاريتين.
قالت لوسا ضاحكة العينين:
ـ لا اذكر انني قرأت هذه الحكاية أو سمعتها.

انتهى النصف الثاني من قنينة ناديا.

حملتها لوسا إلى المطبخ وعادت بقنينةٍ حمراء اخرى.. حمراء رائقة. وكنا قد اعددنا مزة وعشاء جديدين ولَم تسألْ لوسا عن الضيف أو الضيقة التي سبقتها. اتسعتْ عينا لوسا وهي تقول، والرياح تحرك الستائر هابة، قوية في الحديقة والطرقات:
ـ اتريد أن أقصّ عليك حكاية من هذه الحكايات؟
ـ من فضلك!
ـ جاءت الأرملة المريضة من القرية بطفلها إلى المدينة. استاجرت غرفة أو ما يشبه الغرفة.. وجراً عارياً، ما جاء بها؟ لا أحد يدري. ربما للعلاج. لكنها لم تجد قوة أو مالا للبحث عن عيادة أو مستشفى. في ليلة رأس السنة.. أو في ليلة الميلاد وهو الأصح، وهي راقدة على فراشها البارد، اقترب طفلها منها. ايقظها فلم تستجب. حركها فكانت كالنائمة الباردة. كان نومها عميقا كما لاح له. كانت ميتة ولم يعرفْ. فخرج إلى الليل والطرقات. وقادته قدماه إلى الشوارع والمنازل المتوهجة. ووقف عند نافذةٍ تتراءى خلفها شجرة عيد الميلاد مزدانة بالمصابيح. رأى الأطفال المعافين في حللهم الجديدة الزاهية.. سعداء يتلقون الهدايا وياكلون الحلوى. وكان الطفل سعيدا بسعادتهم. وانفتحت السماء عن الملائكة، والنافذة عن الأطفال، وهم يتغنون فرحا، ويسعدون به إلى السماء الزرقاء. وكان الطفل ميتا بردا وجوعا تحت النافذة، وأمه ميتة في الوجر.
ـ انها إحدى قصص دوستويفسكي القصيرة الاخيرة، كتبها شيخا

بعد وفاة ابنه الطفل الكسي أو الوشا (مصغر الكسي). وهو الأسم الذي خصّ به الكاتب بطله (الشاحب) في (الاخوة كارامازوف).
قالت لوسا كالمتحيرة:
ـ جئت اتسلى.. وها أنا اتدلى ورقة خريف.
ـ اسمعي رجاء. ساقرأ لك شيئا مما كتبته عنك.
ـ هل كتبت عني قصة قصيرة؟
ـ بل قصصا لن اقرأها كلها.. بل صفحة أو صفحتين.. كيفما يتفق لي. تلك هي المخطوطة تلوح منعزلة في ملفها على منضدة الكتابة. وقبل أن أجيء بها واقرأ (اعني اترجم) اسكبي لنا بيديك السخيتين ملء قدحينا من حمرة الشفق. وخففي قليلا من انغلاقه الروب على صدرك الممتلئ.
لم أقرأ الا ما يسرها متخيرا الطريف. ضحكت لوسا:
ـ انجلت الغمائم.. وتنبهت الحمائم.
ـ الليلة لي (منهما) دفء ورقة ما نال الا بعضهما أول (عريسٍ) على الأرض.
ـ وأنا حواء رودان. تلك صورتها تلوح على الحائط.

صحونا متأخرين.. متأخرين جدا.لم نفطر. انحدرنا إلى مركز المدينة وتغدينا في احد المطاعم. اوصلتها بيتها وعدت إلى بيتي. كانت الساعة تقترب من النصف بعد الخامسة. وتذكرت تلفون ناديا. هل تلفنت ولم تجدني؟ لا ادري. إلى أين؟ إلى مكتبة الآداب الأجنبية بعد استحمام آخر في الماء الدافئ، وارتداء ثياب داخليةٍ غير هذه وبدلةٍ اخرى. لا تلفون. كنت عائدا من الليل فهبطت. حيتني الجارة وفي يدها شبكة التسوق:
ـ أثار أساي ان لوسا لم تطرق بابي بعد خروجكما اليوم.

ـ رايتها.
ـ أنا لم أرها. راتها احدى الجارات، وقد انفتح الباب عنكما في طريقكما إلى السيارة، وكانت عائدة من المخزن. ما كنت اؤخرها لو طرقتْ وحيت. كنا جارتين.. باباً قبالة باب. وانت بيننا. كيف هي؟ تقول الجارة: إنها تسطع جمالا وفتنة.. وكانها المثلة تتيانا إسمايلوفا. مع أنها أطول.
ـ سأبلغها سؤالك عنها.
ـ وتحيتي. أهناك زواج آخر في الأفق الداني؟
ـ لم يلح لي شيء من هذا.
ـ يقال إن زوجها السابق في مصحة (استشفاء المدمنين).
ـ أنا لا أعرفه. إلى اللقاء.

لم أجدْ ناديا في مكتبة الآداب الأجنبية. ولم أجدها في مقهى البونش. لا أظن أنها قادمة الآن. الساعة تقترب من الثامنة. أخذت القهوة والبونش بعد أن احتجزت كرسيا خاليا لي. وقبل أن أعيد فنجان القهوة، بعد أول احتساءٍ منه، إلى المائدة.. انفتح الستار الخيزراني الأصفر عن ناديا. تخليتُ لها عن مقعدي في انتظار خلو كرسي لي. واتيت لها بالقهوة والبونش. لم يطل وقوفي. فلا أحد المقاعد فحملته إلى المائدة. فأتاحوا لي مكانا جوار ناديا. قالت ناديا:
ـ هل كنت في المكتبة؟
ـ ذهبت عسى ان اجدك.
ـ تأخرتْ نينا بتروفنا. فانتظرتها حتى اتت.
ـ أهو ازدحام الشارع؟
ـ عملية استوجبت تأخرها.
ـ كيف هي؟

ـ تحييك وتنظرك.سنتعشى هناك.

ـ سنتأخر عنهما.

ـ كلا. انهما تنتظران.

واضافت كمن يتذكر:

ـ كيف انت؟

ـ جيد.. كما ترين.

ـ سننصرف بعد البونش.

ـ لن نتأخر ما دامتا تنتظران.

لم تبتسم ناديا. ولم تمزحْ. إنها حزينة حزن امرأة جميلةٍ، عائدةٍ من محطةٍ لم تدركْ قطارها فيها، حزنا صافيا كحزن أنا أخماتوفا فيٍ اشعارها. هل سمعت البارحة لوسا وهي تكلمني في التلفون؟ هبْ أنها سمعت.. لن تقول لي كلمة واحدة عن هذا إلى ان أموت. وفي الطريق إلى موقف السيارات كانت آخذة بذراعي غير دانيةٍ بنهدها المتكور، الحار الناعم.. مني مثلما كانت تفعل، كل مرةٍ، متعمدة أو غير متعمدة. ولم تقتربْ بوجهها الناعم الحار مني وهي تحدثني مثلما كانت تقترب كل مرةٍ. وفي الطريق إلى بيتها لم تقل شيئا غير تحذيري وتنبيهي راجية مني الا أسرع. قبلت نينا بتروفنا والجدة قبل أن اعلق معطفينا. كل شيءٍ كان على المائدة: قنينة النبيذ والأقداح وآنية المزة.. والماء المعدني. كانت نينا بتروفنا في رداءٍ منزلي أزرق، داكن يلوح بياضها فيه أنقى نصوعاً من بياض إلاهة الصيدٍ. فمها مائل إلى الأحمرار بلا صبغةٍ. ووجنتاها متوردتان. كانت ناديا ترى نظراتي الولهى إلى نينا بتروفنا مثلما تراها نينا بترولنا والجدة. لم استطعْ إخفاءها. بعد استحمامي مرتين كنت كمن اغتسل في مصبٍ من ينابيع الجبال.. مع أن لوسا لم تكن الا إلاهة من آلهة الجمال المعبودة الأخرى. قالت الجدة:

ـ هذا قدحي الأول والأخير.

قالت ناديا، وسرني أنها تكلمت:
ـ لم (أرزقْ) اليوم بغير قدح بونشٍ واحد. ساتولى قدحك الثاني.. إذا لم تمتّد اليه يد عجلى قبل يدي أو لحظة امتدادها.

قالت نينا بتروفنا:
ـ اليس من المعتاد أن يكتفى من البونش بقدح واحدٍ؟

قالت ناديا (الم تعدْ مكتئبة؟):
ـ القدح الثاني يقلل من عدد الأكواب البلورية.

وأضافت ناظرة إليّ:
ـ وهو أخفّ وأقلّ إثارة للدوار. قلت متقبلا نظرتها الحارة:
ـ أحيانا يصيبني البونش بالدوار اكثر مما يصيبني غيره.
ـ أنت أعلم بمكنونات المسألة الدوارية.

قالت نينا بتروفنا:
ـ لقد بززته دربة في الآونة الأخيرة.
ـ ما جرني احد غيره إلى مقهى البونش.
ـ ما ادراني أنك ستسبقينني هرولة اليه يوميا؟
ـ لم يكن هذا مني الا طردا للوحشة عنك.

قالت الجدة (مؤكدة):
ـ بل عنك. ما أسرعهن هناك اليه!
ـ جدتي. لا تقولي إنك كنت، مرة، معنا هناك.
ـ كنت معكم في المطعم.. ورأيت. قالت نينا بتروفنا مازحة، مخاطبة ناديا:

ـ واحداهن أنت.

صحوت والجرس يدق.. جرس الباب. هي المنظفة ان معها مفتاحا. إلا أنها تحبذ أن تقرع الجرس أو تتلفن لي منبئة بمقدمها. إنها الساعة التاسعة صباحا. لم (اسرقْ) البارحة كأسا فائضة عن العدد. فلماذا تأخرت في رقادي؟ وليست هي صبيحة الأحد وفي فراشي امرأة. دعوت المنظفة إلى مشاركتي إفطاري فشكرتني قائلة: إنها افطرتُ في بيتها قبل السابعة، مومئة (مزاحا) إلى نهوضي المتأخر من النوم. الكوى الثلاث مفتوحة، والمكنسة الكهربائية الطويلة تئز أزيزها العالي ملء الشقة والممر. ارتديت ثيابي ومعطفي تاركا الشقة لها. ستبقى اكثر من ثلاث ساعاتٍ تنظف وترتب وتغسل الأواني والقدور.. وتمسح. ستبدل شراشف السرير والطاولات والمائدتين بأخرى نظيفةٍ، مكويةٍ وتأخذ مها الشراشف المستعملة. فالى أين أنا؟ إلى مكتبة الآداب الأجنبية. لا ترجمة اليوم. وقد اتغدى في المطعم الفندق الجانبي (فندق موسكو).. وأعود إلى المكتبة. ومنها مساء إلى أي مقهى. بل ستقودني الريح الباردة أو تدفعني(وهو الصحيح) إلى مقهى البونش كما قادت انتيغونا أباها اوديب ضريرا. لم اتفق وناديا على موعد. رافقتني إلى مصعد الطابق. ولم تتركني حتى حط المصعد قائلة لي: ليلة هادئة كما يقولها سائر الروس وتعمدت ألا (أذكرها) بلقاءٍ في المقهى أو المكتبة.

الى جانبي في قاعة القراءة الكبيرة فتاة تتلبس لبوس الجد (لم اجدْ مكانا في القاعة الأصغر أو الغرفة) كنت مع طه حسين (لم انته من حديث الأبعاء، كنت اعود اليه بين الحين والآخر). سمعت الجارة تقول هامسة، والصمت شامل الا من صوت صفحةٍ تطوى:

ـ كم الساعة من فضلك؟

واضافت، وقد لمحت ساعتها:

ـ إنها عاطلة.
ـ الخامسة الاربعا.
ـ شكرا.

واسترجعت هي قراءة الصفحة المقلوبة. الفتاة مليحة. بل هي جميلة. اتذكر ان لها قواما بديعا.رايتها اكثر من مرة هنا.. يمكنني انتظارها حتى تعيد الكتاب وتهبط إلى المشجب فأتبعها. وناديا؟ فاذا جاءت ناديا فجأة إلى المقهى والفتاة معي؟ فأي عذر لديّ ولماذا في مقهى البونش؟ هناك مقاه صغيرة في الطوابق الأولى من الفنادق حيث لا أعرف احدا قد أفاجأ به أو يفاجئني. ما الذي ارومه منها، من طالبة آداب كما يبدو؟ لا موعد ينتظرني اليوم، فلماذا لا (اتجول)؟ إنها تقرأ روايةً (انكليزية؟) خجلت أن اختلس النظر مرة اخرى. اذا كانت هي متعلمة فناديا متعلمة وتجيد الانكليزية ايضا. واحتطت فلم انظرْ إلى ساعتي فقد تظن أنني اخشى أن يفوتني لقاء..(مع فتاةٍ). نهضت (الطالبة) واتجهت إلى المشرفة. ولحظة اعادتها الكتاب نظرتُ (مصادفة) نظرة قصيرة ناحيتي. فتركت المنضدة الطويلة. فتحت الباب قبلي فتبعتها هابطا السلم إلى المشجب. ولم تغلق الجانب الأول من الباب المزدوج.. فأنا خلفها. تركته مفتوحا فأغلقته أنا. واوشكت أن تتعثر وهي تهبط الدراجات القليلة (الزلقة) إلى الزقاق فأسرعت اليها آخذا ذراعها. فشكرتني ضاحكة وهي تقول:
ـ الأصحّ أن أعينك أنا خشية أن تنزلق.
ـ لقد اعتدت السير على الدراجات والارصفة الزلقة.
وأضفت ونحن متجهان إلى الشارع القريب:
ـ أظنّ أن الآنسة طالبة آداب.
ـ لا بدّ من أن الرواية هي التي (اوحت) اليك أنني طالبة في كلية

الآداب.
ـ ارجو المعذرة. لم اتعمد النظر إلى كتابك.
ـ لماذا تعتذر؟ لم(تقترفْ) ذنبا تخجل منه أو أخجل انا منه.

أجل. إنها فتاة ظريفة. وقبل أن تتجه إلى المترو قلت:
ـ اتسمحين لي بدعوتك إلى مقهى؟
ـ لا يمكنني البقاء اكثر من اربعين دقيقة. اعذرني من فضلك. غدا امتحان.
ـ لن آخذ من وقتك اكثر من هذا.

وأردت الأنعطاف إلى شارع غوركي عبر النفق.
ـ لماذا نعبر؟ قريبا من هنا مقهى أو مقهيان.

(إنها تعني مقهى البونش والآخر المجاور له)

ـ انهما مزدحمان الآن. على الجانب الآخر من شارع غوركي مقهى هادئ كما اذكر. لن نقرب (الفضاء) أو (موسكو).. الصفان طويلان عندهما. ما مررت هناك دون أن أرى صفين يكادان لا يتحركان. اجتزنا الشارع ناحية المقهى (السجائري)، لم يكن مزدحما كما قلت. لا أدري لماذا أجد، كلّ مرةٍ، اكثر من طاولتين خاليتين. ضحك وجه النادلة (المتمايلة) قائلة لي باشارةٍ من يديها المفتوحتين: لا مكان لديّ. واشارت إلى موضعٍ آخر في الزاوية من الجانب الآخر غير قريب من الواجهة الزجاجية. واقبلت النادلة الأخرى مرحبة. وقد اوصتها (السجائرية) بنا خيرا.. باشارةٍ واضحة. طلبت قدحي شمبانيا (لا وقت) ومثلجاتٍ. جاءت (المرحة):
ـ انت تعرف جيدا لماذا أتيت.
ـ في جيب معطفي علبة لم (تفتتح) بعد. سآتي بها.

ـ لماذا تتركها هناك؟ قد تسرق.
قالت الفتاة بعد ان عدت:
ـ انهن يعرفنك هنا.
ـ احيانا متباعدة اعوجُ على هنا ترفيها عن النفس.
قالت الفتاة، وقد راق مزاجها:
ـ هنا يطيب الجلوس بعد القراءات الطويلة.
ـ وبعد الترجمة المرهقة.
ـ تعمل مترجما؟

واوضحت لها. اتفقنا أن نلتقي في الرابعة مساء في المقهى (اقترحتْ هي محطة المترو، تحت الفندق، فارتأيت المقهى، من يدري؟ قد تمرّ ناديا فجأة بنا). اوصلتها إلى المدخل من المترو(ناسيا أن ناديا قد تخرج من هنا أيضا) وانعطفت قاصدا المقهى. اخذت قهوة وبونشا. حييت راجيا الجلوس إن لم يكن الكرسيّ الرابع محتجزا. وجلست.. حيث تجلس فتاتان وفتى. وتذكرت أن الفتاة رأتني مرة (ربما اكثر) مع ناديا في مكتبة الآداب الأجنبية. فاذا دخلنا معا، أنا وناديا، القاعة؟ أو وجدت الاثنتين جالستين قبلي؟ فمع من أجلس؟ أو مع من أخرج ان لم اجدْ مقعدا فارغا قرب أيةٍ منهما؟ ها قد أو قعت نفسي، وأنا لا أدري و أدري، كالفأر الساذج في فخٍ شائك أو بسيط. لا حلّ الا أن تتخلف الفتاة عن الموعد. ومتى جادت عليّ حلالة العقد بحلٍّ مريحٍ مثل هذا؟ لن ادع الفتاة منتظرة وجها لا يلوح. ما أنا فظ أو قاس. لماذا تبعتها؟ لماذا سالتني عن الساعة؟ ربما هي لم تسألني الا لأن ساعتها متوقفة حقا. لم أرها مرة في مقهى البونش. فلا خوف، كما يبدو، من أن نلتقيها، انا وناديا، مصادفة هنا. فاذا خرجنا غدا من المقهى السجائري.. فإلى أين؟ انفترق بلا موعدٍ؟ أأقترح انا تأجيل اللقاء بعد عودتي من (السفر)

أو بعد فراغها من الامتحان التالي؟ ومتى الامتحان الثاني؟ بعد أسبوع ؟ اقتربت المشرفة (الساقية؟) مني واخذت لفافة. أو قدتها لها، وانثنت إلى عرشها. لن ادعو الطالبة إلى الشقة. لماذا؟ فلماذا تبعتها ودعوتها إلى المقهى؟ انا لم اتبعها الا رغبة بقوامها. هل أهجر المكتبة شهرا؟ فاذا عدت ووجدتها سألقي تحية غامضة؟ وابتعد إلى القاعة الثانية. كم من موعدٍ تعثر أو اختفى وضاع بين العشرات من المواعيد الضائعة! تلك عرى واهية (تعقد) بينك وبين امرأةٍ عابرة (في المترو مثلا) لا تدري أين هي غداً أو بعد غدٍ.. أو من أين هي حقاً.ولا تعرف هي من أنت حقا أو أين انت غدا أو بعد غدٍ. ذهب (الجلساء) وخلت المائدة. سريعا ما حطتْ فتاة وفتى آخران. وانفرج الخيزران عنها:

ـ مساء الخير.

ـ مساء الخير يا وردة الضحى.

ـ لم تزل الشمس تتلكأ في النصف الثاني من الكرة الأرضية.

ـ أنا أعني شمس البونش.

وأضفت (جادا):

ـ أهي خطبة اخرى؟

ـ بل هو اجتماع مطول آخر.

ـ الطوارئ تترى!

ـ ما انا قعيدة شقةٍ.

ـ انت تلمزين مجتهدا كلّ متناه ترجمة.

ـ أو من رفع أثقال الأنخاب.

ـ سامح الله فماً أرقّ عذوبة من نسائم فجر صيف!

ـ تلفنت ولم (يستجب) الهمس المبتغى.

ـ كنت طيلة النهار.في الدار الأخرى.

هتفت ناديا ضاحكة:

ـ في العالم الآخر؟ العالم السفلي؟
ـ في دار النشر.. أو النشور. أيّ فرقٍ ؟
ـ الفرق بين جناح عمليات الدكتورة.. والبهو المتضويٌ فرحا في شقتك.
ـ كم قد فازت الدكتورة في إغلاق (الكوة) عن الجانب المظلم من العالم!
ـ أنا أول من فصل لك هذا.
لم أعدْ ادري ممن هي تغار الآن؟ من نينا بتروفنا أم من لوسا؟ ومن طيرّ اليها البرقيات ان لوسا افتتحتْ فصلا جديدا في الشقة؟ فاذا قصصت مازحا (قصة) الطالبة أو البداية منها؟ قالت ناديا (معاتبة):
ـ لم اكد أصل حتى ارتحلت بك الذكريات أو التأملات.
ـ أنا معك. ولربما أختطف الذهن لحظة طيف من لقاءٍ معك.
واضفت قائلا، لا ادري لماذا:
ـ كتب تولستوي وكتب غيره من شعراء الملاحم الغابرة عن الحروب.. عن اختطاف هيلينا.. وقبلها عن جلجامش وانكيدو.. عن الحرائق يشعلها الأنصار في قصور موسكو استفزازا لنابليون.. أو عن زحوف هانيبال أو عن الحروب الأهلية في امريكا وروسيا واسبانيا.. أو في بلدٍ آخر.أما أنا فلا أرى الآن الا اشتعال الزرقة العجائبية في عينيك.. والا احتراق يديّ المتضرعتين بوقدٍ من اصابعك المحرمة.
ـ لماذا هي محرمة؟
ـ أخشى أن أتقرب منها بلمسةٍ من أصابعي اليابسة فتشتعل.
ـ أناملي أم اناملك؟
ـ وأي فرقٍ كما تقولين؟
ـ فالى اين بعد البونش؟
ـ إلى المطعم.. إلى الركن الخافت منه.

ـ بل إلى بيتي. غدا توقظني جدتي في السادسة والنصف لأفطر.
ـ ومن يوقظني؟
ـ الساعة المنبهة.
ـ ما أوحشه قرعا ساعة الفجر كاجراس همنغواي.
ـ أو أحدب نوتردام.

لم تبق غير الخمرة الباهبة في القاع من القدحين والانبوبتين البطالتين كعكازتي سكير لم يعد يقو على السير في احد الأزقة تحت مصباح العمود الأصفر غير بعيدٍ عن الخمارة.. آملا العودة اليها أمل المصدورين المحشرجين انفتاح النافذة المغلقة عن الهواء الطلق عن السهول المترامية، العارية تحت شمس النهار.
ـ سأجيء بقدحين آخرين.
ـ لا قدح آخر اليوم.
ـ لماذا؟
ـ أريد ان اتفرج على فلمٍ معك قبل أن أنام.

استيقظت قبل السابعة. استحممت وأفطرت، وانكببت اترجم. وفي الثانية قبل الغداء في مطعم الحي تذكرت الموعد. تذكرت القارئة. لم تبق الا ساعتان. ارجأت الغداء (الى يومٍ أو يومين) وضحكت. لا أستطيب الخروج إلى المقاهي إلا فارغ الجوف. ألأنا (جاد) في اقتطاع الطرق والشوارع إلى هناك؟ إلى انتظار أو التقاء طالبةٍ في المقهى السجائري؟ ما الذي سأقوله أو تقوله لي؟ أزحت الجانب الأمامي الثقيل من المدخل إلى المقهى في الرابعة تماما. دخلت المقهى. تركت المعطف والشابكا (القبعة الفرائية الشتوية) لدى (حارس) المشجب. وانعطفت إلى قاعة الموائد. بحثثت بعيني عن الطالبة فلم اجدها. هل اكتأبت كما يكتئب الناس اذا ما وجدوا (المدخل إلى السينما أو المترو،

أو أيّ مكانٍ آخر متفق عليه مقفرا ممن قطعوا الطرقات إلى انتظاره فيه؟) لا أقولُ إنني كنت فرحا، دعتني (الغنجة) إلى نصف مائدة خالٍ. وسألتني بعد أن(استرحت) أيّ شراب اريد؟ قلت غير ناظر إلى الباب:

ـ كونياكا.. خمسين غراما من فضلك.

اخرجت علبة السجائر فاتحا إياها لها. قالت:

ـ ليس الآن. وانا اشكرك.

سانتظر نصف ساعةٍ لاغير. (دخلت المقهى في الرابعة تماما) أهي محاضرة غير متوقعةٍ ؟أم هو الطريق وتوقفاته؟ لن أبقى غير نصف ساعة. اقتربتْ من المائدة امراة مع طفلتها وسألتني: هل الكرسي محتجز؟ قلت: لا تفضلي. الطفلة تتورد عافية. سريعا ما اخذتْ تلاعبني وتمازحني. وامها تقول: لوسا..لا تزعجي الرفيق. قلت صادقا: انها لا تزعجني. طلبت المراة قدح شمبانيا ولطفلتها شوكولا. واخذنا نتحدث.بعد انتهائها من قدها رجوتها أن أوصي لنا بقدحين آخرين. المرأة عذبة ق ومليحة. والطفلة تهز النفوس (التائهة) مرحا وضحكا. نظرت آخر مرةٍ إلى الساعة فوجدتها في الخامسة. ولحظة تهيأت المرأة للخروج رجوت النادلة ان تقترب وسددت حسابنا. شكرتني المرأة قائلة: إنها تامل أن تراني في المقهى نهار الأُحد الآتي. إنها آتية مع طفلتها. وستدعوني إلى شمبانيا أو أي شرابٍ أريد. وصافحتني مصافحة مودةٍ.

لم تقل ناديا البارحة إنها قادمة إلى المقهى. ليكن. أنا ذاهب اليه. ليس المقهى بعيدا.ما هي الا خطوات. لماذا لم تحضر الطالبة؟ ألم أكن أرجو غيابها كما ينتظر اللصّ انطفاء السراج في الكوخ؟ أو كما يتمنى المستأجر تخلف صاحب البيت أول الشهر؟ لم تقل ناديا إنها آتية. في المقهى متسع لي.. ولها اذا ما هي ازاحت الخيزران. لم أجدْ كرسيا

خاليا. فدعتني (سدوري) المقهى اليها. ووقفت اتجرع القهوى المرة والبونش الحلو (وقد وضعتهما هي لي على كاونتر عرشها) في انتظار مقعد يخلو. فتحت لها علبتي قبل أن تسألني لفافة. استلتْ واحدة منها. أوقدتها لها ودعوتها مازحا (أو جادا) إلى قدح بونشٍ أو كأس كونياك. ضحكت عن اسنانٍ ناصعة قائلة لي:

ـ من يعدل السفينة المترنحة اذا ما ترنح الربان؟

لم يزل قدح البونش ممتلئا إلى منتصفه: منتصف السهرة؟ منتصف الليل الساهر؟ الفتيات يمتصصن بونشهن ناظراتٍ اليها والّي باعين مرحة: هل أفاوضها في لقاء بعد اغلاق المقهى؟ وسمعتها تقول:

ـ هي ذي حسناؤك!

التفتّ فرايت ناديا مزيجة عنها الخيزران. واقبلتْ إليّ.

ـ هو ذا مقعد لك. تفضلي.

ـ واضح انك أقمت طويلا في المكتبة.

ـ خيمت في مرعى ما.

ـ أين؟ ومتى؟ قل كلّ شيءٍ لي.

ـ القهوة والبونش أولا.

قالت وهي تبحث بعينيها عن كرسيين خاليين إلى مائدة:

ـ ها هي القهوة بين يديّ.. والبونش يهيأ.

ـ أثناء اشتعال الضوء الأحمر، وأنا في المركبة، أخذتني سنة من النعاس. فرأيت المركبة عربة تقودها الوعول حاملة إياي.. إلى مراع خضرٍ ومخيماتٍ.. إلى حيث تنبح الكلاب وتثغو القطعان. توقفت العربة عند خيمةٍ خرجتْ منها امرأة عجوز وفتاة شابة. العجوز تحمل مسبحة بيضاء بين يديها. والفتاة تحمل قفه ملأة بالدجاج الأبيض النائم. متى هطل الليل؟ لا ادري. متى فرشتا لي مضجعا؟ لا ادري. صحوت والديكةتصيح. العجوز تصلي. والفتاة تحمل شايا حارا لي.

أما النعمة الصغيرة التي أبصرت بها قبل دخولي المخيم، فلم تزل تنظر اليّ بعينين سوداوين كالناعستين. لم تكن نعجة. كانت فتاة طويلة الجدائل. أهي الفتاة حاملة القفة الملأى بالدجاج الأبيض؟ لا أدري، واقبل الصياد الخائب فارغ الكيس.. والسكين في يده. أسرع إلى القفة يريد تقطيع اعناق الدجاج. ألقت العجوز المسبحة عليه فقيدتْ يديه وساقيه. وهتفت الفتاة داعية كلبها الأبيض.فهجم على اللص.

ـ على اللص أم على الصياد؟

ـ بل هجم عليّ. وهنا افقت من النوم، وقد اشتغل الضوء الأخضر بعد الأصفر، وضجّ الشارع بأبواق السيارات تدعوني لأن اتحرك.

ـ وحين افقت من كان يقود المركبة؟ أنت أم الخيول؟

ـ اتعنين الوعول؟

قالت القيمة وقد فاتها شيء من (الحكاية):

ـ ومن كنت انت؟ الصياد أم اللص؟

ضحكت ناديا قائلة:

ـ هو اللص والصياد معا.

قالت القيمة ناظرة إلى آخر المقهى:

ـ خلت لكما مائدة. اسرعا اليها قبل غيركما.

حمل كلّ منا بونشه إلى آخر مائدة. وعدت اليها بفنجاني القهوة قالت ناديا، وقد رأتني أضع علبة السجائر على المائدة:

ـ أعطني لفافة.

اوقدت لها ولي. وقلت:

ـ أحيانا، في الأيام الأخيرة، تغيم عيناك وتشردان.

ـ قالت الجدة إنكما قد تتزوجان.

ـ لم تبرح نينا بتروفنا تعتذر. لا شيء في الأفق.

ـ لا أحد يقرأ خفايا الدكتورة مثلما تقرأها جدتي.

ـ أنا أقراها ايضا. ربما أقلّ من الجدة.انما أقرأها.
ـ ما أوقفها عن الاقتران بك إلا (فضول) الناس.
ـ ألف مرةٍ اردت إقناعها الا أهمية كبيرة لفارق العمر فيما بيني وبينها. وهو فارق غير ذي شأنٍ يذكر. إنها تريد مني أن اتزوجك.
ـ لا تمزحْ.
ـ فإلى أين نحن سائرون؟
ـ كلّ شيءٍ سيتضح بعد ثلاث سنين.

نهار اليوم التالي اتصلت بالجدة قائلا بعد التحية والملاطفة:
ـ أنت تعلمين انني أحبّ نينا بتروفنا اكثر مما أحبّ نفسي. ولم أزل أتوسل بين يديها راجيا الاقتران بها.. ولم تزل تعتذر. فهل سمعت منها أخيرا، كلمة قد تبشرني بضوء ما، بأمل ما.. أو بظل أو طيف امل ما؟
ـ اذا ارادت نينا بتروفنا أن تتزوجك فأول من سيعرف هو أنت. لا أنا ولا غيري. انت تعرف انك أعز عليها من نفسها أيضا. لكن فارق العمر، وهو عذر موهوم، هو ما يصدها عن الاقتران بك. وكلنا نعرف أنه سبب واهٍ لا يؤبه له.. الا هي.
ـ تقول ناديا إنك اخبرتها مرة إننا، أنا ونينا بتروفنا، قد تتزوج.
ـ لم أقل هذا الا تنبيها وتحذيرا لها. ناديا تعرف أنك مغرم بنينا ونينا مغرمة بك، وانك لن تتزوج الا نينا مهما يطل الزمن. غير أن ناديا توهم نفسها، أحيانا، ولا أدري لماذا تماما، أنك قد تياس من عناد نينا وتعرض عنها، وستتزوج ناديا آخر الأمر.. بعد ثلاث أو أربع سنواتٍ كما يخيل لها. وأنا أريد أن أبدد هذا الوهم.. أن أطرد هذه الغمامة بعيداً عن عينيها العزيزتين، فترى أن من الأفضل لها ان تصاحب فتى آخر عوضا عن مصاحبتك انت المغرم بغيرها.. نحن نعلم أنها ميالة اليك..

لنقل منجذبة اليك.الا أن هذا لا ينتهي إلى شيء.. ما دمت لا تريد زوجة لك غير نينا. ولا تحبّ غير نينا.. الآن أو بعد عشرين عاما. وهذا ما يؤكده كلّ شيء.
توقفت قليلا واضافت:
ـ اعذرني. لقد اطلت. أنا لا أرى في الجولات اليومية بينك وبين ناديا الا لهوا وتزجية وقتٍ. واذا كانت نينا لاتريد أن تقترن بك متكئة على هذه الحجة الواهية (اعني الفرق الضئيل بين العمرين) فانّ لك الحق في الاقتران بغيرها. ولن يندم احد إلاها. ولكنك عنيد مثلها، ولن تتزوج غيرها. وهذا ما اعرفه انا وتعرفه نينا جيدا. بل نحن متأكدتان منه تأكدنا من شروق الشمس كلّ يوم. لكن ناديا واهمة. ويبدولي، بل أرى في وضوح، انكما، انت ونينا. ستتزوجان بعد شهور، وربما بعد اقلّ من شهرين. وسينقشع تفكيرها بفارق العمر الضئيل مثلما ينقشع الضباب عن عين الشمس الساطعة.

الجدة تعرف كلّ شيء تقريبا الا شيئا واحدا:هو ان ناديا لا تلهو معي. بل هي (جادة).. هي امرأة .. عشقاً لاهوى.

كان نهار السبت باردا، صقيعيا. وقيل إن البرودة ستنخفض مع المساء والليل انخفاضا مقيتا. الشقة دافئة وأنا أترجم. منذ يوم وانا متهيئ. كلّ شيءٍ في الثلاجة وفي المطبخ. وبعد الثانية عشرة، وكنت عائدا من مطعم الحي، سمعت التلفون يدقّ. إنها نينا بتروفنا:
ـ اسمعْ. لا تخرج. أنا آتية في الخامسة.. أو بعدها لقليل.
ـ متى تخرجين من المستشفى اليوم؟
ـ قلت نا قادمة اليك في الخامسة.
ـ لا أريد الا أن أعرف.
ـ في الرابعة والنصف.. كما أظن.

ـ سانتظرك عند الرصيف الجانبي من الحديقة.
ـ ما بك؟ البرد مقيت.
ـ منذ لحظاتٍ وأنا عائد من مطعم الحي. الجوّ بارد جدا حقا.. إلا أنه يحتمل. سانتظرك كما قلت. وسابقى منتظرا. وقولي ما تريدين أن تقولي لي الآن. السيارة دافئة، والأغاني المسجلة لديّ عديدة.
ـ لا تخرجْ. اسمعني وأطعني مثل كلّ مرةٍ.
ـ لن أطيعك هذه المرة. وقتك لا يسمح بالمجادلة.
ـ لا تكن عنيدا.
ـ أنا عنيد جدا.

لن أشرب الا كاسا. لن أعطي شرطيّ المرور (حجة) لتأخيري. وقبل الرابعة والنصف كنت هناك، وعيناي ترقبان المارة. ورأيتها منعطفة من الباب الكبير، في فرائها الأنيق، ناحيتي. فتحت لها الباب فدخلت ضاحكة الوجه، متوردة الوجنتين، وشذاها العذب ملْء المركبة.

ـ قلت لا تخرج. لماذا هذه المعاندة؟
ـ السيارة دافئة. وانا أحبّ انتظارك.
ـ تعمدت الا اقبلك.
ـ سأقبلك أنا.

الشوارع مزدحمة، الا أن ازدحامها أخفّ. والمستشفى ليس بعيدا. اوقفت السيارة، في موضعها، قرب المدخل إلى المنزل، وغطيناها معا. ثم دخلنا وانتظرنا المصعد. وجاء أخيرا. الشقة دافئة ومضاءة. وقبل أن أعينها في انتزاع معطفها اخذتها بين ذراعي مقبلا وجهها، وهي تتمنع ضاحكة:
ـ سأغير أثوابي. لا تدخل من فضلك.

ـ ارتدي الروب.. أيا منهما.
كلّ شيء على المائدة، والريح تصفر عبر النافذة.
ـ سأتصل بأمي.
احتضنتها غضة، مائجة بين ذراعيّ وهي تتلفن. وكنت أشم شعرها الأشقر الثقيل، الفائح عبيرا مثيرا. وهي تحس كم انا راغب ومحبّ. وان لطراوتها ما يشعرني بالدوار. وهي تعرف. وتذكرت الليلة الأولى (لماذا لم تخبريني خجلت أن أقول لك إنني عذراء.) وذكرتها فضحكتْ قائلة لي:
ـ قبل ان تدعوني كنت أعرف أنني (امرأتك).
ـ هل ترتضين الاقتران بي اذا اتخذت من الزواج شرطا للقائي معك؟شرطا فريدا لا نكوص عنه؟ وأصررت اصرارا لا انتهاء له أو انحراف عنه؟ هل ترتضين؟ يا أعز علي من نفسي، يا أحبّ اليّ من نفسي؟
ـ اتهجرني وتعذبني لقاء توقيع؟
ـ لكنني ساتزوجك. صدقيني سأتزوجك.
ـ ألم أقل لك مرارا إنني تزوجتك في أول ليلة؟
ـ سنتزوج. وساذكرك بما أنا قائل الآن.
ـ أنا زوجتك.
ـ يا أجمل امرأةٍ على الأرض!
ـ قالت أمي إنها تنتظرنا غدا ساعة الغداء.
ـ إنها ترى رايي في الزواج منكَ
ـ أعرف. تقول إنني سأندم ندما مريرا إن لم اقترن بك.
وخطتْ إلى النافذة. أزاحت الستارة قليلا متأملة الليل والحديقة المقفرة. واعادت إرخاء الستارة، وانتزعت الروب وطرحته على الأريكة:
ـ الثلوج تتساقط الآن.

ـ لماذا (تعريت) من الروب؟
ـ في ثوبي المنزلي أبدولك (أفضح) إغراء.
وضحكتْ مقتربة من المائدة:
ـ انا امزح. الشقة دافئة تماما.
ـ أنا سانزع الروب ايضا. اتسمعين حفيف الصنوبر؟ الريح تذرو الثلوج في الطرقات والحدائق العارية. إلى أين تلتجئ العصافير الآن؟ احيانا، عند النافذة، اراها لاهية، واحس بها مقرورة. ما بقاؤها؟ لم لم تزمع الهجرة إلى الجنوب والشمس كالسنونو مثلا؟ وهو لا يكبرها كثيرا.
ـ يتطلب الرحيل أجنحة قوية.
ـ وأظن أنها غير معرضةٍ للبرد تعرض السنونو له.
وأضفت متذكرا:
ـ في ريفنا، بين القرى في الحقول المحصودة، كنت أرى اللقالق منحنية برقابها الطويلة على الأرض باحثة عن طعام لها. لم أر من الطيور المهاجرة بين القرى غيرها. ربما لانها لا تصاد. اما الطيور المهاجرة الأخرى، القادمة من سيبيريا كما كان يقول المعلمون، فلا ترى في العراء نهارا.انها في الأهوار والمناقع البعيدة. ولا تصاد إلا ليلا بالشباك، عند اقترابها من الحقول نابشة أرض الحقل الندية بحثا عن حبوب الرزّ المتبقية بعد الحصاد. لم أرها الا جثثا مقطوعة الأعناق تباع في قوارب زوجات الصيادين أو في السوق. اتذكر انها كانت منتوفة أو هي لم تبرحْ بريشها المائل إلى الخضرة القاتمة.. أو أن هذا هو ما يظهر لي الآن.
ـ نادرا ما تباع في المخزن.
ـ ونادرا أيضا ما يغرض البط البري.
ـ ألم تر من الطيور المهاجرة، غير البط، حية مرة؟

ـ ربما رأيتها. لا اذكر الآن.

ـ كنت أود أن نتجول الآن. الا ان الجو بارد جدا. وستهب الرياحُ قارسة في وجهينا. غدا نتنزه في البولفار، بين الأشجار المغطاة بالثلوج.. قبل أن نذهب إلى أمي ساعة الغداء إنها ليلة باردة.. للشقة لا للطرقات. لا اسمع خطوة في الدرب. ربما، فيما بعد، ستخفق الخطى العائدة، المتأخرة.لا أسمع مرور الحافلة الا خافتا. أما دندنة الترام البعيد فلا تصل.

ـ هل تودين الذهاب غدا مساء إلى المركز؟

ـ لماذا؟

ـ لمشاهدة فلم مثلا.

ـ اذهب مع ناديا.

ـ قد (تتحجج).

ـ لا أظن. هي مستوحشة كل يوم مع هبوط الليل.

ـ غالبا ما نذهب إلى المقهى.

ـ تقول صاحبتي مازحة: (اقترضته) ناديا منك.

وتذكرت صبيحة الغابة. تبدو نينا بتروفنا في ثوبها المنزلي (الساتر) هذا غير مكشوفة الذراعين (كالمتحجبة). الريح تذرع البولفار ملتفة بعباءتها البيضاء كما يخيل لي، وأنا أصغي إلى خفق الحذاء النسوي الشتوي، العالي القادم (من المترو؟) في تجاهنا. إنها ليلة المواقد كما يطيب لي أن أقول الشقة غير محتاجة إلى موقد الكرب أو إلى المنقلة (الكانون) الملأى بالجمر، وباب الكوخ القصبي لا يحجب بستار طردا للدخان. فاذا هبت هبوباً قويا في الليل فللنخل عويل امرأةٍ مخبولةٍ.. وقد تومض سيجارة اللص في الظلمة فتطلق اتجاهها النار.

ـ اين توقفت المخطوطة؟ والى اين هي؟

ـ توقفتُ حيث كنا معا آخر ليلةٍ، وهي متجهة إلى حيث نحن الآن.
ـ والداجا؟ هل ذكرت أو(تذكرت) الداجا؟
ـ إنها الخص (البقجة).
ـ أعرف الخص. فما البقجة؟
ـ إنها جنينة الفلاح أو صديقته الصغرى.. يزرعها إلى جانب الكوخ صيفا. ويسيجها بالقصب أو الحصائر.. منتظرا أن يقطف الباميا أو الباذنجان أو يقتطع ثمار البطيخ الاصفر أو اليقطين الاصفر منها الزاحف على الأرض اليقطين الاخضر متسلق الاكواخ. أما اللوبياء فتزرع كثيفة على جوانب السواقي. وقبل انتهاء الخريف لا يبقى منها حتى سياجها، فهو يقتلع حطبا للتنور. والبقجة في معنى آخر هي صرة الثياب.. أو ما يحمله المسافر من متاع، وقد صرّ عليه خرقة. وهي تركية الأصل.
ـ أكانت لكم مثلها؟
ـ اتذكرها جوار كوخنا. ربما زرعها احد الفلاحين وابتنى سياجها. كان لنا بستان نخل.. أو بستانان. كان مزروعين قبل ولادتي بالكرم والتين والرمان. ولم يبق من اشجارهما غير النخيل.
ـ وهل جفت اشجار الفاكهة ظمأ واحتطبت؟
ـ بل أماتتها كثرة المياه.. والإهمال، وهو السبب الأول.
ـ متى زرت القرية آخر مرةٍ؟
ـ لم ازرها مذ جئت طالبا إلى موسكو.
وأضفت متذكرا:
ـ زرتها مرة، صيفا بعد انتهاء الكورس الأول.
ـ إن لك عالمين: الريف والمدينة.
ـ بل القرية وموسكو.
وأضفت مصغيا إلى الرياح الهابة:

ـ أهي الزوبعة الثلجية؟
ـ لم يبدأ، بعد، إعوالها وقهقهتها.
ـ متى يبدآن؟
ـ لا ادري. ربما فيما بعد. لن ترى الحديقة الآن واضحة عبر الزجاج. أخذ يتغشى بالتجمد. لماذا لا تأكل؟ فيم كان وقوفي في المطبخ؟
ـ في انتظار أن تأكلي انت.
ـ لا تنتظرْ. تغدينا غداء جيدا في المطعم القريب من المستشفى.
ـ أنا أيضا. في مطعم الحي مطبخ محمود.

نهارا كانت الثلوج الناصعة متكومة في مواضعها، وقد ازاحتها النساء العاملات فجرا عن اوجه الطرقات والأرصفة. تركنا السيارة وذهبنا نتجول في البولفار. تركنا السيارة في موقفها عند المدخل إلى البيت متدثرة بغطائها المثقل بالثلوج. كانت نينا بتروفنا فرحة بالصقيع وبالثلوج كأية صبيةٍ روسيةٍ.. كأية امراة روسية تنحني على الثلوج المتراكمة، وتأخذ منها ملء حفنتها وترمي بها اليّ، أو إلى الرياح. وكنا نضحك ونتجول. بعد إلقائها علي المزيد من حفنات الثلوج.. انحنيت آخذا قبضة من الثلج ورميتها بها. فضحكت مشتعلة العينين زرقة صباحية وفرحا. ويمر بنا الناس ويضحكون فرحين باحتفاء نينا بتروفنا وفرحها بتراكم الثلوج. والرياح باردة، لاتكاد تحرك الاشجار المثقلة بالثلوج.. مثلما بدالي.

أوقفتنا امرأة عابرة قائلة لها، وهي لما تزل لا هية بالثلوج:
- نينا بتروفنا.. هل من الممكن أن اسأل غدا في المستشفى عنك.. الساعة الثالثة؟ لن آخذ من وقتك الا دقائق.
- تفضلي.. غدا أو في أي وقت.
والتفتت الي آخذة بذراعي:

- أمي تنتظرنا.
- وكنت أقول لنفسي: وناديا؟
- لم أر تحت تساقط الثلوج في مثل رقة نينا بتروفنا وابتهاجها. انها حيال الثلوج المتكومة في أماكنها.. تأخذ منها ما تأخذ وتلقي به الي أو إلى الرياح. المصاطب المقرورة لاتنتظر أحدا، ولا أحد ينتظر عليها أحدا. والصبايا يتضاربن بحفنات الثلوج. وانحنت نينا بترووفنا آخذة حفنة اخرى من الثلوج ورمتني بها. فضحكت الفتيات وقلن لي:
- ارمها. ارمها بها. ماذا تنتظر؟
قلت متذكرا مآزر الطبيبات والممرضات البيضاء:
- أخشى أن أؤذيها.
- الثلوج لا تؤذي. إنها هشة. إنها ناعمة.
- وقلت صائحا، مالئا يدي العاريتين من قفازيهما ثلوجا:
- القهوة مرة وسوداء في مقهى البونش.
ضحكت إحدى الصبايا قائلة:
- أضف اليها سكرا وحليبا.

لم أجد ناديا، ولم أكن متوقعا أن اجدها في المكتبة. حييت الطالبة وكأنني لا اتذكر تخلفها عن الموعد. ردت تحيتي ناهضة نصف نهوض، حانية راسها. أخذت الكتاب إلى القاعة الأخرى غير ملتفت اليها. أين ناديا؟ الساعة الآن هي السادسة فاين ناديا؟ في السابعة والنصف أعدت. الكتاب، ولم أرها في القاعة. بل رأيت الطالبة وكأنني لم أرها. ولم أجد ناديا في المقهى. أين هي؟ في المدخل إلى محطة المترو، قبل ان تهبط السلم الكهربائي، تلفونات. هل أدخل وأسأل عنها؟ لم ارها مساء الأحد. ولم أرها مساء الأثنين. واليوم هو الثلاثاء. فأين هي؟ لم تتلفن، ولم نتفق على لقاء. غير أن بيننا اتفاقا (موعدا غير متفق

عليه) في المكتبة أو في المقهى مساء كل يوم تقريبا. فأين هي الآن؟ أين ناديا؟ انفتح الخيزران مرارا.. إلا عنها. لم تقل آخر مرة إنها اتية اليوم. ولم تتلفن. فلماذا الترقب؟ ولماذا (اصفرار) الوجه كلما انفرج الخيزران عن وجه غير وجهها؟ دخنت ثلاث لفافات وأنا لا ادري. وسألني احدهم السماح بأخذ كرسي إلى مائدة اخرى، وسمحت وأنا لا ادري تقريبا. وعيناي إلى الخيزران الأصفر ينفرج وينغلق. وكأن المدينة الهائلة كلها خالية منها، من ناديا. وخلت موائد وحلها آخرون. وطلبت فتاتان مني الإذن في الجلوس، وسمحت وأنا لا ادري أو أنا كمن يدري. وكنت أنظر إلى ساعتي كاليائس أو كما ينظر الشحاذ في المقهى إلى اثنين باديي الثراء والوجاهة آملا، يائسا وهما يلعبان الدومينو أو الطاولي غير آبهين له. انها الثامنة. سألتني القيمة لفافة ثانية واوقدتها لها وعيناها تسألان: أين هي؟ وكنت وحيدا وحدة المريض المصدور بين الأصحاء. ولم اتذكر السلم المرمري الأشهب إلا في آخر لحظة، وأنا أضع علبة السجائر والقداحة في جيبي. وخرجت مقتربا من السلم قائلا لنفسي: ما أنا صانع في المطعم؟ أتفرج على الراقصين؟ أنتظر امرأة وحيدة ما؟ أم اعود إلى بيتي كما يعود الغريب المريض من المستشفى؟ وقبل أن اضع قدمي اليمنى على السلم مست كتفي يد لطيفة: أهي هي؟ والتفت. إنها القيمة تعيد الي ما تبقى من نقودي. شكرتها وتركتها لها. وقبل أن اخطو الخطوة الثاني سمعتها تقول وفي صوتها رنة فرح:

- ها هي قد اقبلت.

والتفت: إنها ناديا. لم أقل أي شيء. أخذت ناديا بذراعي أخذا رفيقا، ودخلنا المطعم. وجدنا نصف مائدة خاليا. النصف الآخر لفتاتين تبدوان لي من الأقاليم (ولا أدري لماذا؟) قالت ناديا كالمعتذرة.

- لم أشأ الحضور الا في آخر لحظة.
- لماذا؟
- لم يكن بيننا موعد.
أردت أن اقول (فلماذا حضرت؟) وحمدت نفسي أنني سكت.
- لم أكن أتصور أنك باق في المقهى إلى هذه الساعة. تخيلتك جالسا وحيدا في المطعم.. بعد أنتظارك الخائب. لا تقل إنك لم تكن تنتظر.
- كنت انتظرك.
لم تشأ غير الكونياك هذه المرة. قالت كالغضبى من (تعمدي) السكوت:
- أنت لم تسأل عن تأخري.
- أنت قلت: إننا لم نكن متفقين على لقاء.
- ليست هي المرة الأولى. كم قد التقينا بلا موعد. كم من مرة وجدتك منتظرا في المكتبة أو في المقهى دونما اتفاق بيننا؟
ضحكت ناديا فجاة وقالت كالمتشفية:
- حضر أندريه. وانتظر ماذا جرى.
– ما جرى؟
(صاحت) بي كالمنتظرة:
- قلت انتظر.
فضحكت أنا ناظرا إلى فمها: إلى شفتين ممتلئتين اشتهاء.

- كنت أنا ونينا بتروفنا في المطبخ. وسمعنا جرس الباب. فتحت جدتي الباب فرأت اندريه. سلم وقال: هل تسمحون لي برؤية ناديا؟ قالت جدتي: انتظر لحظة من فضلك. وعادت اليه حاملة المكنسة الطويلة. ورفعتها وهي تهم بضربه. بل ضربته فصاح مذعورا: لا تضربيني رجاء. أنا ضيف. وسمعنا الضجة فركضنا إلى الباب.
أخذت نينا بتروفنا المكنسة من يدها ضاحكة. والجدة تقول: دعيني

أؤدب الجرو السلحفاتي. ولا ندري ما الذي جعلها تجمع بين البري والبرمائي؟ أما هو فقد انطلق راكضا إلى السلم ويداه على رأسه.
وضحكت وضحكت الفتاتان، وقد انتهت اليهما اطراف من (الرواية) بل الرواية كلها فيما أظن. وقلت ناظرا إلى عينيها كمن يريد اغاظتها:
- لماذا لم يتصل بي فأصحبه وسيطا؟
- كانت ستضربك قبل أن تضربه.
- اتصل بي اندريه قبل أسبوع.
- ماذا أراد؟
- أراد أن أزوره.
- هل ذهبت؟
- لماذا لا أذهب؟ نحن صاحبان. وجدت لديه زوارا.. صحفيين من جريدة اخرى. لم يقل شيئا عنك. كانت هناك فتاة. صحفية هي الأخرى.
- الم يزل يزورك؟
- نادرا. بعد تلفون منه أو مني.
- لم تقل أي شيء لي.
- ولماذا؟ لم يذكرك. ولم يسال عنك.

بعد الخروج من المطعم انعطفنا يمينا حيال الجانب الامامي من فندق موسكو وعبرنا إلى حيث تقف السيارة. كانت آخذة بذراعي كما يحلو لها غالبا ونحن سائران. الريح باردة، ولا ثلوج تتساقط، غير أنها تلوح منبسطة على الأرض، كاسية اشجار الحديقة والتمثال. قالت ناديا وكأنني أنا (المقصر).. أو كأنما هي (الأقرب) اليه:
- لم نحمل، مرة، باقة اليه.
- غدا نمر على كشك الزهور ونحمل باقة حمراء اليه.

وأضفت ناظرا إلى وجهها الواجم:
- ذكريني غدا رجاء.
- لماذا اذكرك؟ أنت من يشتري فتذكر.
- لماذا أنت كالعابسة؟
- قلما يسلك الفتى والفتاة طريقين منفصلين بعد المطعم.
- تعالي معي إلى الشقة.
- لا (يجوز).
- لن يعرف أحد.
- لست (نشالة).

إنها محقة! وما (النشال) أو (المختطف) الا أنا. لم اتجه بالسيارة إلى منزلها.. بل إلى منزلي. لم تقل أي شيء. لم تتذمر أو تغمغم. كانت الساعة المضاءة (تقول) إننا في العاشرة والنصف. خرجت من السيارة داعيا إياها إلى الخروج. خرجت دون أن تغلق الباب فأغلقته في هدوء وقلت:
- تعالي معي من فضلك.
- لماذا لم (تتفضل) بدعوتي قبل أن أنبهك؟
- اخرجتك من المطعم متعجلا ناويا (استضافتك).
- الوقت متأخر.
- كلا. إنها العاشرة والنصف.
- ساعة (القيلولة).
- بل ساعة السهر الجميل.
- غدا نتعشى في أي مكان غير شقتنا.
- كم قد راتنا نينا بتروفنا معا بعد (الزيارة)؟
- لا أريد أن تلقانا غدا معا. هو (شرطي).

- قد اشترطه لك أو لا.
- لماذا لا؟
- الريح قارسة. فيم وقوفنا؟
في الرابعة تقريبا كنت في شقتهم. لم تعد نينا بتروفنا ناديا بعد. أعدت الجدة لي شايا. كان خفيفاً كانه خيال شاي مثلما يريده الروس. ذهبت إلى المطبخ وعدت بملعقة صغيرة من (فتات) الشاي وأضفته إلى قدحي الساخن والطويل. واخذت أحرك الشاي الفاتر. قالت الجدة:
- لم تضف إلى القدح شايا من قبل.
- كنت أخجل من إزعاجكم بشاي آخر لي.
- لا حاجة إلى شاي آخر. كان يمكنك، بعد أن نسكب لنا، أن تضيف إلى الابريق ما تشاء من الشاي. وذكرني في المرات القادمة من فضلك، فقد أنسى.

حضرت ناديا قبل نينا بتروفنا. وهمست لي والجدة في المطبخ:
- اذا كنت عنيدا فانا أعند.

دخلت الغرفة وخرجت مرتدية أثوابا اخرى:
- أنا ذاهبة إلى صالون الحلاقة. هلا توصلني من فضلك؟
قالت الجدة:
- الصالون قريب. قرب المخزن.
- سئمت (اصطناع) هؤلاء الحذاقة والتجديد. هناك غيرهم.
قلت (معاندا):
- بعد حضور نينا بتروفنا.
- نحن عائدان. لن نتأخر طويلا.
- وأين انتظرك طيلة بقائك في الصالون؟
- أحلق انت ايضا. هناك صالونان متلاصقان. احدهما للسيدات

والآخر للرجال. فإن انت مرهق (بأشغال) الترجمة سأذهب بلا (مرافق) كسول. الحافلة عن قرب. وبعد موقفين ساركب المترو.

قالت الجدة متسائلة، مستغربة:
- هذه (الرحلة) الطويلة كلها من أجل حلاقة؟
- ليبق متفرجا على التلفزيون.
- اذهب معها من فضلك. ليس هذا الا عنادا منها.

انتظرنا المصعد ولم تقل كلمة. وخرجنا إلى الدرب والسيارة وهي صامتة. فتحت لها الباب صامتا انا أيضا واغلقته واستدرت فاتحا الباب الآخر. وبعد أن ابتعدنا عن المنزل التفتت الي بعينيها المتوهجتين زرقة وبروقا قائلة، وفي صوتها رنة (مصالحة):
- انت لم تسال أين يقع الصالون.
- في الطريق عشرات الصالونات.
- لكنني (اصطفيت) صالون حلاقة معينا.
- أوضحي لي أين.. وسآخذك إليه.
- من يحلق اولا سينتظر صاحبه في السيارة.
- سأترك المفتاح معك.
- فاذا سبقتني؟
- سأتمشى قريبا.. منتظرا.

خرجت قبلها فأخذت اتسكع هنا أو هناك، غير بعيد عن الصالون. وكنا في مركز المدينة غير بعيدين عن البولشوي تياتر. والمركبة في موضعها عند الرصيف الجانبي من المتروبول. بعد أقل من نصف ساعة جاءت ناديا وأنا قرب السيارة:
- هل في نيتك (القبوع) سويعة في مقهى البونش؟

واضافت (مدللة) اياي:
- أم (تروم) مقهى آخر؟
- البونش (رحيقنا).
في المقهى امرأة جذابة، شابة، عرفتها أيام كنت طالبا في الكورس الرابع. كانت مع احدهم. حييتها وأجلست ناديا إلى مائدة فارغ نصفها. إلى النصف الآخر تجلس فتاتان. ثم عدت بالبونش وبعده بالقهوة. كانت الصاحبة القديمة في الطرف الآخر من المقهى. قالت ناديا وكأنها غير مبالية تماما بالمرأة:
- من طالبات المعهد؟
- كلا. كانت تتغدى مع زميلاتها العاملات في مطعم قريب من المعهد.. حيث كنت اتغدى احيانا. المطعم جوار مسرح بوشكين على جانب من تريفسكوي بولفار. كن مجموعة من الفتيات المرحات. لا أقصد (المرح) الذي تنكرينه على بعضهم. لا أقول هذا دفاعا عن الوجه الآخر للمرح.. مثلما تعلمين.
- ما انا قاضية أو حتى خريجة حقوق.
- انت خريجة (الادعاء العام).
- لا علم لي بهذه (الاكاديمية).
- لم تفتتح بعد.
- احجز، منذ الآن، كرسيا لطفلتنا فيها.

(اظهرت) ناديا يدها العاطلة من الخاتم وكانها غير آبهة لخلو يدها منه. هل استرقت الفتاتان نظرة إلى أيدينا؟ لا أدري. بعد المقهى صعدنا صعود آلهة الأولمب إلى المطعم المغطى بالسحب الرمادية. الموسيقى الراقصة تصدح مذ دخلنا. وكنت اعرف عزوفها عن الرقص الا بعد اقداح. لم يبق في القنينة غير نصفها تقريبا. فدعوتها إلى الرقص.

قالت في (غموض) أو في ما يشبه الغموض:
- في ما بعد من فضلك.
قلت لنفسي: لن أدعوها مرة اخرى، سالت احدى الفتاتين مراقصتي. فنهضت وذهبنا إلى الرقص. رايت أحدهم امام ناديا سائلا اياها مراقصته فهزت رأسها معتذرة كما لاح لي. فقد عاد وحيدا إلى مائدته. بعد أقل من اربع دقائق طلبت مراقصة الفتاة الثانية. كل شيء هادئ (كما يقول ريمارك) على الجانبين من المائدة. بدا لي أنها غير راضية عن تعمدي الا أسألها الرقص. بعدئذ خرجنا إلى الليل البارد.

اوصلتها إلى المنزل وعدت إلى شقتي وحيدا. غدا السبت. مساء ازور نينا بتروفنا أو تزورني. وبعد أن ارتديت بيجامتي سمعت التليفون يرن. من يتلفن الآن؟ أهي لوسا؟ لا أظن. فمن هي؟ هي ناديا:

- لم (امتط) المصعد. انتظرت حتى (ارتحلت) وخرجت إلى الشارع.. إلى كشك التلفون. وها أنا اتحدث اليك. لم اقبلك في المركبة الا قبلة خفيفة. كانت حارة كما عهدت قبلاتي (في الحر والبرد). لم أشأ الرقاد قبل أن (اثرثر) قليلا معك. أعرف أنك اخترت (عوضاً عن قوامي) رواية الآن. لا يمكنني (التكهن) أية رواية هي. ما اكثر الروايات!

كصبايا موسكو.. أو صبايا البونش! لا فرق. أرى رجلا يقترب مترنحا. إنه سكران. مر بالكشك كأنه لم يره. لا خوف علي. استطيع إيقاعه بحركة واحدة من قدمي.. بحركة دفاعية، بوليسية تعلمناها في التمرينات الرياضية: أنا امزح. اية رواية اخترت؟

- لم اختر بعد.
- قل مثلا.. عربية، زوسية؟
- يبدو انني ساختارها مترجمة إلى العربية.

- اذكر العنوان. وسأخمن المحتوى.
- (الغثيان) لسارتر.
- قصة رجل دائخ أو تائه في (الوجود).
- ما اذكاه تخمينا!
- طيب. ليلة هادئة. اوغير هادئة. ماالفرق؟

وضحكنا معا. وتذكرت فتاة المكتبة، مكتبة الآداب الأجنبية. ما الذي نفرها من الموعد؟ أو ما عاقها عنه؟ كانت (مرحبة) بي. فاذا وجدتها في المكتبة ثانية؟ هل ابتعد إلى قاعة أو غرفة اخرى بعد (التحية الصغيرة)؟ وما الذي اتوخاه منها؟ لا شيء. أو هذا ما (أتصوره) الآن. بل لا شيء. ولا شيء آخر. لا اريد فتيات البونش أو فتيات مقهى موسكو أو مقهى الفضاء.. فتيات الصف الطويل المنتظر على رصيف غوركي انفتاح المدخل إلى المقهى، بعد فراغ هذا الجانب من هذه المائدة أو تلك. لا لقاء الا مع نينا بتروفنا. لن انتظر غيرها أمام أية سينما أو مسرح. لن أسرع، تحت الثلوج أو الرذاذ، الا إلى لقائها.. شاحبة أو متوردة الوجنتين، شاحبة. فلماذا ناديا؟ ليست هي الا لقاء، بعد المكتبة الاجنبية، مع البونش، واحيانا مع العاشرة من الليل: ايها المتوكئ على عصا البونش وعيناه إلى انفراج الستار الخيزراني. ايها المترنح كما تقول ناديا.

المساء أو أول الليل الهابط بثلوجه الخفيفة، في مهب من الرياح الباردة كالمروحة العريضة البيضاء، المتحركة في يد السيدة اليابانية.. في اللوحات أو الافلام، بل في الصور الايضاحية (التخطيطية بالأسود والأبيض) التي تريد أن تجسد أو تخطط المنظر.. بعد أن أتعبت نفسها الثلاثية الشعرية في إبانته أو الإفصاح عنه. تكاد تكون الثلاثية (الهايكو أو الهوكو) منظرا محدداً متحركا.. أو لا حركة له.. سمكة..

يخرجها الصياد من شبكته ولا شيء آخر. شمس غاربة وبرودة تحسها يدا ضيف. أو غصن عار مساء في الرياح الهادئة، البادرة. أو أجراس تنعى النهار.

انني اتذكر مرثية توماس غراي. الريح عبر النافذة المغلقة تحرك الستائر. الكوة منفرجة قليلا. لا خفق نعال بكعبين عاليين تتجاوب بصداه الحوائط (أو كما يخيل لي متذكرا). الزجاج غير متجلد في انتظار الفجر البعيد والليل يطول وانا اقرا. لن ارى من الحديقة المقرورة، النائمة الا اشباح أشجار. والخفق النائي يقترب آتيا من المترو أو من الحافلة. وكلما دنا علا تحت النافذة في الصمت الشامل. ليس إلي. ليست هي لوسا. هل اتصل بها؟ ماذا سأقول معتذرا عن صوت التلفون وإيقاظ النائمين؟ وتنأى الخطى، خطى امرأة.. وكأنها هي الخطى نفسها التي طالما دقت الليل الصامت تحت نافذتي هنا، أو هناك تحت نافذة غرفتي الطلابية.. مقتربة، منخفضة الوقع، وعالية فعالية تحت النوافذ النائمة على الجانبين من الطريق، فمبتعدة، مبتعدة إلى أن تخبو وتتلاشى.. إلى أين؟ ولم أزل اقرأ. وها أنا اسمع خفق حذاء عائد بامرأة اخرى من المترو أو من الحافلة. لا أريد أن أصغي. ويدق التلفون:

- أرجو المعذرة (إنها نينا بتروفنا).. ناديا مريضة. لا تقلق. لا شيء غير التوعك. انا انتظرك. لا اريد إسعافا. سنأخذها أنا وانت إلى اقرب مستوصف. لا تقلق.

- أنا قادم الآن.
- لا تسرع. لا شيء غير التقيؤ.
- أنا قادم.

كانت ناديا مصفرة الوجه. وهي تبتسم لي. والجده الخائفة، الشاحبة مرتدية معطفها. لا قوة تمنعها من الذهاب معنا. كانت ناديا مرتدية ثيابها على عجل. ونينا بتروفنا ايضا. سريعا ماجاء المصعد. وناديا المصفرة الوجه تعزو اضطرابي إلى (قلة التجربة). وفي المستوصف لم يعطوها غير جرعات. وعدنا وهي (تسخر) من فزعنا. قلت مخاطبا نينا بتروفنا. ولا أدري لماذا قلت:

- لكنك تعرفين الدواء الذي اعطوه ناديا.

- لم يكن في (صيدلية) الشقة شيء منه. وصيدلية الشارع بعيدة. المستوصف أقرب. كان لا بد من أن نسرع بها اليه. وكنت أعرف أنك ستاتي الينا دونما إبطاء.

أرقدنا ناديا في سريرها وهي تقول:

- أنا في صحة وعافية تامتين. دعوني اجلس معكم. لن أشرب بالطبع بعد التقيؤ. بل اجلس هادئة هدوء الدجاج اول الليل.

قالت الجدة (مصححة) مازحة:

- بل مع اصفرار الشمس الغاربة.. في الأرياف.

قلت متذكرا أن نينا بتروفنا مبكرة غدا إلى المستشفى:

- ارجو السماح بالأنصراف. الوقت متأخر.

قالت الجدة جازمة:

- بعد القهوة أو الشاي.

- لم يبق وقت للشاي أو القهوة.

وكنت مرتديا معطفي، فاتجهت إلى الباب (مؤكدا) انصرافي واسرعت ناديا الي في ثوبها المنزلي:

- اتخرج دون مصافحتي؟

- لم اشأ إقلاق حسناء (الصداع والدوار).

- بل حسناء (التقيؤ).

قالت الجدة مقبلة ناديا:

- قبلها، قبل أن تخرج، قبلة ادفأ بل (أحر) من قبلتي.

انفلتت ناديا منها كأنها تفر من تقبيلي إياها. اوصلتني نينا بتروفنا وانتظرت إلى ان حط المصعد قالت وصوتها يهمس لي اشتهاء:

- الأفضل أن انتظرك غدا هنا.

انفتح المصعد عن وجهين: رجل وامرأة لا تعرفهما نينا بتروفنا. فلم أقبلها الا قبلة خفيفة. لا ذرة نوم في عيني أو في أركان الشقة أو في المرايا منها. لن اتجرع غير الشاي. لكن الشاي (ستار خيزراني) آخر يقصر خطى النوم أو يمنعها من الدنو من الأجفان الساهرة. وفزعت إلى رنين التلفون في جوف الليل الساكن الا من إعوال الرياح البعيد الخافت. هل هي ناديا تتلوى متوجعة من جديد؟ لم يكن الصوت صوت نينا بتروفنا. إنها لوسا وقد انتصف الليل أو هو موشك أن ينتصف. حيتني ضاحكة وكأننا لم نفترق الا قبل ساعة:

- هل ايقظتك؟ لا أظنك نائما.

- أنا انتظرك.

- قل انتظركما.

- أهي ايرينا البضة إلى جانبك؟

- ومن غيرها في هذه الساعة من الليل؟ أنا امزح. هناك غيرها. ولكنني لم اختر إلاها. لا أجمل منها أو مني في موسكو كلها. فتشها شارعا بعد شارع. مع أن الشوارع مقفرة الآن.

- أين أنتما؟

- في شقة ايرينا. ومسرعتان اليك الآن.

- كلا. انتظراني عند المدخل. أنا قادم اليكما. لن اتأخر. الطرقات

خالية تقريبا. ولا شرطي مرور يتعمد تأخيري.

اسرعتا إلى السيارة، وقلبتاني الواحدة بعد الأخرى. لا نفح شراب يفوح منهما. لاشيء غير العطر النسوي. ورائحة الصقيع. وانحدرنا مع اضواء الشوارع واشجارها، مع المركبات القليلة، نتوقف من حين إلى آخر كلما اشتعلت الإشارة الحمراء. والأرصفة مهجورة أو هي مهجورة تقريبا. وكأنما الأضواء ترتجف بردا. أوقفت السيارة في موضعها عند المنزل. ودثرناها بغطائها. وجدنا المصعد متوقفا كأنما هو في انتظارنا. فصعدنا صعود آلهة الأولمب. تولتا هما كل شيء. المائدة تنتظر وأيدينا كالقطوف الدانية. قالت لوسا:

- هات بيجامتين من بيجاماتك.. أو بيجامة وروبا. وارتد انت بيجامة. نحن (متحفظتان) الآن بعد طول غياب عنك. أنا أمزح. إيرينا لا (ترتضي) التعري الا بعد الكأس الثالثة. ولماذا بعيدا؟ بعد الثانية. نحن مجازتان غدا. ولا تسل أية شمطاء خطّت لها ولي إجازة يوم. غدا الغداء في احد مطاعم المركز. ولن نفطر. سنصحو بعد صياح الديكة باربع ساعات. في صحة طهاة الغد.

- ومتى تتجردين أنت؟

- أنا عارية إلا من الروب.

واضافت (جادة):

- ولا تقل إن دكتورتك أجمل عريا في روبك مني.

قلت جادا، مازحا:

- الليلة خمر. وغدا خمر. والترجمة بعد غد.

قالت ايرينا جادة:

- اتصل بي. وسأحضر وأعينك في الترجمة اسرع واجود مما تعينك اية مستعربه أخرى. فإن كنت لا تصدقني الآن.. جرب تر.

التفت إلى لوسا مستغربا. قالت لوسا مؤكدة:

- إنها مستعربة بارعة. لم تشأ الظهور بمسوح العارفين أول مرة. هي مهندسة مثلي. وليس الاستعراب الاحرفة في الظل. قل هو هواية.

- ولم تتلفظ معي لفظة عربية واحدة.

قالت إيرينا كالمعتذرة:

- كنت احتفظ (بعربيتي) مفاجأة لك.

- في لقاء آخر.. أنا وانت.. لن نتكلم الا العربية.

قالت لوسا جادة أو مازحة.. (لا ادري):

- لن تخطو اليك خطوة واحدة دون (إجازة) مني.

وقبل أن ارتدي المعطف مساء أو قبل المساء (الليل ينحدر على المدينة ساعة العصر) تذكرت أن نينا بتروفنا لم تتلفن. كان الاتفاق أن أزورها أو تزورني مساء اليوم. انما في أية ساعة؟ سأؤجل النزهة (الباردة) إلى أن تتلفن. اخذت مجلة اتلهى بها. التلفزيون مطفأ منذ البارحة.. أو منذ يومين. لا أدري.

خرجت (أول مرة اليوم) في الحادية عشرة اتغدى (لم أفطر) ومررت بالمخزن. انتهى النهار القصير وأنا اترجم. كان الجو باردا جدا عندما خرجت. إنها رياح قطبية مثلما يخيل لي مرارا كلما هبت في وجهي محملة بأنفاس البجار المتجمدة.

وسمعت التلفون يرن. هي نينا بتروفنا.

- انتظرك في البيت بعد ساعة. سأغادر المستشفى بعد دقائق. يمكنك الذهاب إلى الشقة الآن. أمي وناديا هناك. لم تزل ناديا متوعكة قليلا.

اتصلت بمديرتها (أنا اعرفها) ومنحتها إجازة لهذا اليوم. اراك عندنا إذن. ارتد ثيابك الداخلية الدافئة. لا تعاند. الجو قارس. وتدثر بمعطفك الثقيل. اسمع وأطع. (وضحكت هي. ربما تتخيلني متذمرا) إلى اللقاء.

سأحمل معي قنينة نبيذ خفيف. صحيح أن ناديا لن تشرب اليوم. لكنني لا أحب أن نجلس إلى مائدة موحشة. إن لدى نينا بتروفنا قنينة في الثلاجة.. في أي وقت. غير أنني لا أريد انقاص الثلاجة من بعض محتوياتها.. مادمت اجد مخزنا مفتوحا هنا أو هناك. فتحت ناديا الباب مرتدية روبا دافئا. الجدة في المطبخ. التلفزيون منخفض الصوت.

- لم تتصلي وتقولي إنك مجازة وباقية في البيت.
- لم اشأ ابعادك عن (انجازاتك). اعرف انك قادم مساء.
- قبل قليل تلفنت لي نينا بتروفنا. ومنها عرفت.
- تعال. سأعد لك شايا. أو لا حاجة إلى (مقدمة صفراء)؟
- لن تشربي غير (المقدمة).
- ادري. لن تسمح نينا بتروفنا. وإن انا في اتم العافية.

أقبلت الجدة الي مرحبة، باشة..
- أخبرتني نينا انك آت. واوصتني ان (اعد كل شيء).
- لا تتعبي نفسك. سنشرب الشاي في انتظارها.
- لا ادري لماذا يبدو لي إنكما ستتزوجان قبل رأس السنة.
- هل اشارت نينا بتروفنا إلى شيء من هذا؟
- لم تشر ولم تقل. بل ارى (الأمر) بعيني بصيرتي.
- عسى ان تتجسد الرؤيا.

همت ناديا لإعداد الشاي فمنعتها الجدة.
- إجلسي انت وتحدثي مع (الضيف).

- ما أنا ضيف.
- أريد إغضابك.
ثم جاءت الجدة بالشاي. فأخذت ناديا قدحها قائلة:
- عوضا عن البونش.. شاي خفيف أو أصفر كما تزعم.
- نلبونش وقت.. وللشاي وقت.
- تصورتك آتيا الينا بعد (رحلة مبكرة) إلى المقهى.
- لا أريد رؤيته مقفر منك.
- لا تصدح. كم قد زرته خاليا مني.
- لا أذكر أنني دخلته غير آخذٍ رقمي معطفينا.
- وبعد طيران العصفورة الأميركية؟
- لم أدخله الا معك.
- لو إن للمقهى (عدادا)!
فتحت نينا بتروفنا الباب. فأسرعت أعينها في انتزاع معطفها وهي تقول:
- كيف حال عروسنا؟
سبقتها ناديا اليها مقبلة وجهها:
- سمعت إن اطباء العالم احتشدوا في الأمم المتحدة، وانتخبوك ملكة على عرشهم، وإن نساء العالم الجميلات اجتمعن هناك ايضا، وتم الاتفاق بينهن، ونادرا جدا مايتم الاجماع بينهن، واخترنك جميعا ملكة على عرش جمال العالم.. مصفقات، هاتفات.
-وقد طيرت وكالات الانباء اخر نبأ من المؤتمر.. وهو النبأ القائل انني دعوتك من الصف الامامي لاضع على رأسك الجميل تاج ملكة الجمال.. محتفظة بالتاج الثاني، فاخذت انت تاج الجمال ووضعته بيديك على رأسك.. مثلما اخذ نابليون من يدي البابا التاج الأمبراطوري ووضعه على رأسه بيديه وهو اعتزازا منه بأهميته الامبراطورية.

قبلتني نينا بتروفنا وقبلت امها، وذهبت إلى غرفتها وعيناي تتبعانها، وانا افكر بكوة المخدع التي تركتها منفرجة قليلا، سنجد الغرفة باردة. جاءت الجدة بالاقداح وبقنينتي (هي أخف) مبقية الاخرى في الثلاجة هل تفكر بكأس صغيرة لناديا؟ ثم اتتنا نينا بتروفنا مرتدية بدلة زرقاء قائمة، لائقة تماما ببياضها وشحوبها، انها قادمة معي إلى السهرة المنزلية الصغيرة، رفعت الجدة النخب الاول آملة ان تدق اجراس زفافنا، (انا ونينا بتروفنا) قبل ليلة رأس السنة.. أو في الليلة نفسها. قالت نينا بتروفنا (لا ادري اكانت مازحة ام جادة؟ ام هما الجد والمزاح في آن واحد؟)..

-انا اخطب ناديا له.

قالت ناديا بادية المرح..

- من رأى عروسا تخطب لعريسها امرأة اخرى ليلة عرسهما؟ (انها تومئ إلى ارتداء نينا بتروفنا اثوابا احتفالية في انتظار ذهابها معي إلى شقتنا) لم اكن انتظر من نينا بتروفنا الا ان تضحك. غير انها سكتت محزونة قليلا. قالت ناديا وقد فوجئت بالأسى الخفيف يعاود وجه نينا بتروفنا:

-لم اقل الا مزاحا.

قالت الجدة ناظرة اليّ والى نينا بتروفنا:

-ناديا محقة. آن ان توافق نينا على زواجها بمن يحبها وتحبه.

واضافت، وقد صمتت نينا بتروفنا صمتا عميقا:

-اهنئك واهنئها انها موافقة.

قالت نينا بتروفنا، ويدها الحارة الغضة تحس يدي:

-امي.. انا من تعلن الموافقة انما.. ليس اليوم.

واضافت شادة على يدي بقوة:

-في اقرب وقت. لن اطيل انتظاركم.

شحب وجه ناديا قبل ان تقول نينا بتروفنا (ليس اليوم) يبدو لها ان اليوم الذي ستعلن فيه نينا بتروفنا موافقتها لم يكن الا مؤجلا.. أو هو في في قرارة آخر قدح من اقداح البونش. ولا انتهاء للبونش مثلما يلوح لها احيانا، وارغمت نفسي ارغاما قويا الا انظر إلى وجهها نظرة اشفاق لا اريد ان اتزوج الا نينا بتروفنا. ولا احب الا نينا بتروفنا. ومن المعتوه، كما قلت انا مرارا، الذي يتخلى عن امرأة مثل نينا بتروفنا؟ مست يدي، هذه المرة مساً رفيقا فاشتعلت الروح في القلب!

وفي شقتي اخذتها بين ذراعي قبل ان تنزع المعطف ومنديل الرأس كانت تلف رأسها الرائع بغطاء مخملي ابيض، ابتعته لها قبل حلول الشتاء، كأنني لم اطوق امرأة من قبل.

-سأغير اثوابي. لا تدخل من فضلك.

اتتني، وانا في المطبخ في رداء منزلي بهيج:

-اذهب وارتدِ بجامة وروبا.

-لن ارتدي الروب.

-لاتعاند. أو كما تشاء. الشقة دافئة.

-قلت ليس اليوم. متى يجيء (اليوم)؟

-لاتكن متعجلا مثل امي.

-ما احر اشتياقي إلى ان اعرف.

-قلت لكم. في اقرب وقت.

-لماذا ليس اليوم؟

-الا تريد ان (اتدلل) عليك؟

-هل اوصدت الكوة المنفرجة في غرفة النوم؟
-(اقفلتها).
-انت غضبى، ولا اظن انني (الجاني).
-انا اشفق على ناديا.
-ومن الذي يشفق عليّ انا؟
-انا.

لماذا قالت ما قالت عن ناديا؟ اهي تعرف؟ لا اظن، لو عرفت لما ترددت في هجراني برهة واحدة. إلى اين غدا؟ هي إلى بيتها. إلى ناديا وامها، وانا إلى اين؟ هل اترجم النهار كله وازورها مساء (مع الساعة التي تعيد الملاّح إلى بيته) أو تعيد الفلاح إلى كوخه حاملا مسحاته؟ لن اترجم غدا. ولن اقرأ. سأدبج. سأخط آخر الصفحات، واتوقف مؤجلا (التأليف) إلى وقت آخر.

لن اصب قبل ان تعود نينا بتروفنا من المطبخ. الريح باردة في الطرقات، والثلوج تتساقط وكأنها لاتتساقط تحت المصابيح الشاحبة. كأنها عالقة في الهواء القارس. الاشجار تتغطى بها الآن في الحديقة، وعلى جانبي البولفار. والريح تتسكع بينها كأمرأة متشردة، مشتملة بعباءتها البيضاء كما قلت مرة قبل ايام أو قبل اعوام، ما الذي تدونه الرياح، الآن على الثلوج، تدونه وتمحوه؟

لم تبرح نائمة عندما صحوت، الغطاء منحدر عن صدرها فرددته عليها. وهي نائمة كصبية اتعبها اللهو في الحديقة طيلة النهار. تتنفس مثلما تتنفس الزهور نهداها الشابان كنهدي عذراء يعلوان وينخفضان بالغطاء. الليل عبر النافذة، والفجر الضئيل يوشك ان يتسلل. ابتعدت عن الفراش حذرا خشية ايقاظها وذهبت إلى المطبخ

لاعد لي شايا. اي جمال نائم هناك! الديكة تتصايح الان على اسقف الاكواخ. التوقيت هو نفسه هنا أو هناك. و(هي) تصحو لتخبز. العجين منذ البارحة ملء وعائه، وقد اختمر. ذراعاها فارغتان من رجل الليل منذ شهور، هي البيضاء الممتلئة اتتذكرني مثلما اتذكرها الان؟ اتتذكر آخر ليلة لنا؟ في احد فصول رباعية الاسكندرية يقول كاتب واقعي لكاتب خيالي: انك تقيم على معانقة عارية، عابرة بين رجل وامرأة كاتدرائية تتوهج زينة!! الا ان نينا بتروفنا كوكب درّي لايلمس بل تلتهب الاصابع قبل ان تلمسه.. أو لحظة اقترابها منه تلك المرأة المخبولة في طرقات دوبرولوبوف.. الم تزل تنادي: سونيا خذي حذرك من السيارة! صائحة بطفلة صرعتها العجلات قبل سنين. لم ارها الا مرة واحدة في الطريق إلى المخزن وهي عائدة منه: عيناها تائهتان وصوتها قد بُحّ مثلما بُحّ صوت بتيّة، مجنونة القرية بعد طول صباح وتجوال بين القرى المتناثرة عبر الأرياف. سونيا.. سونيا. كنت اسمعها كل يوم تحت نافذتي الطلابية، وهي عائدة من الشارع أو ذاهبة اليه.

اين هي تلك الارملة الان؟ لا اعني ارملة الفلم، ارملة زوربا، لم تزل تلوح لي ملتفة بالسواد كأنها اليكترا. انا اعني ارملة القرية. لم يكن لي الا احتضان ليلة معمرة على جانب من البيدر. تركوها ناطورة مثل ناطورة في نشيد الانشاد. وانفرطت الليلة كما تنفرط حبات المسبحة تائهة الطرقات. لا اتذكر أو لا اريد ان اتذكر الا امتلاءها مائجا كامتلاء الزوجة الخائنة في قصيدة لوركا. الليل تحت نافذة المطبخ شحاذة عرجاء انتهب اطفال الزقاق عكازها منها.

واين هي فالا الآن؟ طرقتني بعد خمس سنين على آخر ليلة لي معها. وكنت في غرفتي الطلابية اقرأ (الحرب والسلام) لم تكن الا ممرضة من الممرضات فلماذا احببتها وكأنها اول وآخر ممرضة؟ آنذاك

كنت اعيش اول شتاء روسي لي. اتذكر اهتزاز خصلاتها في نسائم المترو الدافئة. اتذكر ابتسامتها اللامعة. لم اتزوجها فوجدت بغيتها في طالب طب داغستاني. قالت امها ان اسمه عباس. ورزقا طفلا سمياه وفيقا. الريح تسن اظافرها. من قال هذا؟ لا اتذكر: أهو اليوت؟ الارانب تتكاثر في حديقة المستشفى البيطري. اين هي الآن تلك الدكتورة البيطرية؟ وجهها عار وساقاها رائعتان. لا احد. لا احد. وكأنني فلوطين الاسكندراني. لماذا لا اصور الحياة مختزلا اياها مثلما صور الخريف شاعر الهايكو الياباني باثيو:

ساعة الاصيل
على الغصن العاري
يقبع غراب وحيد

قد تطول المعانقة أو تقصر. غالبا ما تطول. كلما عانقتها أقسمت أنني لن اعانق غيرها. فلماذا لوسا؟ لماذا ناديا؟ مع أنها هي الأبدع قواما والتفافا، والأرق والأنعم. أهي الرغبة في التغيير؟ أم هو التحول أنتقل الينا من تحول الطبيعة من صيف إلى خريف؟ أصيخ السمع إلى الطريق فلا يطرق سمعي خفق حذاء امرأة مبكرة إلى عملها. لن (تشرق) صبيحة الأحد المظلمة الا بعد ساعة من الآن. فمن هي التي تبكر إلى المترو منذ الآن؟ أطل على الحديقة النائمة فلا أرى أحدا. المدينة نائمة أو لم تزل نائمة وأنا صاح. الغد ينطوي على نهاره انطواء الجنين على نفسه في الظلمات من رحم أمه. كيف هو الرحم الهائل الحار؟ الرحم الذي انطوى على شيء مني قبل أن امتطي اول طائرة. لا بد من أنها قد أو قدت تنورها الآن. النخل مظلم والفجر ينبلج. السماء غائمة أو صاحية كأمواه البئر العميقة. لم تبرح نينا بتروفنا نائمة. لن أدخل غرفة النوم. ولن أذهب إلى البهو.

قد توقظها خطواتي. سأتجرع الشاي هنا وأنا اتطلع عبر النافذه. بعد أن أمسح الزجاج. لقد مسحته حالما جئت المطبخ: وها هو (يتغبش) مرة أخرى. سأشعل النار تحت الإبريق حالما تصحو. لا أحد في الطريق. على المائدة عدد من المجلات. سأتصفحها منتظرا. سأترك اعداد الإفطار لها مثلما تريد. لا أدري ماذا تحبذ أن تتناول. مع هذا سأسلق اربع بيضات. وهي مع الجبن ومربى الكرز ستؤلف وجبة طيبة. لم تصح إلا في الثامنة والنصف. مع إنها اعتادت النهوض فجرا. قبلتني قبل أن أقبلها. كنت ثملا برؤية جمالها الصباحي. قالت وقد رأت كل شيء على المائدة: لماذا لم تنتظرني فأعد إفطارنا كما تعده كل زوجة صالحة؟ وأضافت مقبلة وجهي مرة أخرى:

- سأستحم أولا.
- أنا أستحممت قبلك.
- لن أتأخر.
- بل تأخري كما تريدين.
- ألست جائعا؟
- شربت شايا. وهو عندي نصف إفطار.
- ما الذي نبهك مبكرا؟
- صياح ديك.
- لا ديكة هنا كما أعرف.
- سمعته صائحا فوق سقف كوخنا هناك.
- لماذا لم توقظني فإسمعه معك؟
- كنت نائمة كطفلة.. فلم أجرؤ.
- فوت علي سماع أروع صيحة ياصاح.
- قضّي الليلة هنا. وستسمعينه قبل أن أسمعه.
- ما أدراك إنه سيصيح وأنت نائم؟

- تحية لنهوضك المبكر.
- طيب. غدا سأنهض في هدوء تام فلا إزعجك.
- لا أروع من رؤية وجهك لحظة الصحو.
وجاءت في روب لي على ثوبها المنزلي. قلت محتضنا قوامها الباذخ مقبلا وجهها: الآن أتصور كيف خرجت افروديت من محارتها؟
- الآن فقط؟
- بل كل لحظة أراك فيها.
- كفى تغزلا. ودعنا نفطر.
- وهل تفطر الآلهة بغير الرحيق؟
- لا رحيق في مطبخك. بل انواع من قناني الخمر.
وتراءى لي بونش المقهى فتذكرت ناديا. ولا ادري لماذا قالت نينا بتروفنا أو ما الذي ذكرها فقالت ناظرة الي نظرة عميقة فأحسست كمن يفاجأ وهو عار، أو كما تفاجأ الطيور في أوكارها الآمنة:
- لا ارتضي غير البونش رحيقا.
- هلمي بنا إلى المقهى اليوم.
- المقهى لناديا. والشقة لي. أنا امزح.
قلت فجأة ولا ادري لماذا:
- لن أضيف سطرا إلى المخطوطة قبل أن نتزوج.
- اكتب ولا تتوقف الا إذا شاءت لك اللحظة الابداعية أن تتوقف. كما تقولون انتم معشر الادباء. اللحظة أم العملية؟
- العملية الابداعية هي الطريق كله. واللحظة هي البرق.
- انت تقصد، هنا، الخطوة الأولى أو البداية.
- ها انت تعرفين كل شيء.
- أنا لم اقل إلا تخمينا.
- أنا اتكلم ومن آفاق قصوى. وهذا مما يربك. لا شعرية في النظرية

الادبية. أو نظرية الأدب وهو القول الأصح.
ونهضت من المائدة قبل أن أنهض قائلة لي:
- سأنام الليلة هنا. ينبغي أن تتعود على استيقاظي المبكر قبل أن نتزوج. لا أريد أن تتذمر بعد بضع صبائح من نومنا معا.
- فاذا فاجأتك وايقظتك أنا من نومك كل فجر؟
- سأقبلك، عندها، قبلة شكر هي أطول قبلة في تاريخ الحياة الزوجية. أوهي أطول قبلة في تاريخ اضطجاع الانثى والرجل معا.

وكنت أقول لنفسي: لن تدخل غرفة النوم امرأة غيرها بعد الزواج. واستدركت قائلا: ولماذا ليس منذ اليوم؟ فاذا دعتني لوسا إلى غرفتها؟

لن أذهب. أو لعل هذا هو ما أقوله الآن، الريح باردة في وجهينا ونحن نتمشى في البولفار. الثلوج في أمكنتها، بعد أن كنستها النساء العاملات بمجارفهن عن الارصفة والطرقات منذ الفجر الباهت القارس. وقبل أن نعود إلى المركبة القابعة سنمر على المخزن، ونشتري طبقة بيض لي، وقنينة خمر.. بل ثلاث قنان. سابقي اثنتين منها مع البيض في الشقة. ونحمل الثالثة معنا إلى غداء الشقة الأخرى. الأشجار مثقلة بثلوجها على امتداد البولفار. ونينا بتروفنا آخذة بذراعي، وأنا اتذكر صدرها الناصع الممتلئ، وقد انحدر عنه الغطاء. كل فجر سيوقظنا معا من نومنا صياح ديك. وأضمها وأقبلها وهي لم تزل نعسى، حارة. لكن.. ما الذي تدونه الرياح على الثلوج، تدونه وتمحوه؟

إضافتي:

مات الفتى في حادث اصطدام مروع، وكان مسرعا بسيارته إلى لقاء

نينا بتروفنا. وكانت ناديا معه في السيارة، وقد ماتت قبله بساعتين.
هذاما اخبرتني به نينا بتروفنا نفسها، وقد التقيتها مصادفة في بارك غوركي، في موسكو، بعد الحادث بثلاثة أعوام، وكانت مرتدية السواد. قالت إنها ستبقى مرتدية السواد حتى آخر يوم من عمرها.
وهي التي اعطتني هذه المذكرات، وقد تركها الفتى عندها قبل الحادث بيوم واحد فقط. أما لماذا تركها عندها فلا أحد يدري إلا الله. وحين التقينا ثانية وكنت قد قرأت المذكرات (وهي تعود إلى أخريات الستينات من القرن العشرين) لم تسأل، ولم ترد أن تعرف أي شيء عنها. الا أنني حدثتها عن كل شيء إلا عن ناديا. وقد احتفظت بها طويلا قبل أن أعيد كتابتها.

(هذه يوميات او مذكرات حقيقية، كتبها في موسكو قلم لا
أعرفه، وهي تعود الى أواخر الستينات من القرن العشرين،
وقد اعدت كتابتها موسعاً، مستفيضاً حتى اضحت رواية
يمكنني القولِ انني كاتبها الآخر وسيعرف القارئ كيف
وجدت سبيلها إلى..)

